
الدين .. والدجل
(٩)
هكذا يفكر..
العقل السلفي
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب ـ من خلال الأدلة والوثائق الكثيرة ـ اللبنات التي يقوم عليها المنهج السلفي في التفكير، وهي سبعة:

الرجال .. لا الحقائق: فالعقل السلفي ينطلق من صناعة أصنام السلف التي يتلقى عنها كل حقائق الدين، ويسلم لها تسليما مطلقا.

الحشو .. لا التحقيق: فالعقل السلفي يجمع كل ما روي عن سلفه من متناقضات.. ويسلم لها جميعا.

الرواية .. لا الدارية: فالعقل السلفي يهتم بالحفظ، أكثر من اهتمامه بالفهم.. ويهتم بالرواية أكثر من اهتمامه بالتحقيق.

التوهم .. لا التعقل: فالعقل السلفي نتيجة بنائه الروائي يعتمد في تفكيره على الخيال، ولهذا حول العقيدة التنزيهية إلى عقيدة تجسيمية تصويرية يتسنى له فهمها.

الحسية .. لا المعنوية: فالعقل السلفي يغلب الجسد على الروح، والشهوة على العقل، والبهيمية على الإنسانية، والحرفية على المقاصدية.

الشدة .. لا اللين: أو القسوة بدل الرحمة، أو العنف بدل الرفق، وهو ناشئ من غلبة السبعية على الإنسانية، وغلبة العدوانية على السلمية في العقل السلفي.

المدنس .. لا المقدس: فالعقل السلفي يختلط لديه المدنس بالمقدس، ويصعب عليه التمييز بينهما، ولذلك يسلم لهما جميعا، فيتحول المقدس بذلك إلى مدنس.

الدين والحل

(9)

هكذا يفكر .. العقل السلفي

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يخطئ الكثير من الباحثين في نظرتهم للظـاهرة السـلفية حين يقصـرونها على مجـرد سـلوكات ومواقـف وبعض الأفكـار المتطرفة التي قد يتبناها بعض النـاس في مرحلـة من حيـاتهم، أو في كـل حيـاتهم نتيجـة فهم متشـدد للـدين.. فهـذه نظـرة سـطحية محـدودة لا تمثـل الواقـع السـلفي، ولا تسـتطيع بهـذا التحديد أن تفهمه، ولا أن تعالجه.

لأن الظــاهرة الســلفية في حقيقتهــا وجوهرهــا منهج في التفكير لا يختلف عن المناهج التي اعتمدتها المـدارس الفكريـة المختلفة كالفلاسفة والمتكلمين والصوفية وغيرهم..

فكمــا أن الفلاســفة يعتمــدون العقــل المجــرد لدراســة الظواهر المختلفة سواء كانت مجـردة أو حسـية لفهم الوجـود، وكيفية التعامل معه.. وكما أن المتكلمين يحاولون التوفيــق بين العقل المجرد والنص المقدس لفهم حقائق الوجـود.. وكمـا أن الصـوفية يعتمـدون تجريـد البـاطن ليصـبح محلا صـالحا لتـنزل حقائق الوجود.. فهكـذا السـلفية لهم منهجهم الـذي نحـاول في هذا الكتاب أن نتعرف عليه لنفهم بعد ذلـك المصـدر الـذي ينبـع منه فكرهم وسلوكهم ومواقفهم.

ذلك أن التفكير هـو المصـنع الـذي ينتج الأفكـار.. والأفكـار هي المصنع الـذي ينتج المواقـف والسـلوكات.. ولـذلك لا يمكن أن نفهم الظاهرة السلفية، ونحن نجهل المنبـع الأساسـي الـذي يصدر منه كل ذلك الفكر والسلوك والمواقف.

ونحب أن نستبق النتائج لنذكر أن العقـل السـلفي يختلـف اختلافا جذريا عن العقل الفلسفي والعقـل الكلامي، لأن كليهمـا يحــاول أن يبــذل جهــدا فكريــا للوصــول إلى الحقــائق ســواء باعتمــاده على العقــل المجــرد، أو مزجــه بين العقــل المجــرد والـوحي الإلهي.. والعقـل السـلفي لا يطيـق مثـل هـذا الجهـد، وليس لديه الآليات التي تسمح له بذلك، ولهـذا نـراه يعـادي كلا العقلين، ويتهمهما بالهرطقة والزندقة.

أما العقل الصوفي، فهو مـع اختلافـه الشـديد عنـه، إلا أنـه يتفق معه في ناحية التجرد للوصول إلى الحقيقة.. ويختلف عنه في الجهة التي يستقبل منها الحقيقة .. فبينما يرى الصوفية أنها الإلهام والعلم اللدني وتلك الفتوحات الإلهية الـتي يفيضـها اللـه على قلب الصوفي بعد تحققه بالعبودية والإخلاص والتجرد.. أما السلفي فيرى أنها [السـلف]، أي أن السـلفي يتجـرد من عقلـه وتفكيره وتأمله ليترك لسلفه الحرية في أن يضـع في عقلـه مـا يشاء.. باعتبار السلف كائنـا مقدسـا، ولا ينطـق عن الهـوى، ولا

تعتريه الأخطاء.. فلذلك كان ـ في تصوره ـ مصدرا صالحا لتلقي الحقــائق من دون تلــك الرياضــات الشــديدة الــتي يمارســها الصوفية، ومن دون ذلك التأمل العميق الذي يمارسه الفلاسـقة أو المتكلمون.

ولهذا فإن العقل السلفي أكثر العقول راحة، لأنـه لا يحتـاج سوى لمعرفة رجال السلف الذين يأخذ عنهم دينه، ثم يسمع ما ذكروا، ويحفظه، ويظل يردده، وبقدر حفظـه لمقـولات السـلف بقدر تمكنه من الدين والعلم.

وهو في استقباله لما قال السلف لا يحتـاج إلى عـرض مـا ذكروا على عقله المجرد الفطري ـ كما يفعل سائر الناس ـ لأن العقل حجاب، وقيد يحول بينه وبين الإيمان الذي يقتضي الاتبـاع المجرد.

ولهــذا فــإن العقــل الســلفي يمــزج بشــكل عجيب بين المتناقضــات .. فهــو يمــزج بين المقــدس والمــدنس.. وبين الحقيقة والخرافة.. ولا يشعر بـأي تنـاقض بينهـا.. لأن دوره هـو الحفظ والسماع والرواية، لا التفكير والنقد والدراية.

وهذا الذي ذكرناه وانطلقنا منـه لم نقلـه من عنـد أنفسـنا، بل هـو مجـرد وصـف لمـا يذكرونـه في كـل كتبهم .. فالسـلفي الخالص عندهم هو الذي لا يفكر أبدا .. حتى أنه لا يتدبر القــرآن الكريم ليستنبط منه أنـواع العلـوم والفوائـد .. لأن التـدبر حكـر على السـلف.. أمـا الخلـف فليس لـه إلا أن يسـمع ويطيـع لمـا يقوله جنرالات السلف الصالح.

ولهـذا لا يكتفـون عنـد ذكـرهم لضـرورة الرجـوع للكتـاب والسنة لاستنباط الحقائق بالكتاب والسـنة، بـل نـراهم يضـمون إليهما شرطا أساسيا، وهو [بفهم السلف]، أي أننا لسـنا أحـرارا في أن نفهم الكتاب والسنة بحسب ما تقتضـيه اللغـة والعقـل ـ كما يقول المتكلمون والفقهاء ـ أو بحسب ما يفتح الله علينا به ـ كما يقول الصوفية ـ وإنما ينبغي ان نفهمهما بحسب ما يرويــه لنا السلف، فهم أقدر على فهم الدين منا.

ولأهمية هذه النقطة في فهمنا للعقل السلفي، سأنقل هنـا بتصــرف حــوارا طــويلا جــرى بين الشــيخ الألبــاني والأســتاذ عبـدالحليم أبـو شـقة مؤلـف كتـاب [تحريـر المـرأة في عصـر الرسالة]، والتي يمـارس فيهـا الألبـاني دور الموجـه.. ويمـارس فيها الأسـتاذ دور المريـد أو السـلفي البسـيط الـذي ليس عليـه سوى السمع والطاعة، فمن قال لشيخه: لم .. لا يفلح أبدا.

وتبدا المحاورة من سؤال الشيخ الألباني للأسـتاذ: إن قيـل لك ما مذهبك فما أنت قائل؟

قال الأستاذ : مسلم .

قال الألباني: هذا لا يكفي .

قال الأستاذ : لقد سمانا الله المسلمين، قال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج 78]

قال الألباني: هذا جواب صحيح لو كنا في العهد الأول قبل انتشار الفرق، فلو سألنا الآن أي مسلم من هذه الفرق التي نختلف معها جذريا في العقيدة لما اختلف جوابه عن هذه الكلمة فكلهم يقول ـ الشيعي – الرافضي – الدرزي – النصيري – العلوي ـ: أنا مسلم إذن هذا لا يكفي في هذه الأيام .

قال الأستاذ : إذن أقول أنا مسلم على الكتاب والسنة.

قال الألباني: أيضاً هذا لا يكفي .

قال الأستاذ : لماذا ؟

قال الألباني: هل تجد واحداً من هؤلاء الذين ضربناهم مثلا يقول أنا مسلم لست على الكتاب والسنة، فمن الذي يقول أنا لست علي الكتاب والسنة؟

ثم أخذ الشيخ الألباني يبين له أهمية الضميمة الثالثة [الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح]، وبعد أن اقتنع الأستاذ بذلك قال: إذن أنا مسلم على الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح .

قال الألباني: إذا سألك سائل عن مذهبك فهل تقول له ذلك؟

قال الأستاذ : نعم .

قال الألباني: ما رأيك نختصرها لغة لأن خير الكلام ما قل ودل فنقول: (سلفي)

قال الأستاذ : قد أجاملك وأقول لك نعم، لكن اعتقادي ما سبق، لأن أول ما ينصرف فكر الإنسان عندما يسمع أنك سلفي إلي أشياء كثيرة من ممارسات فيها شدة تصل إلي الغلظة قد تقع من السلفيين.

قال الألباني: هب صحة كلامك فإذا قلت مسلم ألا ينصرف إلي شيعي أو دُرزي أو اسماعيلي؟

قال الأستاذ : من الممكن لكن أكون قد اتبعت الآية الكريمة﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج 78]

قال الألباني: لا يا أخي إنك لم تتبع الآية، لأن هذه الآية تعني الإسلام الصحيح، ينبغي أن يخاطب الناس علي قدر عقولهم، فهل يفهم أحد منك أنك مسلم بالمعني المراد في الآية؟ والمحاذير التي ذكرتها آنفا قد تكون صحيحة أو غير ذلك لأن قولك شدة قد يكون هذا في بعض الأفراد وليس كمنهج عقدي علمي، فدعك من الأفراد لأننا نتكلم عن المنهج، لأننا إذا

قلنـا شـيعي أو دُرزي أو خـارجي أو صـوفي أو معـتزلي تـرد المحـاذير الـتي ذكرتهـا، إذن فليس هـذا موضـوعنا فنحن نبحث عن اسم يدل علي مذهب الإنسان الذي يدين لله به .

ثم قال الألباني: أليس الصحابة كلهم مسلمين؟

قال الأستاذ : طبعاً .

قـال الألبـاني: لكن فيهم من سـرق وزنى، وهـذا لا يسـوغ لأحدهم أن يقول أنا لست مسلماً، بل هو مسـلم ومـؤمن باللـه ورسوله كمنهج، لكنه قد خالف منهجه أحياناً لأنه غـير معصـوم، ولـذلك فنحن ــ بـارك اللـه فيـك ــ نتكلم عن كلمـة تـدل علي عقيدتنا وفكرنا ومنطلقنـا في حياتنـا فيمـا يتعلـق بشـؤون ديننـا الذي نعبد الله به، وأما فلان متشدد أو متساهل فأمر آخر.

ثم قـال الشـيخ الألبـاني: أريـد أن تفكـر في هـذه الكلمـة الموجزة حتي لا تبقي مصراً علي كلمة مسلم وأنت تعلم أنـه لا يوجد أحد يفهم منك ما تريده أبداً فإذاً خاطب النـاس على قـدر عقولهم وبارك الله لك في تلبيتك(1).

هذه هي المحاورة، ولا نقول المناظرة، لأن أحـد الطـرفين كـان مجـرد ملقن، والآخـر مسـتمع، وهي توضـح الأسـس الـتي يقـوم عليهـا المنهج السـلفي، فهـو منهج يعتمـد على السـلف لا على العقل.. ولا حتى على النقل.. لأن النقل أصبح ملكـا للأمـة جميعـا، وهم يحتـاجون أن ينفـردوا عنهـا، وكـان الانفـراد باتخـاذ سلف محدد يتميزون به عن غيرهم.

وما ذكره الألباني هو نفس ما يذكره جميـع أعلام السـلفية ابتداء من متقدميهم الذين ألفوا الكتب الكثـيرة في نصـرة علم السلف على علم الخلف..

يقول ابن تيمية: (ولا عيب على من أظهر مـذهب السـلف وانتسب إليه واعتزي إليـه، بـل يجب قبـول ذلـك منـه بالاتفـاق، فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا)(2)

وقال المؤرخ السلفي الكبير الحافـظ الـذهبي في ترجمتـه للحافظ الدارقطني: (لم يـدخل الرجـل أبـدا في علم الكلام ولا الجدال ولا خاض في ذلك، بل كان سلفيا)(3)

وسُـئل الشـيخ ابن بـاز فى محاضـرة ألقيت فى الطـائف بعنـوان (حـق المسـلم): مـا تقـول فى من تسـمى بالسـلفي والأثري هل هى تزكية؟ فأجاب: (إذا كـان صـادقاً أنـه سـلفي أو أثري فلا بأس مثلما كان السـلف يقولـون: فلان أثـري وسـلفي تزكية لابد منها تزكية واجبة)

1() نقلا عن: لماذا اخترت المنهج السلفي، للشيخ سليم الهلالي، ص36.

2() الفتاوى 4 / 149.

3() سير أعلام النبلاء 16 / 457.

وانطلاقا من هذا، فإن حوارات السلفية مع المخالفين لا تنطلق من المناقشات العلمية العقلية الهادئة التي ينتصر كل طرف فيها لحجته، بل إنها تنطلق من ذلك الاستعلاء الذي يتصورونه لأنفسهم.. فهم يرون أن الحق لهم، لأن أقوال السلف معهم.. ويرون أن غيرهم على الباطل، لأنه يعمل عقله، أو يفكر بطريقة تختلف عن تفكير السلف.

ومن الأمثلة على ذلك أن الشيخ صالح الفوزان سئل: (هل من تسمى بالسلفية يعتبر حزبي؟)، فأجاب: (التسمي بالسلفية إذا كان حقيقة لا بأس به أما إذا كان مجرد دعوى، فإنه لا يجوز له أن يتسمى بالسلفية وهو على غير منهج السلف، فالأشاعرة - مثلا - يقولون: نحن أهل السنة والجماعة، وهذا غير صحيح، لأن الذي هم عليه ليس هو منهج أهل السنة والجماعة، كذلك المعتزلة يسمون أنفسهم بالموحدين .. فالذي يزعم أنه على مذهب أهل السنة والجماعة ويترك المخالفين، أما أنه يريد أن يجمع بين الضب، والنون : كما يقولون، أي : يجمع بين دواب الصحراء ودواب البحر، فلا يمكن هذا أو يجمع بين النار والماء في كفة، فلا يجتمع لأهل السنة والجماعة مع مذهب المخالفين لهم كالخوارج، والمعتزلة، والحزبين ممن يسمونهم : المسلم المعاصر، وهو الذي يريد أن يجمع الضلالات أهل العصر مع منهج السلف، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.فحاصل أنه لا بد من تمييز الأمور وتمحيصها)

وسئل في محل آخر: (نسمع بعض الناس يقولون: لا يجوز الانتساب إلى السلف، ويَعد السلفية حزب من الأحزاب القائمة في الوقت الحالي)، فأجاب الشيخ صالح الفوزان: (نعم السلف حزب الله، السلف حزب؛ لكنهم حزب الله، الله -جل وعلا- يقول: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]، السلف انحازوا إلى الكتاب والسنة وإلى الصحابة فصاروا حزب الله، وأما من خالفهم فهم أحزاب ضالة مخالفة.. الأحزاب تختلف .. هناك حزب الله، وهناك حزب الشيطان، كما في آخر سورة المجادلة، هناك حزب الله،وهناك حزب الشيطان.ز فالأحزاب تختلف. فمن كان على منهج الكتاب والسنة؛ فهو حزب الله. ومن كان على منهج الضلال؛ فهو حزب الشيطان. وأنت تَخيّر، تكون من حزب الله، أو تكون من حزب الشيطان! تَخيّر!!)(1)

انطلاقا من هذه التصريحات، فإن البناء العقلي للسلفية ينطلق من تحديد الرجال الذين يأخذون عنهم فهم القرآن والسنة .. ويأخذون عنهم كل تصوراتهم للكون والإنسان

1() الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة ص 16.

والحياة.. ويأخـذون عنهم بعـد ذلـك مـواقفهم من المـوافقين أو المخالفين..

يقول الفوزان في الرد على قول البـوطي (إن السـلفية لا تعني إلا مرحلة زمنية): (ونقـول : هـذا التفسـير للسـلفية بأنهـا مرحلة زمنية وليست جماعة تفسير غريب وباطـل، فهـل يقـال للمرحلة الزمنية بأنها سلفية؟! هذا لم يقل بـه أحـد من البشـر، وإنما تطلق السلفية على الجماعـة المؤمنـة الـذين عاشـوا في العصر الأول من عصـور الإسـلام، والـتزموا بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ من المهـاجرين والأنصـار والـذين اتبعـوهم بإحسـان ووصفهم الرسول ﷺ بقوله: (خيركم قرني ثم الـذين يلـونهم ثم الذين يلـونهم) الحـديث، فهـذا وصـف لجماعـة وليس لمرحلـة زمنية، ولما ذكر ﷺ افتراق الأمة فيما بعد قال عن الفرق كلها : (إنها في النار إلا واحدة)، ووصف هـذه الواحـدة بأنهـا هي الـتي تتبع منهج السلف، وتسير عليه، فقال : (هم من كـان على مثـل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) فدل على أن هنـاك جماعـة سـلفية سـابقة، وجماعـة متـأخرة تتبعهـا في نهجهـا، وهنـاك جماعـات مخالفة لها متوعدة بالنار)(1)

وبناء على هذا يشكل الرجال منطق السلفية الحقيقي، فلا يحتاج المتحدث معهم لأن يثبت لهم أي قضية بطريقة منطقيـة، وإنما يحتاج فقط لينقل لهم من أقوال الرجال ما يؤيد به قوله.

ولهـذا نـرى معظم المنـاظرات الـتي تجـري بينهم وبين خصومهم تنتهي بالخصومات، لأن أكثر المناظرين لهم يتحاورون معهم بالحجج العقلية والنقلية.. وهـؤلاء لا يعرفـون كلا النـوعين من الحجج، لأن الحجة عندهم هي ما قال سلفهم..

وذلك أنهم متواضعون جدا، يتهمون عقولهم دائما بأنها أقل من أن تتجرأ فتفهم من النص ما لم يفهمه السلف.. ولـذلك إن حصل الصدام بين ما اقتضـته عقـولهم، وبين مـا يقـول سـلفهم قدموا سلفهم واتهموا عقولهم.

هذا هو المنطلق الذي يبدأ به العقل السـلفي في التفكـير، وقد حاولنا أن نثبته ونبين الإشكاليات المرتبطـة بـه في الفصـل الأول من هذا الكتـاب، والـذي عنونـاه [**رجال .. لا حقـائق**]، ونقصد به تقديم السـلفية للرجـال على حسـاب الحقـائق، كمـا روي عن الإمـام علي حين أجـاب من سـأله: أيمكن أن يجتمـع الزبير وطلحة وعائشة على باطل؟ فقال: (إنك لمبلوس عليـك، إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعـرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله)(2) .. وهذا النص يدل على أن

---

(1) البيان، ص (133)

(2) ورد بألفاظ متعددة، انظر: التبيان ـ للشيخ الطوسي ـ 1 / 190، مجمع البيان 1 /

العقل السلفي كان موجودا في كل الأزمنة ابتداء من ذلك العصر الأول.

أما **الفصل الثاني [حشو .. لا تحقيق]**، فقد قصدنا منه الحديث عن لبنة أخرى من لبنات منهج التفكير عند السلفية، وهي من مقتضيات اللبنة الأولى، لبنة الرجال، ذلك أنه يرى أنه ما دام الرجال هم الذين يمثلون الدين وكل الحقائق، فمن الضروري جمع كل أقوالهم في كل المسائل، حتى إذا ما احتاج العقل السلفي للإجابة على أي سؤال وجد من سلفه من يغنيه بالإجابة عنه.. ولا يحتاج إلى بذل أي جهد، أو القيام بأي عمل عقلي للبحث عنه.

ولهذا نرى في كلام سلفهم ـ كما سنرى بتفصيل في كتابنا [هذه علوم السلف] ـ الحديث عن كل شيء.. فهم يتحدثون في الفلك والتاريخ والجغرافية وكل العلوم.. بل هم يفسرون كل الظواهر بتفاسيرهم الخاصة التي ينبهر بها السلفية، ويسلمون لأصحابه حتى لو خالف كل علوم الدنيا، وكل علمائها.

ولهذا نرى السلفية في هذا العصر الذي فتحت فيه خزائن الكثير من العلوم متشبثين بعلوم سلفهم، حتى لو خالفت العلوم الحديثة، بل هم يعتبرون العلوم الحديثة بدعة ينبغي التحذير منها، لأنها تحجب عن علوم السلف.

وقد كان هذا الحشو.. أو الجمع لكل شيء مثار نقد لهم من خصومهم من قديم، ولهذا أطلقوا عليهم لقب الحشوية.. كما قال تقي الدين السبكي: (الحشْوِيّة:هم طائفة ضلّوا عن سواء السبيل،وعُمِّيت أبصارهم، يُجْرُون آيات الصِّفات على ظاهرها ويعتقدون أنها المراد،وسُمُّوا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري رحمه الله تعالى فوجدهم يتكلمون كلاما ساقطا، فقال: ردُّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة،وقيل سموا بذلك لأن منهم المجسمة أو هم هم والجسم محشو فعلى هذا القياس فيه الحشوية بسكون الشين إذ النسبة إلى الحشو)(1)

والمشكلة الأكبر في هذا الحشو الذي ملأوا بها عقولهم حتى يمنعوها من التفكير هو كونه ركاما كبيرا يختلط فيه الصدق بالكذب، ويختلط فيه حديث رسول الله ﷺ بأخبار القصاصين والمشعوذين والدجالين.. ولهذا فإن العقل السلفي ـ وحتى لا يجهد نفسه بالتمييز بين الخبيث والطيب ــ يتقبل الجميع بسهولة ويسر، ويضع الجميع على كاهل السلف.. فما دام القائلون هم السلف، فيكفي ذلك لقبوله سواء صدق رفعه لرسول الله ﷺ أو لم يصدق.

---

188 ـ 189.

(1) الإبهاج في شرح المنهاج (1/ 346)

وقد أشار ابن الوزير إلى هذا المعنى عند ذكره لسر التسمية بالحشوية، فقال: (فإن الحشوية إنما سمُّوا بذلك؛ لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ أي : يدخلونها فيها وليست منها)(1)

وقال أبو حاتم الرازي : (ومن ألقابهم -أي : أهل الحديث- الحشوية : لقبوا بذلك؛ لاحتمالهم كل حشو روي من الأحاديث المتناقضة حتى قال فيهم بعض الملحدين : يرون أحاديث ثم يروون نقيضها، ولروايتهم أحاديث كثيرة مما أنكر عليهم أصحاب الرأي وغيرهم من الفرق في التشبيه وغير ذلك، فلقبوهم الحشوية بذلك)(2)

أما **الفصل الثالث [رواية .. لا دراية]،** فقد ذكرنا فيه اللبنة الثالثة التي يتشكل منها العقل السلفي، وهي لبنة الرواية.. فهو عقل يهتم بجمع الروايات وحفظها، فأكثرهم علما أكثرهم حفظا، ولهذا نرى ألقاب العلماء عندهم مرتبطة بقدر المحفوظ.

فالعالم يبدأ عندهم بـ (المسند، وهو الذي يروي الحديث بإسناده، سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد الرواية.. ثم المحدث: وهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع رواة، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه.. ثم الحافظ: وهو أرفع من المحدث .. وهو من روى ما يصل إليه ووعى ما يحتاج لديه.. ثم الحجة: وهو الحافظ العظيم الإتقان والمدقق فيما يحفظ من الأسانيد والمتون تدقيقا بالغا ليصل حينذاك إلى لقب الحجة. أما المتأخرون من العلماء فقد عرفوه بأنه الذي يحفظ ثلاثمائة ألف حديث مع معرفة أسانيدها ومتونها.. ثم الحاكم: وهو الذي أحاط علما بجميع الأحاديث حتى لا يفوته منها إلا اليسير.. ثم أمير المؤمنين في الحديث: وهو الذي فاق حفظا وإتقانا في علم الأحاديث ومن هؤلاء: سفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم. أما من المتأخرين فمنهم الحافظ بن علي بن حجر العسقلاني)(3)

ومما يذكرونه في مناقب يحي بن معين، والذي يحتل عندهم مكانة رفيعة، ما ذكره ابن المديني حين قال: (لا نعلم أحدا من لدن آدم عليه السلام كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين. قال عباس الدوري: سمعت يحيى بن معين يقول: لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه. وعن يحيى بن معين

1() الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم 1/ 120.

2() نظر كتاب: الزينة، ملحق بكتاب: الغلو والفرق الغالية، للدكتور عبد الله سلوم السامرائي ص 267.

3() انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (1/ 4)

قال: كتبت بيدي ألف ألف حديث)[1]

بل إنهم يـذكرون أن الإمـام أحمـد كـان يحفـظ ألـف ألـف حديث.. قال الذهبي في ترجمته: قال عبد اللـه بن أحمـد: قـال لي أبو زرعـة: أبـوك يحفـظ ألـف ألـف حـديث، فقيـل لـه: ومـا يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

وروى عن أبي زرعة قال: (حـزرت كتب أحمـد يـوم مـات، فبلغت اثني عشر حملا وعـدلا، مـا كـان على ظهـر كتـاب منهـا حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه)

قال الذهبي ـ معلقا على هذه الروايـات ــ : (فهـذه حكايـة صحيحة في سـعة علم أبي عبـد اللـه، وكـانوا يعـدون في ذلـك المكـرر، والأثـر، وفتـوى التـابعي، ومـا فسـر، ونحـو ذلـك، وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك)[2]

وبناء على هـذا، فـإن العقـل السـلفي لا يسـتطيع أن يجـد الوقت ليتأمل ويحلل ويفكر، لأن كل جهده قد وضـعه لذاكرتـه.. والحفاظ على ما يضعه فيها.

وقد قام بعضهم بعملية بسيطة حاول فيهـا أن يـبين العـدد الذي احتاج فيه الإمام أحمد لحفظ كل تلك الروايات، فوجــد أن هذا العدد لو وزعناه على 62 سـنة، فإنـه يحتـاج أن يحفـظ كـل سنة 16.129 حـديثا .. وإذا قسـمنا هـذا العـدد على عـدد أيـام السنة الهجرية، فسند أنه يحتاج ليستكمل ذلك العـدد أن يحفـظ كل يوم 46 حديثا بمتنها وسندها.

بالإضافة إلى حاجته إلى أن يراجـع كـل حين مـا سـبق لـه حفظه.. وبذلك فإن العمـر كلـه ينقضـي في الحفـظ.. ولا يبقى هناك مجال للبحث والتحقيق والتأمل والتدبر.

وسنرى في الفصل المخصص لهذا عجائب أكثر تـدلنا على سر اهتمام العقل السلفي بهذا الجانب.

أمـا **الفصـل الرابـع [التـوهم .. لا التعقـل]**، فقـد حاولنـا أن نثبت فيـه أن العقـل السـلفي لا يحتـاج لكـل الأدوات الــتي يحتاجهــا المفكــرون من الملاحظــة والتحليــل والســبر والتقسيم والنقد ونحـو ذلـك .. بـل يحتـاج فقـط إلى تصـور مـا يقال، وتخيلـه.. ولهـذا فـإن البنـاء العقـدي عنـدهم ــ ابتـداء من الإلهيــات ـــ ينطلــق من التصــور.. وأول مبحث يبحثونــه في الإلهيات ـ كما هو في كتب العقيدة السـنية ــ هـو صـورة اللـه.. وهم يرون ـ كما ذكرنا في كتاب [السلفية .. والوثنية المقدسة] أن الإله الذي ليس له صورة ولا جسم ولا جهـة ولا مكـان ليس إلها، بل ليس موجودا أصلا.. فالوجود عندهم قاصر على الصـور

1() تذكرة الحفاظ للذهبي (2/ 15)
2() سير أعلام النبلاء ط الرسالة (11/ 187)

والأجسام.
ولهذا نرى عداءهم للفلاسفة والمتكلمين وكل المنزهة الذين يبحثون في العقائد من باب التعقل، لا من باب التصور.
أما **الفصل الخامس [الحسية.. لا المعنوية]،** فقد حاولنا أن نثبت فيه أن العقل السلفي يعتمد [الحس] بدل المعنى، أو [الظاهر] بدل الباطن، أو [الحرفية] بدل المقاصدية، وهو ناشئ ـ كما يذكر المحللون النفسيون القدامى ـ من غلبة الجسد على الروح، والشهوة على العقل، والبهيمية على الإنسانية.. وهو من الخصال التي اكتسبها العقل السلفي من اليهود نتيجة إدمانه على التلمذة على آثارهم وأخلاقهم.
فقد حاولنا أن نثبت فيه أيضا أن العقل السلفي عقل جاف، لأنه لا يعتمد على القناعات العقلية.. بل يعتمد على الراويات.. ولذلك فإنه يجمع المتناقضات في عقيدته وفكره وتصوره للوجود.. ويستحيل على من يجمع المتناقضات أن يتفاعل معها.. ولذلك نظرته للدين نظرة براغماتية.. فهو يعبد الله من منطلق المطامع المادية لا من منطلق الأشواق الروحية.. ولهذا نجد للجنة مكانة عنده تفوق مكانة الله.. ونجد للحور العين عنده مكانة تفوق مكانة رسل الله وأولياء الله.. فهو يرى الدين وسيلة لتحقيق السعادة المادية في الآخرة.. وليس وسيلة ليروي ظمأه لمعرفة حقائق الوجود، والتفاعل معها.
ولهذا نرى بغض السلفية للصوفية وتحذيرهم منهم وتكفيرهم لهم.. بل نرى الجفاف السلفي حتى في اللغة حين ينكرون المجاز.. وحين ينكرون على الشعراء ما يذكرونه من جماليات يقتضيها الشعر.
ونرى الجفاف السلفي في تلك الخشونة التي يتعاملون بها مع المخالفين لهم.. والتي تبدأ بالسباب والتكفير .. وتنتهي بالعنف بجميع أنواعه.
أما **الفصل السادس [الشدة .. لا اللين]،** أو [القسوة] بدل الرحمة، أو [العنف] بدل الحكمة، وهو ناشئ ـ كما يذكر المحللون النفسيون القدامى ـ من غلبة السبعية على الإنسانية، أو غلبة العدوانية على السلمية.. وكل ذلك يرجع إلى غلبة الطين على الروح، واستحواذ الشيطان على الإنسان في العقل السلفي.
أما **الفصل السابع [المدنس .. لا المقدس]،** فقد حاولنا أن نثبت فيه أن السلفية بجمعهم للمتناقضات قدموا المدنس من آراء الرجال، أو من الروايات التي يرفعونها إلى رسول الله ﷺ زورا وبهتانا على المقدس الذي هو الحقائق التي

دل عليها العقل، ودل عليها النص القطعي المقدس.

ولهذا فإنهم ينسخون بحديث واحد ـ كحـديث الجاريـة مثلا، والذي يثبتون به الجهة لله ـ كـل الحقـائق المقدسـة الـتي تـبين تنزه الله عن الجهة والمكان والحيز والحدود.

وهكذا رأيناهم عند ذكرهم للأنبياء عليهم السلام، ينسـخون بمـا يروونـه من روايـات كـل مـا ورد في المقـدس حـولهم من معان سامية.

والســر الــذي جعلهم يقعــون في هــذا الفخ الشــيطاني الخطير هو تقديسـهم للرجـال، فهم يتصـورون أنـه من المحـال على فلان الحافظ المتقن أن يقول شيئا يخـالف بـه المقـدس.. وبـذلك كـان المقـدس عنـدهم هـو الرجـال وأقـوال الرجـال، لا النصوص المقدسة.

وقد حاولنا في هذا الكتاب، ومن خلال مصـادرهم أن نـبين هذه اللبنات السبع، وأسرارها وأنواع المتناقضات المرتبطة بها، وليس هدفنا من ذلـك إلا دعـوتهم لمراجعـة عقـولهم، وتصـحيح منهج تفكيرهم، فالله خلق لنا العقول لنفكـر بهـا، لا لنلغيهـا، ولا لنسلمها لمن يتلاعب بها.

اللبنـة الأولى الـتي يتأسـس عليهـا العقـل السـلفي هي [السلف]، وهم يقصـدون بهم ــ بنـاء على حـديث ورد في ذلـك يرددونه كثيرا ـ أصحاب القرون الثلاثة الأولى.

والحديث هو قوله ﷺ : (خير الناس قرني ثم الذين يلـونهم ثم الـذين يلـونهم، ثم يـأتي من بعـد ذلـك نـاس يشـهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهـر فيهم السمن)(1)

ومع أن هناك اختلافا في دلالة القرن في اللغـة، لأن هنـاك من يذكر أنه أربعون سنة، ومنهم من يـذكر أنـه ثمـانون، ومنهم من يذكر أنه مطلق من الزمان، ومنهم من يذكر أنه لا علاقة له بالزمن.. ولكن السلفية يرجحون ـ بنـاء على بعض الاعتبـارات ـ أن المراد منه مئة سنة.

ومن الأدلة التي يوردونها في ذلك روايـة عن عبـد اللـه بن بسر المازني، وقوله ﷺ له: (لتبلغن قرناً) فعاش مئـة سـنة(2).. ويروون عن ابن عمر أن النبي ﷺ صلى ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قـال: (أرأيتم ليلتكم هـذه، على رأس مئـة سـنة منهـا لا يبقى على ظهـر الأرض ممن هـو على ظهـر الأرض أحد)، قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول اللـه ﷺ تلك فيما يتحـدثون من هـذه الأحـاديث عن مئـة سـنة، وإنمـا قال رسول الله ﷺ: لا يبقى اليـوم ممن هـو على ظهـر الأرض، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن(3).

وبناء على هاتين الروايتين وغيرهما، يحددون أهـل القـرون الثلاثة الفاضلة بـأنهم الـذين عاشـوا بين عـامي البعثـة النبويـة، وتمام عام ثلاث مئة للهجرة.. وتشمل هـذه المـدة نحـو خمسـة أجيال من المسلمين، وتضم طبقات الصحابة، والتابعين، وأتبـاع التابعين، وتبع الأتباع، وتبع تبع الأتباع(4).

وهم يذكرون أن أهل هذه القرون الثلاثة وصفت بأنها خـير القـرون لأن غـالب أهـل تلـك المـدة كـان يغلب عليهم صـلاح المعتقـد والسـلوك، فكـانوا على منهـاج النبـوة بخلاف من جـاء بعدهم، والذين ـ يذكر السـلفيون ــ أن الابتـداع وسـوء المعتقـد غلب عليهم.

1() رواه البخاري (3/ 151)، ورواه مسلم (ص1962 – 1965)

2() رواه أحمد (4/ 189)

3() رواه أحمد (2/ 88و 121) والبخاري (4/ 1/ 149/) وأبو داود (108/ 4348)

4() هكـذا قسـم الحافـظ ابن حجـر في كتابـه [التقـريب] من تـرجم لهم من أصـحاب الكتب الستة.

وهم يضيفون إلى ذلك الدليل الكثير من النصوص القرآنية الواردة في فضل الصحابة، كقوله تعالى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 100]

وهم يستدلون بهذه الآية الكريمة في موضعها وغيرها موضعها، حتى أنهم يستدلون بها في حديثهم عن فضائل معاوية وأبي سفيان والطلقاء الذين تأخر إسلامهم، مع أنها وردت في حق السابقين فقط.

ومن الآيات التي يستدلون بها كذلك قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ [الفتح: 29]، و قوله: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر: 8، 10]

وغيرها من الآيات الكريمة التي أثنى الله تعالى فيها على المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان.

بالإضافة إلى ذلك يستدلون بما ورد في الحديث الشريف من نهي النبي ﷺ عن سب الصحابة، كقوله ﷺ : (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)(1)

ويروون عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ رفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه فقال: (النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)(2)

ويروون عنه ﷺ أنه قال في موعظة بليغة، كان فيها كالمودع لأصحابه: (فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن

1() رواه البخاري (6/ 4/ صـ195) ومسلم (53/ صـ1967 - 1968)
2() رواه مسلم (51/ صـ 1961)

كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)(1)

وبناء على هذه الأدلة يرون أن السلف خير أجيال البشرية جميعها على الإطلاق حاشا الأنبياء - عليهم السلام ـ بل يرون أن الله تعالى كما اختار أنبياءه من صفوة بني آدم، فكذلك اختار أصحاب أنبيائه من خيرة الناس، ويروون في ذلك عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر قولهما: (من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم)(2)

بالإضافة إلى هذه الأدلة النصية يذكرون أن سادة السلف وخاصة أصحاب النبي ﷺ كانوا عرباً أقحاحاً، وكانوا أدرى باللغة العربية من غيرهم.. وأنهم تلقوا القرآن غضاً طرياً، وعاينوا الأحداث التي مرت بهم، وكانت سبباً لنزول كثير من آياته وسوره، فأدركوا مناسبات الآيات.. وأنهم فوق ذلك سمعوا من النبي ﷺ مباشرة دون واسطة فغالب ما نقلوه عنه أخذوه من فيه، وسمعوه فعاينوا لهجته وإشارته، وأدركوا منحاه ووجهته.

بالإضافة إلى ذلك يذكرون أن هؤلاء السلف تلقوا تعاليم الإسلام صافية نقية، لم يخلطوها بثقافات وافدة من أديان وثنية أو كتابية محرفة، أو فلسفات وضعية، أو علوم كلامية، بل كانوا على الفطرة السليمة، فعقولهم نظيفة، خالية من الشوائب والخلافات، بخلاف الخلف الذين فسدت فطرتهم بسبب ما درسوه من علم المنطق والفلسفة والكلام، وغيرها من العلوم.

إضافة إلى ذلك كله يذكرون أن السلف عرفوا حقيقة الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، لأن بعضهم عاشها بنفسه، والآخرون كانوا حديثي عهد بها، نقلها إليهم أهلوهم وأقاربهم، فلما جاء الإسلام ميزوا بينه وبين الجاهلية، وأدركوا البون الشاسع بينهما، بينما فقد المتأخرون من أجيال الخلف معنى الجاهلية الحقيقي، فاختلط عليهم الأمر.

هذا تلخيص بسيط للأدلة التي يسوقها السلفية في القديم والحديث حول سبب تقديمهم للسلف، واكتفائهم بهم.. وهم يكررونها في كل محل، وبصيغ مختلفة(3).

---

(1) رواه أبو داود (السنة 5/ـ 5/ـ 13/ رقم 4607) واللفظ له، والترمذي (العلم 16/ رقم 2676) وابن ماجه (المقدمة 6/ـ 42و 43و 44) والحاكم (العلم 1/ـ 175/ـ 329) وصححه، ووافقه الذهبي والألباني، وقال الترمذي: حسن صحيح..

(2) جامع بيان العلم لابن عبد البر (2/ 947)

(3) لخصنا ما ذكرناه هنا من أدلة من كتب مختلفة أهمها: (لماذا اخترت المنهج السلفي؟) للشيخ سليم بن عيد الهلالي، وغيره.

ولكنهم ــ قصدا أو عمدا ــ يغالطون فيما يطرحونه مغالطات كثيرة، وأول تلك المغالطات استعمالهم الأدلة في غير محلها، فالآيات الكريمة التي ذكرت فضائل الصحابة وأعمالهم الصالحة، لم تشر أي إشارة إلى تلقي الدين عنهم، أو حتى الاقتداء بهم، لأن الاقتداء في القرآن الكريم لم يرد إلا في موضعين، ولجهتين.

الأولى: الاقتداء برسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21]

والثانية: الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]

أما ما ورد غير ذلك، فهو مرتبط بالأنبياء لا بالأتباع كقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4]

وهكذا يقال في ذكر رسول الله ﷺ فضل القرون الثلاثة الأولى، فهو خاص ــ في حال صحته ــ بالإشادة بأعمالهم الصالحة، ولا علاقة له بتلقي تفسير الدين عنهم.

بناء على هذا سنحاول هنا بيان مغالطاتهم في هذا الجانب وفق ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ووفق الجانت العملي من هذه الأطروحة، لا النظري المزين منها، لنكتشف حقيقة السلف الذين يستند إليهم السلفية، وهل حقا تصدق عليهم تلك النصوص التي يستدلون بها.

وقد قسمنا هذه المغالطات[1] ـ بناء على أن السلفية تعني رجالا عاشوا في زمن معين ـ إلى قسمين: مغالطات مرتبطة بالزمن السلفي، ومغالطات مرتبطة بالرجال الذين عاشوا في ذلك الزمن، والذين اعتبرهم السلفية مصدرا لتلقي الدين.

أولا ـ مغالطات مرتبطة بالزمن:

من الغرائب التي تثير الانتباه في العقل السلفي أنه يعتمد في مسائل خطيرة من الدين مثل هذه المسألة ـ مسألة تحديد مصادر تلقي الدين بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ على حديث واحد ورد عن طريق الآحاد، واضطرب في فهمه اضطرابا شديدا.

فقد اضطرب شراح الحديث في الناحية الزمنية اضطرابا

1() يراد بالمغالطات في المنطق أنه حتى ولو كانت كل المعطيات صحيحة، فمن الممكن للحجة أن تكون غير سليمة إذا كان المنطق المستخدم غير سليم، ومن أنوعها [الوهميات]: وهي القضايا الكاذبة التي يحكم بها الوهم في الأمور غير المحسوسة، مثل: (يلزم الخوف من الميت)، و[المشبهات]: وهي القضايا الكاذبة التي تشبه القضايا الصادقة، لاشتباه لفظي او معنوي.

شديدا يبدأ من عشر سنوات إلى عشرين سنة إلى أن يصلوا إلى 120 سنة.. وبذلك يبقى الشك واردا في الكثير ممن أدخلوهم في هذه القرون بناء على الاعتبارات المختلفة للقرن.

بالإضافة إلى أن لفظ القرن ـ كما ورد في القرآن الكريم ـ قد يحمل على معنى مختلف تماما عن الذي قصدوه، فقد قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: 74]، وهو يعني الجماعة المتجانسة، التي تكون على مذهب واحد.

ولو طبق العقل السلفي هذا المعنى على الحديث ليسر عليه التعامل معه، ولما اصطدم بغيره من النصوص التي تبين أنه لا علاقة للزمن بالخيرية ـ كما سنرى ـ

وقد أورد الشيخ حسن بن فرحان المالكي هذه الدلالة للحديث، وقال شارحا لها: (الحديث قد تصرف فيه الرواة كثيراً؛ وتحقيق اللفظ الذي قاله النبي ﷺ يحتاج إلى حضانة قرآنية - وقد وجدناها - ولفظ أقرب للعمل من الزمن؛ وقد وجدناه؛ والدليل على هذا إجماعهم بأن فلاناً قرن فلان في السن، وقرنه في التجارة، وقرنه في العلم، فيكون الاقتران في العمل الصالح هو الأصل لا الزمن. والناس في الحديث هم الناس في عصره ﷺ لا غير، فبين أن أفضلهم من كان يليه في الإسلام الصبر وتلقي الأذى والفقر والحصار.. وليس من المعقول أن يفضل النبي ﷺ الناس على (أساس زمني) أبداً، فزمنه فيه الكافر والمؤمن، المخلص والمنافق، وبعده كان المؤمن والمبدل والمرتد. وإنما تفضيل الشرع على أساس (العمل) لا على أساس (الزمن)، وإدخال (الزمن) كمعيار أفضلية وحيد، إنما هو جاهلي ثم أموي؛ ولا دخل لها بالشرع)[1]

ثم أورد رواية صحيحة تدل على هذا المعنى، وهي (خير الناس أقراني الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. ثم يخلف بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)[2]

وعلق عليها بقوله: (فالمعنى واضح؛ والسند صحيح. فقوله (أقراني الذين يلوني) واضح أنه لا يريد القرن الزمني، وإنما أهل بيته ومن في حكمهم ممن أسلم في أول الإسلام؛ وكانوا يلون النبي في كل شيء؛ وهذا الالتفاف على هذه الفضيلة لأهل البيت لها نماذج كثيرة جداً، وهي نتيجة لما زرعه الأمويون من ثقافة تشتت فضائل أهل البيت في غيرهم. ومن قرائن هذا لفظ أبي بكر بن أبي شيبة شيخ البخاري ومسلم (خير أمتي

1() حسن بن فرحان المالكي، ما معنى (خير الناس قرني)
2() أحمد في المسند (7/ 74)

قرني الذين يلوني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)؛ فـالمعنى واضح.. لأنه لو كـان النـبي ﷺ يريـد الـزمن هنـا لكـان الشـهداء الذين استشهدوا في عهده كشهداء بدر وأحد خارج هذا الحديث لأنهم لم يلونه زمنياً.. وكـذلك بعض ألفـاظ مسـلم في صـحيحه (خير أمتي القرن الذين يلوني) فليس المراد الزمن، والشــهداء في عهده لن يلوه زمنيـا! فمعـنى (يلـوني) أي الأقـرب إلي في سـبقهم إلى الإسـلام ونصـرتهم وصـبرهم .. مثلمـا تقـول فلان الأفضل والأعلم و(يليـه) فلان في الفضـل أو العلم. ويؤكـد هـذا المعنى لفظ ابن أبي عاصم في السنة (قلت يا رسـول اللـه أي أمتـك خـير؟ قـال: أنـا وأقـراني)، والألفـاظ الـتي تـدل على أن القــرون مجموعـات من سـابقي أصـحابه، كثـيرة، أي بعضــهم أفضل من بعض، أفضلهم أهـل بيتـه ثم المستضـعفون ثم بقيـة السابقين)(1)

بالإضافة إلى هـذا الاضـطراب، فـإن الحـديث ــ بمفهومـه الزمني ـ يتناقض مع نصوص كثيرة أكثر قطعية، أو أضـح دلالــة، وقد قسمنا النصوص التي يتناقض معهـا الحـديث إلى قسـمين، كما يلي:

1 ــ النصـوص الدالـة على وقـوع الانحـراف بعـد الرسالة مباشرة:

وردت نصوص كثيرة تدل على أن الانحراف يقـع في الأمم بعد رسلها مباشرة، حيث يقع التنازع والقتال بسبب البغي الذي يحصـل بينهم، وبســبب عـدم الـتزامهم بتعـاليم الرسـل عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى موضحا سنن التاريخ في ذلك:﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّــلْنَا بَعْضَــهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَــعَ بَعْضَــهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَـا جَـاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]

وقال تعالى بعد أن أثـنى على مجموعـة من الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَـا مَـعَ نُـوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الـرَّحْمَنِ خَـرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَـفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ أَضَـاعُوا الصَّـلَاةَ وَاتَّبَعُـوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 58، 59]

وكنماذج تطبيقيـة عن أقـوام الأنبيـاء، وتبـديلهم وتغيـيرهم، ذكر موقف أتباع سليمان عليه السلام، فقال: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَـا تَتْلُـو

(1) حسن بن فرحان المالكي، ما معنى (خير الناس قرني)

الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة: 102].

بل إن الله تعالى يذكر أن الفساد والانحراف يبدأ في عصر النبي قبل وفاته، وقد ضرب لنا المثل ببني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، والذين عبدوا العجل بمجرد غيابه مباشرة، قال تعالى ـ ذاكرا ما حصل وأسبابه ــ: وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي [طه: 83 - 86]

وهكذا أخبر القرآن الكريم أن هذه الأمة لا تختلف عن سائر الأمم في هذه السنة، ولو أنها كانت متميزة عنها في ذلك لاستثني، قال تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [آل عمران: 144]

بل ورد في آية أخرى الدلالة على أن الأمة ستفترق بعده ﷺ إلى ثلاث فرق، قال تعالى: وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [فاطر: 31، 32]

وقد ورد في الحديث ما يبين أن هذه الفرق تشمل الصحابة فمن بعدهم، فقد روي أن عائشة سئلت عن الآية الكريمة، فقالت ــ ردا على من سألها ــ: (يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم)(1)

بل قد ورد في أحاديث كثيرة ما يشير إلى أن الجيل الذي يأتي بعده ﷺ ـ كسائر الأجيال ـ لا ضمانه له بأن يبقى ملتزما، فالنجاح في الاختبار الإلهي هو الذي يحدد مصير كل إنسان، وما دام حيا، فهو عرضة للنجاح والسقوط.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال لشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر: ألسنا يا رسول الله بإخوانهم، أسلمنا كما

(1) مسند الطيالسي برقم (1489)

أسلمو، وجاهدنا كما جاهدوا، فقال رسول اللــه ﷺ: (بلى، ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي. فبكى أبو بكـر، ثم بكى. ثم قـال: أئنـا لكائنون بعدك؟!)[1]

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ قام على أهل البقيع، فقال: (السـلام عليكم يـا أهـل القبـور من المؤمـنين والمسـلمين. لـو تعلمون نجـاكم اللـه منـه ممـا هـو كـائن بعـدكم)، ثم نظـر إلى أصحابه، فقـال: هـؤلاء خـير منكم. قـالوا: يـا رسـول اللـه، ومـا يجعلهم خيراً من؟ قد أسلمنا كما أسلموا وهاجرنـا كمـا هـاجرو، وأنفقنا كما أنفقو، فما يجعلهم خـيراً منـا؟ فقـال ﷺ: (إن هـؤلاء مضوا لم يـأكلوا من أجـورهم شـيئا، وشـهدت عليهم. وإنكم قـد أكلتم من أجوركم بعدهم، ولا أدري كيف تفعلون بعدي)[2]

ومثل ذلك الأحـاديث الكثـيرة الـتي تخـبر عن الفتن بعـده، مثلما روي عن أسامة بن زيد قال: أشـرف النـبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، ثم قال: (هل ترون مـا أرى؟ إني أرى مواقـع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر)[3]

وورد في الحديث عن كعب بن عجرة الأنصاري قال: خـرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد، أنا تاسـع تسـعة، فقـال لنا: (أتسمعون هل تسمعون ـ ثلاث مرار ــ إنهـا سـتكون عليكم أئمة، فمن دخل عليهم فصـدقهم بكـذبهم وأعـانهم على ظلمهم فلست منه، وليس مني، ولا يرد علي الحوض يوم القيامة، ومن دخل عليهم ولم يصـدقهم بكـذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهـو مني وأنا منه، وسيرد علي الحوض يوم القيامة)[4]

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو عن النـبي ﷺ قـال: (كيـف أنتم إذا فتحت عليكم خـزائن فـارس والـروم. أي قـوم أنتم؟) قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كمـا أمرنـا اللـه، قـال: (أو غير ذلك؟ تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون)[5]

وفي حديث آخر عن عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ قال: (والله ما الفقر أخشـى عليكم، ولكن أخشـى أن تبسـط عليكم الــدنيا كمــا بســطت على من كــان قبلكم، فتنافســوها كمــا تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)[6]

وفي حـديث آخـر عن أبي بـرزة عن النـبي ﷺ قـال: (إنمـا أخشى عليكم الشهوات التي في بطـونكم وفـروجكم ومضـلات

1() موطأ مالك 2: 461.
2() الزهد لابن مبارك: 171. المصنف لعبد الرزاق 3: 575.
3() صحيح البخاري 2: 871، صحيح مسلم 4: 2211.
4() السنن الكبرى للبيهقي 8: 165.
5() مسلم (2962)، ابن ماجه (3996)
6() البخاري (2988)، مسلم (2961)، الترمذي (2462)، ابن ماجه (3997)، أحمد (4/137)

الفتن)(1)، وفي رواية: (ومضلات الفتن)(2)

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى أن الشر سيكون بعد النبوة مباشرة، ففي الحديث عن حذيفة قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله: صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)(3)

ويمكن الاستدلال لهذا أيضا، بما ورد في النصوص الكثيرة من أن هذه الأمة سيحصل فيها من التغيير ما حصل في الأمم الأخرى، كما قالﷺ ـ مخاطبا أصحابه ــ: (لتتبعنَّ سنن من كان من قبلكم شبر بشبر وذراع بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم)، قلنا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)(4)

وقد قال حذيفة ـ وهو المهتم بأحاديث الفتن كما رأينا ذلك في الرواية السابقة ـ :)لتركبن سنة بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، غير أني لا أدري تعبدون العجل أم لا)(5)

فهذه الروايات جميعا تفيد بأن التغيير يحصل في الأمة، فكيف يدلنا رسول الله ﷺ على أن نأخذ ديننا من هذا الواقع المملوء بالفتن؟

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بأن من الصحابة من يحدث بعده، وأنه لأجل ذلك يذاد عن الحوض، ففي الحديث عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: (ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: 117])(6)

1() أحمد (4/420)

2() أحمد (4/420)

3() البخاري 4/242 (3606) وفي 9/65 (7084) ومسلم (6/20 (4812)

4() أحمد، 5/21. النسائي، 6/346 رقم11185. الترمذي، 4/475 رقم2180..

5() مصنف ابن أبي شيبة 7: 481.

6() صحيح البخاري 6/69 صحيح مسلم 4/2195 الترمذي 5/321 ـ 322 قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. سنن النسائي 4/117 وصححه الألباني في صحيح

وفي حديث آخر عن أبي هريرة أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: (يرِد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيُحَلَّون(1) عن الحوض، فأقول: يا ربِّ أصحابي. فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)(2)

وفي رواية عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: أنا فرَطكم(3)على الحوض، ولأنازَعَنَّ أقواماً ثم لأُغلَبَنَّ عليهم(4)، فأقول: يا رب، أصحابي أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)(5)

وفي رواية أخرى أكثر صراحة عن عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (إني فرَطكم على الحوض، من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، لَيَرِدن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم. قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش، فقال: هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت: نعم. فقال: أشهدُ على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول: إنهم مني. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي)(6)

فهذا الحديث وغيره كثير يدل على أن الذين غيروا وبدلوا من الصحابة المقربين لرسول الله ﷺ، وإلا كيف يجادل عنهم.. وهل يمكن أن يجادل رسول الله ﷺ عن مسيلمة وغيره من المرتدين؟.. وهل يمكن أن نعتبر مسيلمة وأولئك المرتدين ـ كما يزعم العقل السلفي ـ صحابة؟

وهذا الحديث الصحيح برواياته المختلفة كاف في صد دعوى الرجوع للسلف، لأن من الصحابة ـ وهم كما يرى العقل السلفي أفضل القرون ـ من أحدث وحرف وابتدع في الدين، من غير أن تحدد لنا الأحاديث أسماءهم، وذلك كاف وحده في اعتبارهم مثل سائر الأجيال في رد ما يرد عنهم إلى كتاب الله وسنة رسولهﷺ كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]

سنن النسائي 2/449. مسند أحمد 1/235، 253..

(1) أي يطردون ويبعدون.

(2) صحيح البخاري 8/150.

(3) أي سابقكم ومتقدمكم.

(4) أي سأجادل عن أقوام رغبة في خلاصهم فلا ينفعهم ذلك.

(5) صحيح مسلم 4/1796.

(6) البخاري 8/150. مسلم 4/1793.

وهذا ما ينسجم مع المنطق السليم، لأننا إذا أخبرنا أن في أطعمة معينة سموما قاتلة، فإن العقل السليم يدعونا إلى الحذر منها جميعا، أو تحليل ما فيها لتحديد المسموم من غير المسموم، وهكذا كان ينبغي على الأمة أن تفعل، لأن رسول الله ﷺ حذرها من الفتنة، وأخبر أنها تأتي بعده مباشرة، والعاقل هو الذي يحتاط لدينه، فيرجع كل شيء إلى الأصل الذي دعانا الله إليه، وهو التحاكم إلى الله ورسوله لا إلى جيل من الأجيال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]، فالحكم ـ كما تنص الآية الكريمة ــ هو الله ورسوله .. لا أبو بكر ولا عمر .. ولا أي أحد من الناس كما يزعم العقل السلفي.

ولهذا كان ابن عباس يرد بشدة على العقل السلفي الذي كان يعيش معه، بسبب مبالغتهم في شأن الشيخين، ففي الحديث عن عروة بن الزبير أنه أتى ابن عباس فقال : يا ابن عباس طالما أضللت الناس! قال : وما ذاك يا عريَّة ؟ قال : الرجل يخرج محرماً بحج أو بعمرة فإذا طاف زعمت أنه قد حل فقد كان أبو بكر وعمر ينهيان عن ذلك؟ فقال : أهما - ويحك - آثر عندك أم ما في كتاب الله وما سن رسول الله ﷺ في أصحابه وفي أمته؟)(1)

وفي رواية قال عروة لابن عباس : ألا تتقي الله ترخص في المتعة ؟! فقال ابن عباس: سل أمك يا عُرَيَّةُ، فقال عروة : أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا، فقال ابن عباس: (والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، أحدثكم عن رسول الله، وتحدثونا عن ابي بكر وعمر)(2)

وفي رواية: (أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ، ويقول نهى أبو بكر وعمر)(3)

بل قد ورد من الروايات ما يدل على أن الصحابة أنفسهم شهدوا بوقوع التغيير في الدين بعد رسول الله ﷺ، وفي قرنهم الذي يعتبره السلفية أفضل القرون، ففي الحديث عن الزهري أنه قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك ؟ فقال: (لا أعرف شيئاً مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعتْ)، وفي رواية، قال: (ما أعرف شيئاً مما كان على عهد النبي ﷺ)، قيل: الصلاة ؟ قال: (أليس ضيَّعتم ما

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (1718)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (3/234): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.
(2) أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (2377)
(3) رواه أحمد (1/337)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (2378)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (379)

ضيَّعتم فيها؟!)[1]

وفي رواية أنه قال: (ما أعرف شيئاً مما كنا عليه على عهد النبي ﷺ. فقلت: أين الصلاة؟ قال: (أوَلم تصنعوا في صلاتكم ما قد علمتم؟)[2]

وفي حديث آخر عن أم الدرداء أنها قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: مَن أغضبك؟ قال: (والله لا أعرف منهم من أمر محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلّون جميعا)[3]، وفي رواية قال: (إلا الصلاة)

فهذه الأحاديث ـ مع كثرتها ـ كافية في الدلالة على أنه لا يمكن الوثوق بذلك الزمن ـ الذي يعتبره العقل السلفي أفضل الأزمنة ـ بسبب التحريفات التي حصلت فيه، ولذلك كان الميزان هو التحاكم إلى كتاب الله أولا، ثم إلى رسنة رسوله ﷺ، والتي تتوافق مع كتاب الله تعالى، لأن الذين حرفوا أضافوا بعض ما حرفوه إلى رسول الله ﷺ حتى يشرعنوا آراءهم.. فالذي يتجرأ على الكذب على الله، لن يتورع عن الكذب عن رسوله ﷺ.

وهكذا يقال في سائر القرون التي يتعلق بها العقل السلفي، ويخضع لها خضوعا مطلقا، فقد ذكر الحسن البصري ـ وهو من التابعين ـ ما حصل في عهده من تغيرات مقارنة بعصر الصحابة، فقال : (لو أَن رجُلا أدركَ السلفَ الأولَ ثم بُعثَ اليومَ ما عَرَفَ من الإسلام شيئا)،ثم وضع يده على خدِّه ثم قال: (إلا هذه الصلاة) ثم قال: (أَما والله ما ذلكَ لمن عاشَ في هذه النكراء ولم يدرك هذا السلف الصالحَ؛ فرأى مبتدعا يدعو إلى بدعته، ورأى صاحبَ دنيا يدعو إلى دنياه؛ فعصمهُ الله من ذلكَ، وجعلَ قلبهُ يحنّ إلى ذلك السَّلَف الصالح يَسْأَلُ عن سبيلهم، ويقتص آثارهُم، ويَتّبعُ سبيلهُم، ليعوض أجرا عَظيما؛ فكذلك فكونوا إن شاء الله)[4]

2 ـ النصوص الدالة على أن الفضل لا علاقة له بالزمن:

عند الرجوع للنصوص المقدسة الكثيرة ــ من الكتاب والسنة ـ نجد أن عدل الله تعالى بين عباده لا يفرق بين أمة وأمة، ولا بين زمن وزمن، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ

1() صحيح البخاري 1/133.

2() سنن الترمذي 4/633، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. مسند أحمد بن حنبل 3/101، 208..

3() مسند أحمد بن حنبل 6/443، 5/195.

4() البدع والنهي عنها لابن وضاح (176)

ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 123، 124]

فهذا قانون الله وسنته التي تجري على جميع الأمم والشعوب، لا يستثنى أحد منها، لأن الله خالق الجميع، ومربي الجميع، ويوم القيامة يضع موازين واحدة للحكم بين عباده، لا تميز بين جيل وجيل، أو أمة وأمة.

لكن العقل السلفي لم يتقبل هذه النصوص المقدسة، ولا ما يدل عليها من العقل، فلذلك راح يبالغ في شأن الصحابة، ولا يطبق أحكام الجرح والتعديل عليهم في الرواية حتى لو كانوا فسقة مجاهرين بالكبائر، لأن مجرد رؤية رسول الله ﷺ عندهم تنسخ كبائرهم وجرائمهم.

مع أن القرآن الكريم ذكر أن في الصحابة فسقة، وسماهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6]

بل ذكر القرآن الكريم أنه ممن صحب رسول الله ﷺ منافقون، مات عنهم وهم كذلك، بل ذكر أن رسول الله ﷺ نفسه لم يكن يعلم بهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101]

وورد في الحديث أن رسول الله ﷺ أخبر حذيفة عن أسماء بعض أصحابه المنافقين، ولم يخبرنا حذيفة عنهم، ففي الحديث عن علقمة، قال: دخلت الشام فصليت ركعتين، فقلت: اللهم يسر لي جليسا، فرأيت شيخا مقبلا فلما دنا قلت: أرجو أن يكون استجاب، قال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: (أفلم يكن فيكم صاحب النعلين والوساد والمطهرة؟ أولم يكن فيكم الذي أجير من الشيطان؟ أولم يكن فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟)(1)

فهؤلاء الصحابة الذين لم يرد النص بذكر أسمائهم، وحتى عبد الله بن مسعود مع صحبته الطويلة لرسول الله ﷺ لم يكن يعرف أسماءهم.. أو ليس من الممكن ـ عقلا وشرعا ـ أن يكون بعضهم قد روى عن رسول الله ﷺ تلك الروايات التي صورت الله تعالى بأنه شاب أمرد، وصورت الأنبياء صعاليك ومجرمين وكفرة..، ثم يأتي العقل السلفي ليأخذ دينه من النفاق، بحجة أن الراوي صحابي، والصحابة كلهم عدول، حتى لو كانوا فسقة.

بل إن القرآن الكريم ذكر عن ضعف إيمان الكثير منهم،

(1) البخاري (ح 3761)

للدرجة التي كانوا يتخاذلون فيها عن دعوة رسـول اللـه ﷺ لهم في أي أمـر يحتاجـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَطَائِفَـةٌ قَـدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُـونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ مَـا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمـــران: 154]، وقـــال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَـــوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَـا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 155]

فهل يمكن اعتبار أمثال هـؤلاء قـدوة للمؤمـنين في جميـع الأجيال؟

بل إن القرآن الكريم ذكر ترك الكثـير منهم لرسـول اللـه ﷺ في أمر أدنى بكثير من الجهاد، ولا يكلفهم شيئا، فقد تركــوه ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة، ليلاقوا القافلة، كما صور ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُـلْ مَا عِنْـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ مِنَ اللَّهْـوِ وَمِنَ التِّجَـارَةِ وَاللَّهُ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]

هذا هو تصوير القرآن الكريم لذلك الجيل الذي يريد العقل السلفي أن يعتبره الجيـل المفضـل والقـدوة.. بـل إن السـلفية يعتـبرون كـل من كـان في ذلـك الجيـل من الفسـقة والظلمـة والمسـتبدين أفضـل من كـل أوليـاء الأمـة في كـل عصـورها.. ولست أدري ما هي الموازين العادلة التي سوغت ذلك؟

والعقل السلفي ـ بسبب عدم ورود مـا يـدل على هـذا من القرآن الكريم ـ نجده يعود إلى الروايات يحفظها ويكررها حـتى يرسـخ المعـاني اللامعقولـة ويفرضـها على عقلـه فرضـا، فمن الروايات التي يوردونها في هذا، أن عبد الله بن المبارك سئل: أيهما أفضل : معاوية بن أبي سفيان، أم عمر بن عبـد العزيـز ؟ فقال : و الله إن الغبار الذي دخل في أنـف معاويـة مـع رسـول الله ﷺ أفضل من عمر بألف مرة، صـلى معاويـة خلـف رسـول الله ﷺ، فقال : سمع الله لمن حمده، فقال معاوية : ربنـا ولـك الحمد.فما بعد هذا؟)(1)

ورووا عن الجـراح الموصـلي قـال: سـمعت رجلاً يسـأل المعافى بن عمران فقـال : يـا أبـا مسـعود ؛ أين عمـر بن عبـد العزيز من معاوية بن أبي سفيان ؟! فرأيته غضب غضباً شـديداً و قال: (لا يقاس بأصحاب محمد ﷺ أحد، معاوية رضي الله عنه كاتبه و صاحبه و صهره و أمينه على وحيه عز وجل)(2)

1() وفيات الأعيان، لابن خلكان (3 /33)، و بلفـظ قـريب منـه عنـد الآجـري في كتابـه الشريعة (5/2466)

2() الشريعة للآجري (5/2466-2467) شرح السنة لللالكائي، برقم (2785)

وسئل أبو أسامة، قيل له : أيهما أفضل معاوية أو عمـر بن عبـد العزيـز ؟ فقـال : أصـحاب رسـول اللـه ﷺ لا يقـاس بهم أحد(1).

وبناء على هـذا تسـاهلوا مـع كـل الإضـافات الـتي أضـافها معاوية للدين، بل تساهلوا حـتى مـع الاسـتبداد، فحولـوا الملـك العضوض الذي حذر منه رسول الله ﷺ حكمـا شـرعيا يمكن أن يمـارس باسـم الإسـلام لأن الصـحابة عـدول، وتصـرفاتهم كلهـا محل قـدوة.. وقـد قـال بعض كبـار السـلفية المعاصـرين، وهـو محب الدين الخطيب: (سألني مرة أحد شباب المسـلمين ممن يحسـن الظن بـرأيي في الرجـال مـا تقـول في معاويـة؟ فقلت له : و من أنا حتى اسـأل عن عظيم من عظمـاء هـذه الأمـة، و صاحب من خـيرة أصـحاب محمـد ﷺ، إنـه مصـباح من مصـابيح الإسلام، لكن هذا المصباح سطع إلى جانب أربع شـموس ملأت الدنيا بأنوارها فغلبت أنوارها على نوره)(2)

وهكذا تحول معاوية عنـد العقـل السـلفي إلى مصـباح من مصابيح الإسلام التي يمكن لأي حاكم وظالم ومستبد أن يهتـدي بنورها، ولا عليه إذا ما أنكر عليه أحـد من النـاس أن يخـبر بأنـه يستن في ذلك بسنة معاوية.

وبــذلك قضــى العقــل الســلفي على النظــام السياســي الإسلامي بسبب هذه المغالطات الكبـيرة الـتي تخـالف القـرآن والعقل .. بل تخالف كل منطق في الدنيا..

وسبب ذلك كلـه هـو غرقـه في التجسـيم والحس، فلـذلك تصـور أن الصـحبة الحسـية هي الأصـل، ولم يعلم أن الصـحبة الحقيقية هي صحبة الروح والعقل والمشاعر، والتي أشار إليهـا القــرآن الكــريم في قولــه تعــالى: ﴿يَــوْمَ يَقُــولُ الْمُنَــافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيـلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُـورٍ لَـهُ بَـابٌ بَاطِنُـهُ فِيـهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ وَتَرَبَّصْـتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَـرُورُ (14)﴾ [الحديـد: 13، 14]

فهـذه الآيـة الكريمـة تنفي ذلـك المفهـوم الحسـي الـذي يطرحه العقل السلفي لمعنى المعية والصـحبة.. فالمعيـة معيـة الروح، لا مجرد معية الجسد، التي لا تكليف فيها، ولا تعب معها.

ولهذا فإن استدلال العقـل السـلفي بقولـه تعـالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُــولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَــهُ﴾ [الفتح: 29] على أولويــة القــرون

1() كتاب الشريعة (2465/5-2466) وأخرج نحوه الخلال في السنة، برقم (666)
2() حاشية محب الدين الخطيب على كتاب العواصم من القواصم (ص 95)

الأولى، لا ينسجم مع مفهوم القرآن الكريم للمعية.

بل لا ينسجم أيضا مع ما ورد في السنة المطهرة من مفهوم المعية، فقد روي أن رجلا جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحبُّ إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك وعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيئين، وإني إذا دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69](1)

وعن أنس قال: (بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (ما أعددت لها ؟) قال: (ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله)، قال:(فأنت مع من أحببت)(2)

فهذا الحديث الشريف يربط المعية برسول الله ﷺ بمحبته.. فكل من أحبه، فهو معه، كان في زمانه ﷺ، أو لم يكن في زمانه.

ومن تلك الأحاديث الحديث العظيم المشهور الذي يظهر يد رسول الله ﷺ الشريفة، وهي تمتد إلى قلوب أمته من بعده.. ففي الحديث الذي تهتز له قلوب الأولياء أن رسول الله ﷺ قال: (وددت أني لقيت إخواني)، فقال له أصحابه: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)(3)

وفي رواية: (ومتى ألقى إخواني؟)، قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: (بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)

بل ورد في أحاديث أخرى كثيرة ما يدل على المكانة الرفيعة التي يحظى بها من لم يتشرف برؤيته ﷺ في الدنيا، وأنها لا تقل عن مكانة صحابته، فقد ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: (من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله)(4)

1() قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (7/ـ 7): رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة..

2() المعجم الكبير للطبراني، 3/242 رقم3282، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، 10/280.

3() أحمد 3/155 (12607)، وانظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 66)

4() أحمد 5/170، قال الهيثمى: رواه أحمد ولم يسم التابعى وبقية رجال إحدى الطريقين رجال الصحيح. مجمع الزوائد 10/66.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (إن أشدَّ أمتي لي حبا قوم يكونون أو يجيئون، وفي رواية - يخرجون بعدي- يود ّأحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني)(1)

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (ليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحبُّ إليه من مثل أهله وماله)(2)

بل ذكر ﷺ المنهج الذي يمكن أن يصل به المؤمن إلى تلك المكانة الرفيعة من رسول الله ﷺ، فقال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا، من صلى علي مائة مرة في يوم الجمعة وليلة الجمعة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يوكل الله بذلك ملكا يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني من صلى علي باسمه ونسبه إلى عشيرته فأثبته عندي في صحيفة بيضاء)(3)

فهذا الحديث يرسم خطة واضحة للمعية لا علاقة لها بالزمان، ولا بالمكان، بل علاقتها فقط بمدى التواصل مع رسول الله ﷺ، والذي تمثل الصلاة عليه أحد أهم مقوماته.

وورد في حديث آخر مقوم آخر، لا يرتبط لا بالمكان، ولا بالزمان، فقال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون)(4)

فهذا الحديث يحدد حسن الخلق مقياسا لمكانة المؤمن من رسول الله ﷺ، وهو مما لا علاقة له لا بالمكان، ولا بالزمان.

ومثله قوله ﷺ: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)(5) فقد ربط ﷺ الخيرية في هذه الأمة، وفي غيرها من الأمم بالأخلاق الحسنة.

وهذه الأحاديث وغيرها تتناسب مع ما يقتضيه العقل السليم، لأنه من الغريب أن تصنف الأمة في قربها من الله تعالى وقربها من رسول الله ﷺ على أساس زماني أو مكاني، لأن أي شخص قد يحتج على الله، فيقول له: يا رب لو أنك جعلتني في الزمن الذي كان فيه ﷺ لرأيت ما أصنع.

ولكن عندما يقرن الأمر بالطاعة والمحبة والولاء حينها لا يبقى عذر لأحد.. لأن كل إنسان يمكنه أن يحقق هذه المعاني من غير حاجة لزمان ولا لمكان.

ثانيا ـ مغالطات مرتبطة بالرجال:

1() أحمد 5/170، قال الهيثمي: رواه أحمد ولم يسم التابعى وبقية رجال إحدى الطريقين رجال الصحيح. مجمع الزوائد 10/66.

2() البخاري 4/238 (3587)

3() حياة الأنبياء في قبورهم للبيهقي (ص: 93)

4() الترمذي (2018)

5() البخاري: 4/230 (3559)

لا يكتفي العقل السلفي بالمغالطات المرتبطة بالزمن، والتي ينتقي لها من النصوص ما يتناسب مع مزاجه، ولكنه يضيف إلى ذلك مغالطات أخطر منها تتعلق بالرجال الذين يتصور أنهم سلفه الذين ينقل عنهم الدين، ويرى الأولوية لهم في بيان أحكامه.

فبينما هو يستدل بالآيات الواردة في فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لإقناع جمهوره أو الرد على مخالفيه، نجده في الواقع يقصي هؤلاء السابقين إقصاء خطيرا، حتى أننا لو رحنا لتلك الموروثات التي يستند إليها العقل السلفي لوجدنا غيابا مطلقا لخيرة المهاجرين والأنصار.. بل غيابا مطلقا لأتباعهم وأنصارهم وتلاميذهم.

وفي نفس الوقت نجد حضورا قويا لرجال الدين من اليهود الذين أسلموا أو الصحابة الذين تتملذوا على أيديهم.

وبذلك فإن سلف السلفية هم رجال الدين من اليهود، وتلاميذهم، أما الصحابة الذين ملأوا الدنيا صراخا من أجلهم، فهم أبعد الناس عنهم.

فلو جمعنا رواياتهم عن جميع الصحابة الذين حضروا بدرا، لم نجدها تعادل جزءا بسيطا من روايات أبي هريرة الذين كان يجمع بين المدرستين الإسلامية واليهودية، وبين الأستاذين محمد رسول الله، وكعب الأحبار، بل إن تلمذته على كعب الأحبار وجلوسه بين يديه أطول بكثير من تلمذته على رسول الله ﷺ وجلوسه بين يديه.

هذه خلاصة المغالطة، أما تفاصيل الأدلة فسنشير إليها في العنوانين التاليين:

1 ـ إقصاء السابقين من الصحابة وأتباعهم:

يذكر السلفية ـ كما رأينا في مقدمة الكتاب ـ أنه لا يصح الاقتصار على اتباع الكتاب والسنة، بل يشترطون في ذلك إضافة قيد مهم وخطير، وهو فهم السلف، وهم ـ كما ذكرنا في أدلتهم على هذا القيد ـ يستدلون بما ورد في القرآن الكريم من فضل السابقين من الصحابة، ويضيفون إلى ذلك علمهم باللغة العربية وبموارد نزول الوحي، ونحو ذلك.

لكنا إن عدنا إلى كتب التفسير التي ضمت فهوم السلف، لا نجد لهؤلاء الصحابة إلا وجودا محتشما جدا، يكاد يكون معدوما، حتى أن السيوطي قال: (لا أحفظ عن أبي بكر في التفسير إلا آثارا قليلة جدا لا تكاد تجاوز العشرة)(1)

بل إنهم يروون عنه أنه سئل عن آية، فقال: (أي أرض تسعني؟ أو أي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لم يرد

---

(1) الإتقان(2/493)

الله؟)(1)

وروي أن عمر قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: 27 - 31]، ثم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب، فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه)(2)

وهكذا لا نجد بلالا ولا عمارا .. ولا كل الصحابة الذين يظل السلفية الذين يتخذهم العقل السلفي مطية لتكفير الأمة وتبديعها.. بينما هو لا يعرفهم، ولا يأخذهم الدين عنهم، وإنما يستعملهم فقط ليستر بهم أولئك اليهود الذين يتتلمذ على أيديهم.

ومثلهم في ذلك مثل رجل أشاد بأطباء بلدة وقدراتهم وخبراتهم.. لكنه عندما أرسل مريضه إليها ليعالجوه، لم يرسله لأطبائها وإنما أرسله لبوابيها وكناسيها وحجاميها.

وهكذا يفعل العقل السلفي حين يتاجر بالصحابة، وهو يقصيهم، بل يحارب كبارهم والسابقين منهم، في نفس الوقت الذي يقرب فيه الطلقاء الذين قضوا كل أعمارهم في حرب رسول الله ﷺ .. لكنهم في الأخير نالوا الحظوة، وأقصي غيرهم.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هذا الإقصاء الذي حرم الصحابة من أداء دورهم التبليغي، لأن أولئك الظلمة الذين استبدوا بالأمر، كانوا يملون على العقل السلفي من يقبل من الرواة ومن يرفض منهم، فقد روي أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري فقال: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار فما منعكم أن تلقوني؟ قال: لم تكن لنا دواب، قال معاوية: فأين النواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، ثم قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا إنا لنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نلقاه، قال: (فاصبروا حتى تلقوه!)(3)

فهذا الحديث لا يشير فقط إلى الأثرة المادية التي مارسها معاوية، وإنما يشير إلى ما هو أخطر من ذلك، وهو تقريبه لأبي هريرة وكعب الأحبار وغيرهما في نفس الوقت الذي أبعد فيه خيرة المهاجرين والأنصار..

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره 1 ص 29.

(2) رواه سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصححه، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (8/ 421)

(3) مصنف عبد الرزاق - (ج 11 / ص 60)

وقد كان لذلك التقريب دوره الكبير في كثرة تلاميذ أولئك اليهود أو المتتلمذين عليهم، وبذلك صارت الرواية عنهم لا عن كبار الصحابة الذين يتاجر بهم العقل السلفي، ولا نجد لهم أي أثر في الواقع.

حتى أن الإمام علي، وهو أكثر الصحابة صحبة لرسول الله ﷺ، بل لم يفارقه طيلة حياته، بل كان يسكن معه في بيته مذ كان رضيعا، نجده مهمشا عند أصحاب العقل السلفي، وأكثر الروايات التي يروونها عنه إنما هي روايات أعدائه الذين قبلوهم ..

وقد أشار الإمام علي إلى ذلك التهميش بقوله: (هاه إن ههنا لعلما جما - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حمله، بل أصيب لَقِنا غير مأمون عليه مستعملا آلة الدين للدنيا، ومستظهرا بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذلك، أو منهوما باللذة سلس القيادة للشهوة، أو مغرما بالجمع شيء شبها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه)(1)

وروي عن أبي الطفيل، قال: (شهدت عليا يخطب وهو يقول: (سلوني؛ فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله؛ فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار؟ أم في سهل أم في جبل؟)(2)

ورو ي عنه قوله: (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت؟ وأين نزلت؟ إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا سئولا)

لكن العقل السلفي ـ وبتأثير من السلطة السياسية التي تحكمت بعد ذلك في الأمور ـ استطاع أن يمنع وصول علم هذا الصحابي الجليل إلى الأمة، والحيلة التي احتالوها لذلك بسيطة، وهي أن كل من يفضل عليا على غيره من الصحابة يعتبر شيعيا، وكل شيعي مبتدع، وما دام كذلك، فإنه لا تحل الرواية عنه.

بينما لم يقصوا أولئك اليهود الذين تتلمذوا على أيديهم مع ما رووه من الروايات الخطيرة التي تجسم الله، وتسيء إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكأن حرمة أفضلية أبي بكر وعمر عندهم أكبر من حرمة رسل الله، بل من حرمة الله نفسه.

بل قد وصل الأمر في ذلك العصر إلى اعتبار التسمية

---

(1) نهج البلاغة (4/ 36)

(2) الإصابة: ج 2 ص 509.

بعليّ محظورة إلاّ لبني هاشم، فكان بعضهم يخاف من اسمه، فيصغّره، ويقول : انا عُلَيّ ولست بعلي.. قال قتيبة بن سعيد سمعت الليث بن سعد يقول: قال عليُّ بن رباح : (لا أجعل في حلٍّ من سمّاني عُلَيّاً فإن اسمي عَلِيّ)، وقال سلمة بن شبيب: (سمعت أبا عبد الرحمن المقرىء يقول : كانت بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه عَلِيّ قتلوه، فبلغ ذلك رباحاً فقال : هو عُلَيّ، وكان يغضب من (عَلِيٍّ) و يُحرّج على من سمّاه به)[1]

هذا هو القرن الذي ينقل عنه السلفية دينهم، وهو القرن الذي يقصي الصالحين والسابقين في نفس الوقت الذي يغدق فيه العطاء على اليهود وتلاميذ اليهود.. وجماهير الناس يميلون عادة للقوي، ولصاحب السلطة والمال، ولهذا كثر تلاميذ المتاجرين بدينهم، وقل تلاميذ غيرهم.

ولم يكن الأمر قاصرا على الجهات السياسية، بل إن من يعتبرهم العقل السلفي حكما في تحديد مدى وثاقة الرواة كان لهم دور كبير في إقصاء كل سابق وصالح، بفضل الشروط التي وضعوها، ومن أهمها إقصاء كل محب للإمام علي باعتباره متشيعا، في نفس الوقت الذي يوثق فيه كل معاد له.

قال ابن حجر العسقلاني في هدي الساري: (والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويُطلق عليه رافضي، فإنْ انضاف إلى ذلك السب والتصريح بالبغض فغال في الرفض، وإنْ اعتقد الرجعة إلى الدنيا فأشد في الغلو)[2]

وقال: (وقد كنت استشكل توثيقهم الناصبي غالبا، وتوهينهم الشيعة مطلقا، ولا سيما أن عليا ورد في حقه: (لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق)، ثم ظهر لي في الجواب عن ذلك أن البغض ها هنا مقيد بسبب وهو كونه نصر النبي ﷺ، لأن من الطبع البشري بغض من وقعت منه إساءة في حق المبغض والحب بالعكس، وذلك ما يرجع إلى أمور الدنيا غالبا والخير في حب علي وبغضه ليس على العموم، فقد أحبه من أفرط فيه حتى ادعى أنه نبي أو إله، تعالى الله عن أفكهم والذي ورد في حق علي من ذلك قد ورد مثله في حق الأنصار وأجاب عنه العلماء أن بغضهم لأجل النصر كان ذلك علامة نفاق وبالعكس. فكذا يقال في حق علي. وأيضا فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهورا بصدق اللهجة والتمسك بأمور الديانة، بخلاف من يوصف بالرفض فإن غالبهم كاذب ولا يتورع في

1() تهذيب الكمال ج 20 :ـ 429، تهذيب التهذيب 7 :ـ 280، الترجمة 541، تاريخ دمشق 41 ـ 480، 61 ـ 7، وفيه قتيبة بن سعيد قال : سمعت الليث بن سعد يقول : سمعت موسى بن علي يقول : من قال موسى بن عُلي لم اجعله في حل.

2() هدي الساري ص 640.

الأخبار، والأصل فيه أن الناصبة اعتقدوا أن عليا قتل عثمان أو كان عليه فكان بغضهم له ديانة بزعمهم. ثم انضاف إلى ذلك أن منهم من قتلت أقاربه في حروب علي)(1)

وهكذا استطاع العقل السلفي أن يقصي الإمام علي الذي وردت النصوص الكثيرة تبين مرجعيته ومرجعية أهل بيته في الدين، كما قال ﷺ في الحديث المتواتر: (إنّي تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لنْ تضلّوا بعدي : كتاب اللّه حبلٌ ممدودٌ مِن السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولنْ يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)(2)

فذكر رسول الله ﷺ للقرآن الكريم مع العترة الطاهرة يدل على كون كليهما مرجعا للدين، وهو ما يفسره قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي حرفه العقل السلفي ليتناسب مع مزاجه، وهو قوله ﷺ: (فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)(3)

فالخلفاء الراشدون بالمفهوم النبوي، يختلف عن المفهوم الذي وضعه الناس، واصطلحوا عليه بعد ذلك، وراحوا يفسرون كل شيء على أساسه.

ونتيجة لهذا التحريف ألغى العقل السلفي ذلك الضابط الذي اعتبره رسول الله ﷺ وهو ضابط اعتبار مبغض الإمام علي منافقا لا تحل الرواية عنه، ولا يحل أخذ الدين منه.

ولهذا نجد في رواة السلفية أمثال حريز بن عثمان الناصبي الذي وثقه يحيى القطان ومعاذ بن معاذ وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين ودحيم وغيرهم، مع أنهم يروون أنه سئل بعضهم عن سر عدم الرواية عنه، فقال: (كيف أكتب عن رجل صليت معه الفجر سبع سنين فكان لا يخرج من المسجد حتى يلعن عليا سبعين لعنة كل يوم)(4)

بل إن البخاري الذي ترك الرواية عن جعفر الصادق يعتبر عمران بن حطّان السدوسي البصري (ت 84) من الثقاة الذين يروي عنهم في صحيحه، وله باتفاق المؤرخين له شعر في مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل أمير المؤمنين علي، منه

1() تهذيب التهذيب (8/ 458)

2() الحديث متواتر، وقد ورد بصيغ كثيرة رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم، وقد نص الألباني على صحته انظر حديث رقم : 2458 في صحيح الجامع.

3() رواه أبو داود (السنة 5/ـ 5/ـ 13/ رقم 4607) واللفظ له، والترمذي (العلم 16/ رقم 2676) وابن ماجه (المقدمة 6/ـ 42و 43و 44) والحاكم (العلم 1/ـ 175/ـ 329) وصححه، ووافقه الذهبي والألباني، وقال الترمذي: حسن صحيح..

4() تاريخ بغداد ج8/ص269.

قوله:

لله در المرادي الّـذي ... كفّاه مهجة شر الخلق

أمسـى عشـية غشـاه ... معطى مناه من الآثـام

يا ضـربة من تقي مـا ... إلاّ ليبلـــــــــغ من ذي

إنّي لأذكــــره حينـــاً ... ميزانا(1)

وليس هذا خاصا بفرد أو فردين، بل كان هذا منهجهم الذي اعتمدوا عليه في الجرح والتعديل، وقد كتب المحدث المعروف (محمد بن عقيل العلـوي) كتابـه في (العتب الجميـل على أهـل الجرح والتعديل) في الرد على هذا المنهج الذي يضاد ما أمر به رسـول اللـه ﷺ من اعتبـار مـولاة الإمـام علي علامـة للإيمـان، وبغضه علامة للنفاق.

وقــد قــال في مقدمــة كتابــه، بعــد نقلــه لكلام ابن حجــر السابق في سبب توثيق المحدثين للنواصب وتوهينهم للمحــبين للإمام علي: (ولا يخفى أن معـنى كلامـه هـذا أن جميـع محـبي علي المقدمين له على الشيخين روافض، وأن محبيه المقدمين لــه على من ســوى الشــيخين شــيعة، وكلا الطــائفتين مجــروح العدالة. وعلى هذا فجملة كبيرة من الصـحابة الكـرام كالمقـداد وزيد بن أرقم وسلمان وأبي ذر وخباب وجابر وعثمان بن حنيف وأبي الهيثم بن التيهان وخزيمــة بن ثـابت وقيس بن سـعد وأبي ذر وخبــاب وجــابر وعثمــان بن حــنيف وأبي الهيثم بن التيهــان وخزيمة بن ثابت وقيس بن سعد وأبي الطفيـل عـامر بن واثلـة والعباس بن عبد المطلب وبنيه وبني هاشم كافة وبني المطلب كافة وكثير غيرهم كلهم روافض لتفضـيلهم عليـا على الشـيخين ومحبتهم له ويلحق بهؤلاء من التابعين وتابعي التابعين من أكابر الأئمة وصفوة الأمة من لا يحصى عددهم وفيهم قرنـاء الكتـاب، وجرح عدالة هؤلاء هو والله قاصمة الظهر) (2)

وقــد ضــرب الأمثلــة الكثــيرة عن جــرج المحــدثين للــرواة بسبب حبهم للإمام علي، ومن ذلـك مـا نقلـه عن ابن حجـر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة مصدع المعرقب مـا لفظـه: (قلت إنما قيل له (المعرقب) لأن الحجـاج أو بشـر بن مـروان عـرض عليه سـب علي فـأبى فقطـع عرقويـه. قـال ابن المـديني قلت لسفيان: في أي شيء عرقب؟ قال: في التشيع انتهى. ثم قــال ذكره الجوزجـاني في الضـعفاء - يعـني المعـرقب - فقـال زائـغ

1() انظـر: ابن حجـر العسـقلاني: تهـذيب التهـذيب 8 /ـ 113 ـ 114 بـرقم 223. راجـع الاصابة 3 / 178..

2() العتب الجميل، ص15.

جـائر عن الطريــق، يريــد بــذلك مــا نســب إليــه من التشــيع. والجوزجـاني مشـهور بالنصـب والانحـراف فلا يقـدح فيـه قولـه انتهى. ومن هـذا تعـرف أن التشـيع الـذي يعـرقب المتصـف بـه ويكـون زائغـا جـائزا عن الطريــق عنـد أمثـال الجوزجـاني هـو الامتناع عن سب مولى المؤمنين عليه السلام)(1)

والأمثلة على ذلـك كثـيرة، وقـد ألفت في ذلـك المؤلفـات الخاصة، وما ذكرنا هذا إلا من باب المثـال، ولهـذا للأسـف نجـد ثروة كبيرة من العلم والعرفان قد ضاعت بسبب تلك المـوازين التي وضعها العقل السلفي، ولا زال يتمسـك بـه، ويـدعي فـوق ذلك أنه يجل الصحابة ويحترمهم، مع أنه أعدى عدو لهم.

2ـ تقديم رجال الدين من اليهود وتلاميذهم:

بعد إقصاء العقل السلفي للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصــار، وأمثــالهم من آل بيت النبــوة، بأمثــال تلــك الحجج الواهية نجده يقـرب رجـال الـدين من اليهـود، ومن تتلمـذ على أيديهم من الصحابة والتابعين، حتى أصبحنا نجـد هـؤلاء في كـل مصـدر من مصـادر التلقي ابتـداء من تفسـير القـرآن الكـريم، وانتهاء بكتب العقائد والحديث ونحوها.

حيث لا نكاد نجد مصدرا من هذه المصـادر ــ وخاصـة كتب التفسير التي منها تؤخذ تصورات الدين وعقائده المختلفـة ــ إلا وهو مملوء بأمثال إسماعيل بن أبي كريمة السـدي، ومحمـد بن إسـحاق، وعبـد الملـك بن جـريج، وعبـد اللـه بن سـلام وكعب الأحبار، وابن وهب، وغيرهم من رواة الأحاديث الإسرائيلية التي سربت إلى الإسلام، وفسر بها القرآن.

أمـا المبالغـات الـتي وجـدناها في علم الجـرح والتعـديل، والتي مست خيار الأمة بسـبب مـواقفهم الطيبـة من السـابقين الأولين من المهـاجرين والأنصـار، وخاصـة بيت النبـوة، فإننـا لا نجدها هنا .. بل نجد تساهلا كبيرا إلى الدرجـة الـتي يعتـبر فيهـا علماء الجرح والتعـديل رجلا مثـل كعب الأحبـار علمـا من أعلام الأمة، وإماما من أئمتها.

والمشـــكلة لا تكمن في كعب وحـــده، فقـــد يمكن تلافي رواياتــه، وإنمــا تكمن في أولئـك الـذين تتلمـذوا عليـه، ثم رووا رواياته، من غير أن يسندوها إليه، وبذلك اختلـط الأمـر اختلاطـا شديدا.

فمن الذين ذكر المزي في (تهذيب الكمـال) جلوسـهم بين يدي كعب الأحبار، وروايتهم عنه، سواء أسـندوا أو لم يسـندوا ــ هــذه الأســماء الــتي لهــا حضــورها القــوي في كتب التفســير والعقائـد: (الأخنس بن خليفـة الضـبى، وأسـلم مـولى عمـر بن

1() العتب الجميل، ص19.

الخطاب، وتبيع الحميرى (ابن امرأته)، وجرير بن جابر الخثعمى، وخالد بن معدان، وروح بن زنباع، وأبو المخارق زهير بن سالم السلولى، وسعيد بن المسيب، وشريح بن عُبيد، وعبد الله بن رباح الأنصارى، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن ضمرة السلولى، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن غيلان، وعبد الرحمن بن مغيث، وعطاء بن أبى رباح، ومالك بن أبى عامر الأصبحى، ومحمد بن عبد الله بن صيفى، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، ومعاوية بن أبى سفيان، ومغيث بن سمى، وممطور أبو سلام الأسود، وهمام (شيخ لعبد الغفور الواسطى)، ويزيد بن خمير اليزنى، ويزيد بن قوذر، وأبو إبراهيم الردمانى، وأبو رافع الصائغ، وأبو سعيد الحبرانى، وأبو مروان الأسلمى (والد عطاء بن أبى مروان)، وأبو هريرة، وابن مواهن)(1)

فلكل واحد من هذه الأسماء الروايات الكثيرة في كتب التفسير والحديث والعقيدة، بل إن الكثير منهم روى له البخاري ومسلم وغيرهما.. حتى أن بعض الأحاديث صارت مختلطة لا يكاد يميز بينها، هل قالها رسول الله ﷺ أم قالها كعب الأحبار؟

ومن الأمثلة على ذلك الحديث المشهور الذي تجرؤوا فذكروا أنه من روايات كعب الأحبار التي رفعها أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ على الرغم من أبا هريرة قال في الحديث: (أخذ رسول الله ﷺ بيدي،فقال: خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس،وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) (2)

فمع كون الحديث مرويا في صحيح مسلم إلا أن ابن كثير تجرأ فقال بكذبه، فقد قال في تفسيره تعليقا عليه: (فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه، والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا)(3)

بل إن ابن تيمية نفسه رد الحديث، فقال في (مجموع الفتاوى): (.. خلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فإن هذا طعن فيه من هو أعلم من مسلم مثل يحيى بن معين

---

(1) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (24/ 189)
(2) صحيح مسلم (4/ 2149)
(3) تفسير ابن كثير ج2 ص294.

ومثل البخـارى وغيرهمـا وذكـر البخـارى أن هـذا من كلام كعب الأحبار)(1)

وليت العقل السلفي التزم هذا المنهج مع كل الـرواة ومـع كل الأحاديث.. فمع اعترافهم بأن أحـاديث أبي هريـرة مختلطـة مع أحاديث كعب الأحبار إلا أنهم لا يبـالون في أخـذ أكـثر عقائـد الــدين منــه، وقــد روى ابن كثــير عن عــروة بن الزبــير بن العوام،قال: قال لى أبي الزبير: أدننى من هـذا اليمـانى (يعـني أبا هريرة) فانه يكثر الحديث عن رسول اللـه ﷺ قـال: فأدنيتـه منه فجعل أبو هريرة يحـدث، وجعـل الزبـير يقـول صـدق كـذب صدق كذب،قال: قلت يا أبة ما قولك صدق كذب،قـال: يـا بـني أما أن يكون سمع هذه الأحاديث من رسـول اللـه ﷺ فلا أشـك، ولكن منها مـا يضـعه على مواضـعه ومنهـا مـا وضـعه على غـير مواضعه)(2)

وروى ابن كثير أيضا عن مسلم صاحب الصحيح بسنده عن بكير بن الأشج،قال: قال لنا بشر بن سعيد: (اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنـا نجـالس أبـا هريـرة فيحـدث عن رسول الله ﷺ، ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقـوم فأسـمع بعض ما كان معنا يجعل حديث رسول الله ﷺ عن كعب وحديث كعب عن رسول الله ﷺ)(3)

ومن هذا الباب دخلت اليهودية ـ بمساهة العقل الســلفي ـ في الإســلام إلى الدرجــة الــتي تحــول فيهــا الــذبيح بــدل كونــه إسماعيل عليه السلام ـ كما هو واضح من النص القـرآني ــ إلى كونه إسحق كما يقول اليهود، وذلك لأن أبا أبي هريرة روى عن كعب الأحبار أن الذي أمر إبراهيم بذبحه من ابنيه إســحاق، وأن الله لما فرج له ولابنه من البلاء العظيم الذي كان فيه، قال الله لإسحاق: إني قد أعطيتك بصبرك لأمري دعوة أعطيـك فيهـا مـا سألت، فسلني، قال: رب أسألك أن لا تعـذب عبـدا من عبـادك لقيك وهو يؤمن بك، فكانت تلك مسألته التي سأل(4).

وقـد حكى الطـبري وغـيره هـذا القـول عن أعلام السـلف كـابن عبـاس وعبـد اللـه بن مسـعود وأبي هريـرة وغـيرهم من الصحابة، بالإضافة لأكثر من عشرة من سادات التابعين(5).

وبعــد أن حكى الأقــوال المختلفــة في هــذا عقب عليهــا مرجحا بقوله: (وأولى القولين بالصـواب في المفـدي من ابـني إبراهيم خليل الـرحمن على ظـاهر التنزيـل قـول من قـال: هـو

1() مجموع فتاوى ابن تيمية ج18ص18.
2() البداية والنهاية ج8 ص109.
3() البداية والنهاية ج8 ص109.
4() تفسير الطبري (21/ 82)
5() انظر: تفسير الطبري (21/ 79)

إسحاق)(1)

وليت الأمر توقف عند هذا، بل إن هذا اليهودي، وأمثاله من اليهود الذي تحولوا إلى أساتذة عند العقل السلفي، هم الذي زرعوا نبت التجسيم الذي تحولت به العقيدة التنزيهية إلى عقيدة وثنية، فعبد العجل في هذه الأمة كما عبد في بني إسرائيل، وحصل ما تخوف منه حذيفة بن اليمان.

ومن الأمثلة على ذلك هذه الرواية التي تطفح بالتجسيم، والتي يقول فيها كعب الأحبار ـ متحدثا عن الله بكل جرأة ـ: (قال الله عز وجل: أنا الله فوق عبادي وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على العرش أدبر أمر عبادي، لا يخفى علي شيء من أمر عبادي في سمائي وأرضي، وإن حُجبوا عني فلا يغيب عنهم علمي، وإلي مرجع كل خلقي فأنبئهم بما خفي عليهم من علمي، أغفر لمن شئت منهم بمغفرتي، وأعذب من شئت منهم بعقابي)(2)

وللأسف فإن هذه الرواية، ومع كونها حديثا عن الله تعالى، أو ما يسمى حديثا قدسيا، والأصل فيه أن لا يؤخذ إلا عن معصوم، لكن أهل الحديث غضوا الطرف عن ذلك، بل تلقوها، وكأنها قرآن منزل(3)... لأن كعب الأحبار يهودي، وما دام كذلك، فكل ما يقوله إنما ينقله من الكتب السماوية التي أوحاها الله لأنبيائه.

ولهذا نرى محدثا كبيرا يعتبر من أئمة المدرسة السلفية يتلقى هذه الرواية باحترام عظيم، ويقول ــ بنبرة تجسيمية لا تختلف عن تجسيم اليهود ـ :(وإنما يعرف فضلُ الربوبية وعِظمُ القدرة بأن الله تعالى من فوق عرشه، وبعد مسافة السموات والأرض يعلم ما في الأرض وما تحت الثرى وهو مع كل ذي نجوى، ولذلك قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الأنعام: 73]، ولو كان في الأرض كما ادعيتم بجنب كل ذي نجوى ما كان بعجبٍ أن ينبئهم بما عملوا يوم القيامة فلو كنا نحن بتلك المنزلة منهم لنبأنا كل عامل منهم بما عمل)(4)

بل إن كعب الأحبار ـ ونتيجة للاحترام الكبير الذي لقيه من التجسيميين في هذه الأمة، وبرعاية من السلطة السياسية ـ يقول ـ جوابا لمن سأله: أين ربنا؟ ـ :(سألت أين ربنا، وهو على العرش العظيم متكئ، واضع إحدى رجليه على الأخرى، ومسافة هذه الأرض التي أنت عليها خمسمائة سنة ومن الأرض إلى الأرض مسيرة خمس مئة سنة، وكثافتها خمس مئة سنة،

1() تفسير الطبري (21/ 86)
2() العظمة 2/626.
3() العرش للذهبي 2/148.
4() نقض عثمان بن سعيد 443.

حتى تمّ سبع أرضين، ثم من الأرض إلى السماء مسيرة خمس مئة سنة، وكثافتها خمس مئة سنة، والله على العرم متكئ، ثم تفطر السموات.. ثم قال: إقرؤوا إن شئتم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى: 5])(1)

والخطورة في هذه الرواية ـ والتي تلقاها التيار السلفي بالقبول والإذعان التام ـ هو تحريفها للمعاني القرآنية، وتغييرها عن سياقها ومدلولاتها المقدسة لتتحول إلى معان تجسيمية وثنية.

ومن الأمثلة على ذلك هذه الرواية التي رواها السيوطي في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) عن كثير من المحدثين، ومما ورد فيها: فقال عمر بن الخطاب عند ذلك: ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدنى أهل الجنة ما له فكيف بأعلاهم؟ قال: (يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، إن الله كان فوق العرش والماء، فخلق لنفسه دارا بيده، فزينها بما شاء وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها جبريل ولا غيره من الملائكة ثم قرأ كعب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17](2)

وهكذا نجد العقل السلفي يتلقى كل ما يذكره كعب الأحبار، وكأنه قرآن منزل، وقد دافع ابن تيمية كثيرا عن أمثال هذه الروايات، بل إنه ذكر ما يدل على أن مرجع كعب فيها فيما يذكره من إسرائيليات هي التوراة الصحيحة، فقد قال في دقائق التفسير: (وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به، ولم يجزم عمر رضي الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها، والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي ﷺ فيهما ما أنزله الله عز وجل، والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر، ولا حاجة بنا إلى ذكره، ولا علم لنا بذلك، ولا يمكن أحدا من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد، فإن هذا مما لا يمكن أحدا من البشر أن يعرفه باختياره)(3)

ولم تكتف المدرسة السلفية بإمامة كعب الأحبار، بل

---

(1) تفسير الطبري (21/ 501)

(2) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (8/ 259)

(3) دقائق التفسير (2/ 58)

بحثت عن أي يهودي ليعرفها بربها، وكأن القرآن الكريم لم يـف لهم بالغرض، فراحوا يبحثون في الأمم الأخرى من يفسره.

ومن هـؤلاء الـذين نجـد روايـاتهم الكثـيرة في كتب عقائـد السنة وهب بن منبه .. ومن رواياته قوله: (إن السموات السـبع والبحـار لفي الهيكل[1] وإن الهيكـل لفي الكرسـي، وإن قدميـه لعلى الكرسي وهو يحمل الكرسـي وقـد عـاد الكرسـي كالنعـل في قدميه) [2]

وقـد علـق عليـه الـذهبي بقولـه: (كـان وهب من أوعيـة العلوم، لكن جُلّ علمه عن أخبار الأمم السالفة، كان عنده كتب كثيرة إسرائيليات، كان ينقـل منهـا لعلـه أوسـع دائـرة من كعب الأخبـار، وهـذا الـذي وصـفه من الهيكـل وأن الأرضـين السـبع يتخللها البحر وغير ذلك فيه نظر والله أعلم، فلا نرده ولا نتخـذه دليلاً)[3]

والعجب من هـذه المقولـة الـتي لا تسـمن ولا تغـني من جـوع.. فهم يـروون هـذه الروايـة وغيرهـا في كتب التفسـير والحديث والعقيدة.. ويستخلصون ما فيها من فوائد عقديـة.. ثم بعد ذلك ـ ومن باب التقية ـ يقولون: (لا نرده ولا نتخذه دليلاً)

وهكـذا نجـد إمامـا من أئمـة اليهـود مثـل محمـد بن كعب القرظي يعقد المجالس ليفسر القرآن على الطريقـة اليهوديـة، كقولـه:(كـأن النـاس إذا سـمعوا القـرآن من في الـرحمن يـوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك)[4].

ومثله عبـد اللـه بن سـلام الـذي رووا عنـه قولـه: (والـذي نفسي بيده إن أقرب الناس يوم القيامـة محمـد ﷺ جـالس عن يمينه على كرسي)[5]

وهذه النصوص وغيرها كثير تدل على تفريط الأمة في تلك الوصايا الكثيرة الـتي حـذر فيهـا رسـول اللـه ﷺ من أن تـرغب الأمة عن كتاب الله إلى غيره من الكتب.

وقـد ذكـر ابن كثـير السـر في كـثرة تلاميـذ كعب الأحبـار وغيره من اليهود، فقـال: (... فـإن كعب الأحبـار لمـا أسـلم في زمن عمر كان يتحـدث بين يـدي عمـر بن الخطـاب بأشـياء من علوم أهل الكتاب، فيستمع له عمر تأليفا له وتعجبـا ممـا عنـده ممـا يوافـق كثـير منـه الحـق الـذي ورد بـه الشـرع المطهـر، فاسـتجاز كثـير من النـاس نقـل مـا يـورده كعب الأحبـار لهـذا

---

[1] () الهيكل البناء المشرف، مختار الصحاح، الرزاي 1/290.

[2] () السنة 2/477.

[3] () العلو 1/130.

[4] () السنة 1/148.

[5] () السنة 1/256. وأخرجه الآجري في الشريعة 4/1609 والذهبي في العلو 1/720.

المعنى، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل)(1)

بل إن عبد الله بن الزبير ـ وهو من الصحابة الذين تتلمذوا على كعب الأحبار ــ يذكر ما استفاده من كعب، فيقول: (ما أصبت فى سلطانى شيئاً إلا قد أخبرنى به كعب قبل أن يقع)، ويروون عن معاوية قوله: (ألا إنَّ أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إنَّ عمرو بن العاص أحد الحكماء، ألا إنَّ كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده علم كالثمار وإن كنا المفرطين)(2)

بل يورد السلفية ما هو أخطر من ذلك حين يحدثون عن فضائل عبد الله بن عمرو بن العاص، فيذكرون منها قوله: (رأيت فيما يرى النائم لكأن في إحدى أصبعي سمنا وفي الأخرى عسلا فأنا ألعقهما، فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: (تقرأ الكتابين التوراة والفرقان، فكان يقرؤهما)(3)

وبهذا، فإن الرجال الذين اعتمد عليهم السلفية في أخص خصوصيات الدين، وهي تفسير القرآن الكريم والعقائد، كانوا من اليهود أو تلاميذ اليهود.

أما أولئك السابقون الذين ملأوا الدنيا صراخا بسببهم، فلا يروون عنهم إلا في قضايا فرعية محدودة، لا يهم الخلاف فيها كثيرا..

ومن أمثلة ذلك أن عمار بن ياسر الذي يعتبر من كبار السابقين الأولين، وتأخرت وفاته، ومع ذلك لا نرى إلا القليل من الروايات عنه، وفي قضايا فرعية جدا، وسر ذلك أنه كان يقول عن أولئك الطلقاء الذين استأثروا بأمر الأمة، ليحرفوا دينها: (والله ما أسلموا، ولكن استسلموا وأسروا الكفر، فلما رأوا عليه أعواناً أظهروه)(4)

أما العقل السلفي، فهو يكتفي بذكر فضائل عمار، ويدعي محبته، وينسى أن يطبق ما ذكر رسول الله ﷺ من الدور الذي أنيط به في هذه الأمة، وهو أن يكون علامة على الفئة الباغية الظالمة التي تنحرف بالدين، فقد قال ﷺ: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)(5)

وكان في إمكان العقل السلفي أن يتخذ من هذا الحديث مقياسا يوثق على أساسه الرواة أو يجرحوا.. وبذلك لن يبقى لا

1() البداية والنهاية [1/34-35)

2() الإصابة في تمييز الصحابة، (5 /650)

3() أحمد 2/222 (7067)

4() قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج1/118): (رواه الطبراني في الكبير وسعد بن حذيفة لم أر من ترجمه!) مع أن ترجمته موجودة في طبقات ابن سعد وتاريخ البخاري وتاريخ ابن أبي خيثمة وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وفي ثقات ابن حبان وغيرها..

5() البخاري 1/121 (447.

كعب الأحبار، ولا تلاميذ الأحبار.

لكن العقل السلفي استطاع أن يحتال على هذا الحديث كما احتال على غيره من الأحاديث، فقد قال ابن كثير في شرحه للحديث: (وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر ﷺ عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية، وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين، وعمار مع علي وأهل العراق.. وقد كان علي أحق بالأمر من معاوية.. ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم، كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم، لأنهم، وإن كانوا بغاة في نفس الأمر، فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال، وليس كل مجتهد مصيبا، بل المصيب له أجران، والمخطئ له أجر)(1)

وهكذا استطاع العقل السلفي أن يجعل من الفئة الباغية فئة مأجورة، بدل أن تكون فئة تدعو إلى النار، وتنحرف بالدين.

بل إن ابن كثير يعقب على قوله ﷺ في تتمة الحديث: (يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)؟ بقوله: (فإن عمارا وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الألفة واجتماع الكلمة، وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به، وأن يكون الناس أوزاعا على كل قطر إمام برأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة، واختلاف الأمة، فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكهم، وإن كانوا لا يقصدونه)

وهذا الكلام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع هو الحيلة التي احتال بها الشيطان ليجتمع في العقل السلفي الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول، والفئة الباغية والفئة العادلة، فالعقل السلفي هو العقل الوحيد في العالم الذي تجتمع عنده الخطوط المتوازية، وجميع المتناقضات.

---

(1) البداية والنهاية، (4/538)

حشو .. لا تحقيق

من الأوصاف الأساسية للسلفية، والتي يمكن اعتبارها ركنا للعقل السلفي [الحشو]، وهو يعني الجمع من دون تمحيص ولا تحقيق ولا غربلة.. وقد اكتسب السلفية بفعل إدمانهم على الحشو لقب الحشوية، والذي لقبهم به الكثير من العلماء المتقدمين، وخاصة المتكلمين منهم.

ولتقريب هذا المعنى لواقعنا المعاصر، فإننا نشبههم في هذا بما يمارس في عالم الصحافة من سعي كل صحيفة أو قناة إخبارية للحصول على جمع أكبر قدر من المعلومات المرتبطة بالحادثة التي يريدون الحديث عنها من دون التحقق منها، أو التحقيق فيها، لأن الهدف هو الوصول إلى الخبر، وإمتاع فضول السامع به، ولا بأس ــ إن كان كاذبا ــ أن يصدر تكذيبه بعد ذلك.

وهكذا فعل سلف السلفية من المحدثين الذين راحوا يمارسون ما يمارسه الصحفيون من التنقل في البلدان، وتلقف كل حديث يردد، ثم تسجيله بإسناده، ونشره بين عامة الناس وخاصتهم.

بل إنهم ــ من أجل الحصول على السبق في الرواية ـ وقعوا فيما وقع فيه الصحفيون من التنافس الحاد، والبحث عن الغرائب، وجمع المتفرقات ليشكلوا منها موقفا أو صورة معينة.

وقد جعلهم ذلك كله كحاطب ليل يجمعون الصادق والكاذب من الأخبار، ويجمعون بين الطيب والخبيث من الأسانيد، ولا يبالون بأن يسجلوا كل ذلك، ثم يطرحوه ككتب ومصنفات لتفعل فعلها في الأمة.

ولهذا، ولأجل ذلك التنافس الشديد، لم يكن لهم وقت يسمح لهم بالتحقيق أو دراسة ما جمعوه لأن التنافس كان حادا بين الرواة والمحدثين، وكل منهم يريد أن يسبق الآخر.

فقد كانوا يتألمون ألما شديدا إن وجدوا من سبقهم برواية من الروايات، ويفخرون إن ظفر أحدهم برواية لم يسبق إليها.

وقد ذكر الشيخ المعلمي ــ وهو من علماء السلفية المعتبرين ـ هذه الخصلة مشيدا بها، فقال: (وكان من عادة المحدِّثين التباهي بالإغراب؛ يَحرِص كلٌّ منهم على أن يكون عنده من الروايات ما ليس عند الآخرين؛ لتظهر مزيَّته عليهم، وكانوا يتعنَّون شديدًا لتحصيل الغرائب، ويَحرِصُون على التفرد بها.. وكانوا إذا اجتمعوا تذاكروا، فيَحرِص كل واحدٍ منهم على أن يَذكُر شيئًا يُغرِبُ به على أصحابه؛ بأن يكون عنده دونهم،

فـإذا ظفـر بـذلك؛ افتخـر بـه عليهم، واشـتدَّ سـروره وإعجابـه وانكسارهم)[1]

ومن الأمثلة الـتي يوردهـا السـلفية عن سـلفهم مفتخـرين بها، ما رووه عن أبي مسعود أحمد بن الفرات، قال: (كنا نتذاكر الأبواب، فخاضوا في باب، فجاؤوا فيه بخمسة أحـاديث، فجئتهم آنا بـآخر، فصـار سادسًـا، فنخس أحمـد بن حنبـل في صـدري - يعني: لإعجابه به-)[2]

ورووا عن أحمـد بن عمـير بن جوصـا قـال: (كنـا ببغـداد، فـرأيت أصـحاب الحـديث يتـذاكرون بحـديث أيـوب السـختياني وأشـباهه، فـأطلعت لهم رأسـي، فقلت لهم: أيش أسـند جنـادة عن عبادة؟ فسكتوا، ثم قلت لهم: أيش أسـند عمـرو بن عمـرو بن عبـدة الأحموسـي؟ فلم يجيبـوا بشـيء)[3]، يريـد أنهم كـانوا يتــذاكرون في أحــاديث العراقــيين، فــأغرب عليهم بأحــاديث الشاميين، فلم يعرفوا منها شيئًا..

ويروون عن بعضهم، وهو شعبة بن الحجاج حزنـه الشـديد، لأنـه وجـد من الأحـاديث عنـد بعضـهم مـا لم يكن لديـه، قـال: (ذاكرت قيس بن الربيع حديثَ أبي حصـين، فلـوددتُ أن الـبيت وقع عليَّ وعليه حتى نموت؛ من كثرة ما كان يُغرب عليَّ!)[4]

ويـروون عن أبي حـاتم الـرازي قولـه مفتخـرا: (قلتُ على باب أبي الوليد الطيالسي: مَن أغرب عليَّ حـديثًا غريبًـا مسـندًا صحيحًا لم أسمع به؛ فله عليَّ درهمٌ يتصدق به. وقد حضـر على باب أبي الوليد خلقٌ من الخلق؛ أبو زرعة فمن دونـه.. فمـا تهيَّأ لأحدٍ منهم أن يُغرب عليَّ حديثًا)[5]

وقـد كـان هـذا التنـافس الشـديد فتنـة للمحـدثين جلعهم يقبلون أي شيء، ومن أي أحد حـتى يشـحنوا كتبهم بـأكبر عـدد من الروايات، قال أحمد بن محمد بن ياسين: سمعت أحمــد بن منيع (ابن عبد الرحمن البغوي) يقول: سمعت جـدي يقـول: مـر أحمـد بن حنبـل جائيـاً من الكوفـة، وبيـده خريطـة فيهـا كتب، فأخذت بيده فقلت: مـرة إلى الكــوفة! ومـرة إلى البصـرة! إذا كتب الرجـل ثلاثين ألـف حـديث لم يكفـه؟ فسـكت، ثم قلت: ستين ألفـاً؟ فسـكت، فقلت: مائـة ألـف؟ فقـال: حينئـذ يعـرف شيئاً. قال أحمد بن منيع: فنظرنا فـإذا أحمـد كتب ثلاثمائـة ألف [6].

1() التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (2/522، 523)
2() تاريخ بغداد (4/343)
3() تاريخ دمشق (5/114)
4() الكامل (6/41)، تاريخ بغداد (12/457).
5() الجرح والتعديل (1/355).
6() مناقب الإمام أحمد ص28.

وكان ذلك التنافس أيضا سببا في ذلـك السـباق المحمـوم الذي كان يجري بينهم، بل كـان يختلـط بحيـاتهم.. لأن المقصـر في هذا السباق لن تصير له الحظوة بين المحدثين.

ولهذا اعتبروا من علامات المحـدث النـاجح سـرعة مشـيه ليتمكن من الطـواف على الشـيوخ في وقت قصـير، وسـرعة كتابته وقراءته لاختصار الوقت وحفظه لأعمال أخرى.. وهذا كله لأجل زيـادة الـتزود من العلم والشـيوخ، بأقـل مـدة من الـزمن والعمر.

وقـد حكى ابن رجب عن المحـدث إبي إسـماعيل الهـروي الأنصاري الحنبلي (المتوفى سنة 481) ـ والذي يمدح ابن تيمية سلفيته العقدية كثيرا في كتبه ـ قوله: (المحدث يجب أن يكـون سريع المشي، سريع الكتابة، سريع القراءة)(1)

وقد علق عليه بعض المحـدثين بقولـه: (وكنت زدت عليهـا وصفا رابعا، وهو: أن يكون سريع الأكل، لأنه إذا لم يكن كـذلك، وكان بطيء الطعام طويل الغرام به! فاته الـوقت الـذي جمعـه بسرعة القراءة والكتابة والمشـي، بطـول وقت دخـول الطعـام وخروجه! ولم يحسن التصرف في وقته، ولا عرف كيف يستفيد من امتثال النصيحة على وجهها)(2)

ويذكرون عن يحـيى بن البنـاء قولـه: (كـان الحميـدي، من اجتهـاده في العلم، ينسـخ ويكتب العلم بالليـل في شـدة الحـر، فكان يجلس في طست فيه ماء فيتبرد به ثم يشرع في الكتابة والنسخ)(3)

ويذكر ابن تيمية عن جده مجد الدين أبي البركات الحراني الحنبلي، (المتوفى 653)، أنه كـان (إذا دخـل الخلاء يقـول لـه: اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع)(4)

ومما جاء في ترجمـة شـمس الـدين أبي الثنـاء الأصـبهاني (المتــوفى 749) أنــه (اشــتغل في بلاده، ومهــر وتقــدم في الفنون.. فبهرت أهلها فضائله، وسمع كلامـه الشـيخ تقي الـدين ابن تيمية، فبالغ في تعظيمـه، قـال مـرة: اسـكتوا حـتى نسـمع كلام هـذا الفاضـل الـذي مـا دخـل البلاد مثلـه. ثم انتقـل إلى القاهرة، وفيها توفى.. وممـا يحكى عنـه من حرصـه على العلم وشحه أوقاته، أن بعض أصحابه كان يذكر أنـه كـان يمتنـع كثـيرا من الأكـل، لئلا يحتـاج إلى الشـرب، فيحتـاج إلى دخـول الخلاء، فيضيع عليه الزمان)(5)

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (1/ 133)

(2) قيمة الزمن عند العلماء (ص: 109)

(3) تذكرة الحفاظ 4/1219 بتصرف.

(4) ذيل طبقات الحنابلة: 2: 252،249..

(5) الدرر الكامنة) 58:6، و (البدر الطالع) 298:2..

وهذا كله جعلهم لا يجدون الوقت الكافي للتحقيق والغربلة والتصفية .. لأنهم في سباق محموم، ولا يمكن أن يجد المسابق الفترة الكافية للنظر والتحقيق، بالإضافة إلى أنهم لو فعلوا ذلك، فستضيع الكثير من الروايات التي جمعوها، وأتعبوا أنفسهم فيها، وبذلك تقل الرغبة فيهم.. لأن من شروط المحدث الحافظ ـ كما سنرى ـ أن يصل إلى حفظ مئات الآلاف من الأحاديث.

وكمثال على ذلك أن ابن جرير الطبري كان يعلم بعدم أهلية سيف بن عمر(1) للرواية، ولكن مع ذلك روى له .. لأنه لو أزال من كتابه تلك الروايات فسينقص عدد صفحات كتابه، وسينقص معها تقدير المحدثين له.

فقد كان للكم دوره الكبير في العقل السلفي، وقد حكى الخطيب هذه الرواية التي يهتم بها السلفية عند ذكرهم لهمم السلف، فقد رووا عن الطبري أنه قَالَ لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن. قالوا: كم يكون قدره؟ فقال ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قَالَ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك.. فقال: إنا لله، ماتت الهمم (2).

ومن هذا الباب نراهم يشيدون بأئمتهم أصحاب التصانيف الكثيرة، والتي كتبوها بسرعة فائقة، فقد ذكروا أن ابن تيمية ألف كتابه في العقيدة التجسيمية المسمى (العقيدة الواسطية)، والذي لقي اهتماما كبيرا من السلفية، وشرح شروحا كثيرةـ في جَلسة بين الظهر والعصر، ومثله (الفتوى الحموية)، وهو مجلد ضخم، ألفه ــ كما ذكر ــ في جلسة بعد العصر، بعد أن جاءه استفتاء من أهل حماة، يسألونه عما يقول العلماء في آيات الصفات وأحاديث الصفات،

يقول ابن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: 744هـ)، وهو يذكر مناقبه في السرعة في التأليف: (وله الحموية الكبرى والحموية الصغرى فأما الحموية الكبرى فأملاها بين الظهر والعصر وهي جواب عن سؤال ورد من حماة سنة ثمان وتسعين وستمائة وجرى بسبب تأليفها أمور ومحن وتكلم

1() هو سيف بن عمر الأسديّ التميمي وهو مؤرخ كوفي كتب ما كتبه زمن هارون الرشيد، وقد تجاهله أغلب المؤرخين المبكرين؛ كالبلاذري وعمر بن شبة، بالإضافة إلى أن أصحاب الجرح والتعديل ضعفوه واتهموه بالكذب، فقد قال فيه النسائي صاحب السنن (المتوفى 303 هـ)، والمعاصر للطبري: (ضعيف متروك الحديث، ليس بثقة، ولا مأمون) (الضعفاء والمتروكين: 187) لكنّ الطبري استند إليه استناداً واسعاً فيما تعلق بتاريخ الخلافة المبكرة من أبي بكر إلى علي. وعبر نقول الطبري عنه أثرت رواية سيف هذا تأثيراً بالغاً في الكتابة التاريخية.

2() تاريخ بغداد وذيوله (2/ 161)

الشيخ فيها على آيات الصفات والأحاديث الواردة في ذلك)(1)

ويقـول: (لـو أراد الشـيخ تقي الـدين رحمـه اللـه أو غـيره حصرها يعني مؤلفات الشيخ لما قدروا لأنـه مـا زال يكتب وقـد من الله عليه بسرعة الكتابـة ويكتب من حفظـه من غـير نقـل، وأخبرني غير واحـد انـه كتب مجلـدا لطيفـا في يـوم وكتب غـير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر وأحصيت ما كتبه وبيضـه في يوم فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكل المسـائل وكـان يكتب على السؤال الواحد مجلدا)(2)

ويقـول: (وأمـا جـواب يكتب فيـه خمسـين ورقـة وسـتين وأربعين وعشرين فكثير.. وكـان يكتب الجـواب فـإن حضـر من يبيضه وإلا أخذ السائل خطـه وذهب.. ويكتب قواعـد كثـيرة في فنون من العلم في الأصول والفروع والتفسير وغـير ذلـك فـإن وجد من نقله من خطه وإلا لم يشـتهر ولم يعـرف وربمـا أخـذه بعض أصحابه فلا يقدر على نقله ولا يـرده إليـه فيـذهب.. وكـان كثيرا ما يقول قد كتبت في كذا وفي كذا.. ويسـئل عن الشـيء فيقول قد كتبت في هذا فلا يدري أين هـو فيلتفت إلى اصـحابه ويقول ردوا خطي وأظهروه لينقل فمن حرصهم عليه لا يردونـه ومن عجــزهم لا ينقلونــه فيــذهب ولا يعــرف اســمه.. فلهــذه الأسباب وغبرها تعذر إحصاء ما كتبه وما صنفه)(3)

وجــاء في ترجمتــه عنــد ابن شــاكر الكتــبي في (فــوات الوفيات): (إن تصانيفه تبلغ ثلاث مئة مجلـد، قـال الـذهبي: ومـا يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمس مئة مجلد)(4)

وقال ابن رجب: (وأما تصـانيفه فقـد امتلأت بهـا الأمصـار، وجاوزت حد الكثرة، فلا يمكن لأحد حصرها)(5)

قد يقال هنا بأن ذلك كله دليل الصدق والإخلاص، وأنه لـولا جهود هؤلاء لضاعت السنة، وضاع معها الإسلام.

ونحن لا ننكر أن يكون في المحدثين صادقين ومخلصــين.. ولكنا لا نستطيع كذلك أن نستبعد الكثـير من الأسـباب النفسـية والاجتماعية التي كان لهـا دور كبـير في دعم الإخلاص وتوجيهـه لهذه الوجهة دون غيرها.

فمن تلك الأسباب التي يمكن اعتبارها نفسية أو اجتماعيـة ذلك القبول الذي يلقاه المحدثون ـ أو الذين يجمعون أكـبر قـدر من الروايات ـ بين الناس، مقارنة بغيرهم ممن يهتمون بـالعلوم الأخرى كعلم الكلام أو التصوف أو الفلسفة أو غيرها.

1() العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 83)
2() العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 80)
3() العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 81)
4() فوات الوفيات: 1: 42و38..
5() (ذيل طبقات الحنابلة) 2:403..

ولهذا نرى السلفية ـ قديما وحديثا ـ يرددون مقولة الإمام أحمد: (قولوا لأهل البدع، بيننا وبينكم يوم الجنائز)(1)

والتي علق عليها ابن كثير بقوله: (وقد صدق الله قول أحمد في هذا، فإنه كان إمام السنة في زمانه. وعيون مخالفيه أحمد بن أبي دواد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته، ولم يلتفت إليه. ولما مات، ماشيعه إلاّ قليل من أعوان السّلطان، وكذلك الحارث ابن أسد المحاسبي، مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصل عليه إلاّ ثلاثة أو أربعة من الناس، وكذلك بشر بن غياث المريسي، لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً.فللّه الأمر من قبل ومن بعد)(2)

ومما يمكن اعتباره من الأسباب ذلك القبول الذي يلقاه المحدثون لدى السلطات المحلية أو غير المحلية، فبقدر جمع المحدث لأكبر قدر من الروايات تكون شهرته، وبقدر شهرته تكون علاقته بالسلطة.

وللمحدثين في ذلك أسوة بالسابقين منهم ككعب الأحبار وأبي هريرة وغيرهم من الذين كانوا مقربين جدا من معاوية ومروان وغيرهما من الحكام.

وهكذا نرى ابن خزيمة يحدث عن مجلس لأمير من الأمراء حضره، قال يذكر ذكرياته عنه: (لما دخلت بخارى، ففي أول مجلس حضرتُ مجلس الأمير إسماعيل بن أحمد، في جماعةٍ من أهل العلم، فذُكِرَت بحضرته أحاديث، فقال الأمير: حدثناً أبي، قال: حدثنا يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: (أمتي أمة مرحومة...) الحديث، فقلت: أيَّد الله الأمير، ما حَدَّث بهذا الحديث أنس، ولا حميد، ولا يزيد بن هارون. فسكت، وقال: وكيف؟، قلت: هذا حديث أبي موسى الأشعري، ومداره عليه. فلما قمنا من المجلس قال لي أبو علي صالح بن محمد البغدادي: يا أبا بكر، جزاك الله خيرًا؛ فإنه قد ذكر لنا هذا الإسنادَ غير مرة، ولم يجسر واحدٌ منا أن يردَّه عليه)(3)

وخطورة هذه الرواية هي في سكوت المحدثين أمام الأمير وعدم إنكارهم عليه، وهو شيء شائع وكثير، ولذلك يعتبره المحدثون من أسباب الوضع في الحديث كما يروون عن مثل قصة غياث بن إبراهيم النَّخَعي الكوفي مع أمير المؤمنين المهدي، حين دخل عليه وهو يلعب بالحَمَام، فساق بسنده إلى

1() البداية والنهاية: 10 / 342.
2() البداية والنهاية: 10 / 342.
3() معرفة علوم الحديث (ص432).

النبي ﷺ أنه قال : (لا سَبَق إلا في نَصْل أو خُفٍ أو حافر أو جَنَاح)، فزاد كلمة [أو جَنَاح] لأجل المهدي، فعرف المهدي ذلك، فأمر بذبح الحَمَام، وقال : أنا حملته على ذلك(1).

وهذا يدل على أنه كان للمحدثين مكانة كبيرة عند الحكام، خاصة وأنهم جميعا متفقون على احترام السلطان، وعدم جواز انتقاده، ولهذا نرى الناس يستشفعون بالمحدثين لقضاء مصالحهم.. أما من يخالفهم فليس له من الجزاء إلا الشكاية به عند السلطان.

وقد رووا في ذلك عن أبي علي البلخي قوله: دخلت على أحمد ابن حنبل، فجاءه رسول الخليفة يسأله عن الاستعانة بأهل الأهواء ـ ويقصدون بهم كل المخالفين لهم ـ فقال أحمد: لا يستعان بهم، فقال: يستعان باليهود والنصارى ولا يستعان بهم، فقال: إن النصارى واليهود لا يدعون إلى أديانهم، وأصحاب الأهواء داعية(2).

وروى البيهقي في [مناقب أحمد] عن محمد بن أحمد بن منصور المروذي أنه استأذن على أحمد بن حنبل، فأذن له، فجاء أربعة رسل المتوكل يسألونه فقالوا: الجهمية يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها أولى أم اليهود والنصارى؟ ففقال أحمد:(أما الجهمية فلا يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها، وأما اليهود والنصارى فلا بأس أن يستعان بهم في بعض الأمور التي لا يسلطون فيها على المسلمين حتى لا يكونوا تحت أيديهم، قد استعان بهم السلف)، قال محمد بن أحمد المروذي: أيستعان باليهود والنصارى وهما مشركان، ولا يستعان بالجهمي ؟ قال : (يا بني يغتر بهم المسلمون وأولئك لا يغتر بهم المسلمون) (3)

وإرسال المتوكل كل هؤلاء الرسل إلى الإمام أحمد يدل على المكانة الكبيرة التي يحظى بها المحدثون، وهي التي رغبت المجتمع بعد ذلك في أن يمارس هذه المهنة، فهي مع كونها شاقة إلا أن أرباحها مضمونة.

وهكذا نجد من الوثائق والأدلة ما يدل على أن الملوك والأمراء كانوا يشجعون الرعية على هذا النوع من العلم، فقد روي عن محمد بن سهل بن عسكر قال: (تقدم رجلٌ غريبٌ بيده محبرةٌ إلى المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، صاحب

1() وربما يكون من هذا الباب الأحاديث الكثيرة التي يتداولها السلفية حول الدعوة للخضوع المطلق للسلطة السياسية، وتحريم المجاهرة بنقدها، أو الاعتراض عليها، لمخالفتها الصريحة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: 113].

2() الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 256)

3() نقلا عن الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 256)

حديث منقطع به، فقال: ما تحفظ في باب كذا وكذا؟ فلم يـذكر شـيئاً، فقـال: حـدثنا هشـيم، وحـدثنا يحـيى، وحـدثنا حجـاج بن محمد... حتى ذكر الباب، ثم سأله عن باب آخر فلم يـذكر شـيئاً، فقال: حدثنا فلانٌ، وحدثنا فلانٌ، ثم قال لأصحابه: يطلب أحـدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقـول: أنـا من أصـحاب الحـديث، أعطـوه ثلاثة دراهم)(1)

وممـا يمكن اعتبـاره من الأسـباب ذلـك الإقبـال الشعبي على المحدث، وخاصة بعد عودتـه من رحلتـه الطويلـة، حيث يجلس بين يديه مئات التلاميـذ أو آلافهم، لـيروي لهم كـان قد حصله في رحلته الطويلة.

وقـد ذكـر الحافـظ العـراقي (المتـوفى 806 هــ)، تلـك المجالس، فقـال في مقدمـة كتابـه (الأربعين العشـارية): (كـان اتصال هذه الشريعة المطهرة بالأسانيد مما خصَّ اللـه بـه هـذه الأمة بفضله، ولقد كانت مجـالس الحـديث غـامرةً بأهلـه، حـتى وُسِّـد الأمـرُ إلى غـير أهلـه، فـانقطعت مجـالس الإملاء لتقاعـد الهمم عنها، ورغبة الطالبين عن عقد ذلك وحله..)

وقد ورد في ترجمة أبي مـروان عبـدالملك بن زيـادة اللـه التميمي الطبْني (توفي في 457 هـ)، وكان من أهل (قُرطبــة)، أنه كانت له رحلتـان إلى المشـرق كتب فيهمـا عن جماعـة من أهــل العلم، ثم لَمَّا رجــع إلى قرطبــة أملى فــاجتمع إليــه في مجلس الإملاء خَلْقٌ كثير، فلما رأى كثرتهم أنشد:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة   يكتبن حدثني طورا وأخبرني

نادت بعقوتي الأقلام معلنة   هذي المفاخر لا قعبان من لبن

لكن المسكين قتل بعـد ذلـك في داره، ولسـنا نـدري هـل كان لتلك المحابر دور في ذلك أم لا (2).

وورد في ترجمــة أبي مســلم الكجي، البصــري، الحافــظ المسند (تـوفي 292 هــ) عن أحمـد بن جعفـر، قـال: لَمَّا قـدم علينا أبو مسلم الكجي أملى الحديث في رحبة (غسـان)، وكـان في مجلسه سبعة مستملين يبلغ كـل واحـدٍ منهم صـاحبه الـذي يليـه، وكتب النـاس عنـه قيامًـا بأيـديهم المحـابر، ثم مسـحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة فبلغ ذلـك نيَّفًـا وأربعين ألـف محبرة سوى النظارة، قال ابن سلم: وبلغني أن أبا مسلم كــان نذر أن يتصدَّق - إذا حـدَّث - بعشـرة آلاف درهم، قـال الـذهبي:

1() سير أعلام النبلاء: (10/276]..
2() الصلة، (1 / 115).

(هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب في تاريخه)(1)

وورد في ترجمة الحسن بن عيسى بن ماسرجس (توفي 240 هـ) وكان قبل إسلامه من رؤساء النصارى، أنه (رحل في طلب العلم ولقي المشايخ.. وعُدَّ في مجلسه بباب الطاق اثنا عشر ألف محبرة)(2)

ولسنا ندري ما الذي كان يميله هذا النصراني الذي أسلم، وهل كان يشبه ما كان يرويه كعب الأحبار ووهب بن المنبه أم كان يختلف عنهما؟

وهكذا نجد في ترجمة الفريابي، الذي تحدثنا عن كتابه القدر في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]، أنه كان في مجلسه من أصحاب المحابر من يكتب حدود عشرة آلاف إنسان، قال أبو أحمد بن عدي: (كنا نشهد مجلس جعفر الفريابي، وفيه عشرة آلاف أو أكثر، وكان الواحد يحتاج أن يبيت في المجلس؛ ليجد مع الغد موضعًا)(3)

ومما يمكن اعتباره من الأسباب ما عبر عنه الوزير ابن العميد بقوله: (ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوةً أَلَذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها؛ حتى شاهدتُ مذاكرةَ سليمان بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتها، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: (عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلا عندي!)، فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليفة، حدثنا سليمان بن أيوب...، وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنبأنا سليمان بن أيوب، ومني سمع أبو خليفة، فاسمع مني حتى يَعلُوَ إسنادُك؛ فإنك تروي عن أبي خليفة عني!)، فخجل الجعابي، وغلبه الطبراني، قال ابن العميد: (فوددت في مكاني أن الوزارة والرئاسة ليتها لم تكن لي، وكنت الطبراني، وفرحت مثل الفرح الذي فرح به الطبراني لأجل الحديث)(4)

ولأجل هذه الأسباب جميعا كان المحدثون يصابون بالاكتئاب والإحباط وغيرها من الأمراض النفسية بسبب ما يسبقه به غيرهم من الحديث، ومما يروى في ذلك عن شعبة قوله: (إني لأذاكر بالحديث يفوتني؛ فأمرض)(5)

وقال مظفر بن مدرك: (ذكروا لشعبة حديثًا لم يسمعه،

1() تاريخ بغداد، (6 / 121)، وتذكرة الحفاظ، (2 / 146).
2() تاريخ بغداد، (7 / 351)، وتهذيب التهذيب، (2 / 272).
3() سير أعلام النبلاء، (14 / 62)، والديباج المذهب، (1/ 322).
4() الجامع (2/274، 275)
5() شرف أصحاب الحديث، للخطيب (ص115)

فجعل يقول: واحزناه)[1]

وقال أحمد بن سلمة: (عُقِد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة، فذُكر له حديثٌ لم يعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وقال لمن في الدار: "لا يدخلن أحدٌ منكم هذا البيت"، فقيل له: أُهديت لنا سلةٌ فيها تمر. فقال: "قدِّموها إليَّ"، فقدَّموها إليه، فكان يطلب الحديث، ويأخذ تمرة تمرة، يمضغها، فأصبح وقد فَنِيَ التمر، ووجد الحديث). قال الحاكم: (زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مات)[2]

وكل تلك الأسباب النفسية أدت الى ظهور الوضع لأجل حشو أكبر قدر من الحديث، وعدم الظهور بمظهر الضعف أمام المنافس، يقول الحافظ صالح بن محمد الأسدي: (قال لي أبو زرعة الرازي ببغداد: أريد أن أجتمع مع سليمان الشاذكوني، فأناظره، فذهبت به إليه، فلما دخل عليه؛ قلت له: هذا أبو زرعة الرازي؛ أراد مذاكرتك. فتذاكرا حديث أستار الكعبة وما قطع منها، فكان الشاذكوني يضع الأسانيد في الوقت، ويذاكره بها، فتحيَّر أبو زرعة، وسكت، فلما قمنا من عنده قال لي أبو زرعة: اغتممتُ والله مما فعل هذا الشيخ!، فقلت له: هذه الأحاديث وَضَعَها الساعةَ، ولو ذاكرته بشيءٍ آخر لوضع مثلها)[3]

هذا ما يذكره السلفية عن سلفهم من المحدثين، ولم نزد على ما قالوا حرفا واحدا، وكل ما فعلناه هو مجرد وصف ونقل من الروايات التي يوردونها في كتبهم المعتبرة.

انطلاقا من هذا سنحاول هنا أن نبين آثار ذلك الاهتمام بالجمع والرواية والحشو على الأمة الإسلامية، ودينها الذي سلمته لهم.

وقد رأينا من خلال الاستقراء أن هناك انحرافين كبيرين نتجا عن ذلك الحشو، لا زلنا نعاني آثارهما إلى الآن، وهما: التصنيف المبتدع، والإغراب الكاذب.

وسنحاول هنا ــ باختصار ــ شرحهما، والبرهنة عليهما، وبينان آثارهما على الدين والدنيا.

أولا ـ التصنيف المبتدع:

من الآثار الخطيرة للحشو الذي قام به سلف السلفية، هو ذلك التصنيف المبتدع للقضايا الشرعية، وخاصة العقدية منها، وهو تصنيف حول العقيدة من مسارها القرآني الرباني التنزيهي العقلاني إلى مسار مختلف تماما.

فعندما نعود للقرآن الكريم في القضايا العقدية، نجده يكثر

1() المعرفة والتاريخ (2/284).

2() تاريخ بغداد (13/103)

3() تاريخ بغداد (9/46، 47)، وانظر لفظًا آخر في تاريخ دمشق، لابن عساكر (38/26)

من ذكر أسماء الله الحسنى، والـدعوة إلى التأمـل والاستبصـار في الأنفس والآفاق للتعرف على الله وعلى الوجود من خلالها.

بل إنه من خلال ذلك يدعو إلى قيام حضارة إنسانية راقيـة تسمو بالإنسان إلى الآفاق العليا، وتعيش فيهـا الإنسـانية أجـواء من التسامح والتعايش لم تظفر بها في تاريخها كله.

لكن كل هذا تبخر بسبب الحشـو الـذي مارسـه المحـدثون الـذين راحـوا ينافسـون برواياتهم القـرآن الكـريم، فاسـتبدلوا بأسماء الله الحسنى والتأمل فيها، ما سـموه بالصـفات، وهم لا يقصدون منها إلا الأعضـاء، واسـتبدلوا بالتسـامح والتعـايش بين أصحاب الملل والنحل، ما سموه كتب الردود، وهي كتب تفـرق الأمة، وتمزقها، وتثير الفتن بينها.

وسـنتحدث هنـا عن كلا النـوعين من التصـانيف، مـع ذكـر نماذج عن ذلك، لنرى كيف استطاع العقل السلفي بسبب هـذه الأداة [الحشـو] أن ينحـرف بالعقيـدة الـتي هي أصـل الـدين، ليحولهـا إلى عقيـدة وثنيـة، ويحـول الإيمـان من أداة للتواصـل والمحبة مع الإنسانية جميعا إلى أداة للتفرقة والتكفير والفتنة.

1 ـ كتب الصفات:

وهي من الكتب الـتي يثـني السـلفية على أئمتهم بسـبب تصنيفهم لها، بل يتصـورون أنـه لـولا كـثرة تصـانيفهم فيهـا لمـا بقيت العقيدة الإسلامية، لأن التنزيه القرآني عندها سيصـبح هـو المسـيطر، وبـذلك يـزول مـذهب السـلف، ويـزول معـه العقـل السلفي من الأمة.

وقد أشـار ابن تيميـة إلى اهتمـام السـلف بهـذا النـوع من التصنيف، وتقديمه على غيره، فقال: (إن سلف الأمة وأئمتها ما زالوا يتكلمون ويفتون ويحدثون العامة والخاصة بما في الكتـاب والسـنة من الصـفات، وهـذا في كتب التفسـير، والحـديث، والسنن أكثر من أن يحصيه إلا الله، حتى إنـه لمـا جمـع النـاس العلم، وبوبوه في الكتب، فصنف ابن جـريج التفسـير والسـنن، وصـنف معمـر أيضـا، وصـنف مالـك بن أنس، وصـنف حمـاد بن سـلمة، وهـؤلاء أقـدم من صـنف في العلم، فصـنف حمـاد بن سـلمة كتابـه في الصـفات، كمـا صـنف كتبـه في سـائر أبـواب العلم، وقد قيل: إن مالكـا إنمـا صـنف الموطـأ تبعـا لـه، وقـال: جمعت هـذا خوفـا من الجهميـة أن يضـلوا النـاس لمـا ابتـدعت الجهمية النفي والتعطيل، وكـذلك كـان يجمعهـا ويحث بهـا غـير واحد من أئمة السلف لما ابتدعت الجهمية النفي والتعطيل)[1]

وقال في موضع آخر: (وأيضاً فقـد جمـع العلمـاء من أهـل الحـديث والفقـه والكلام والتصـوف هـذه الآيـات والأحـاديث،

[1] التسعينية: 1/158-160.

وتكلموا في إثبات معانيها، وتقرير صفات الله التي دلت عليها هذه النصوص؛ لمَّا ابتدع الجهمية جحد ذلك والتكذيب له)(1)

وقد بدأت تلك التصانيف منذ القرون الأولى، وربما يمكن تقسيمها إلى نوعين:

النوع الأول: الكتب المصنفة في جميع الصفات

وهي الكتب التي تجمع ما ورد من الروايات حول ما يعتبرونه صفات الله تعالى، وهي كثيرة جدا، وقد ذكر ابن تيمية بعض أسمائها، داعيا إلى الاهتمام بها، فقال ـ بعد ذكره لما ورد في الصحاح والسنن من الأحاديث التي يسمونها أحاديث الصفات ـ : (فإن هذه مفردة لجميع أحاديث الصفات، وكذلك تضمن كتاب السنة من سنن ابن ماجة ما تضمنه، وكذلك تضمن صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، ومسند موسى بن أبي قرة الزبيدي، ومسند أبي داود الطيَّالسي، ومسند ابن وهب، ومسند أحمد بن منيع، ومسند مسدد، ومسند إسحاق بن راهوية، ومسند محمد بن أبي عمر العدني، ومسند أبي بكر بن أبي شيبة، ومسند بقي بن مخلد، ومسند الحميدي، ومسند الدارمي، ومسند عبيد بن حميد، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومسند الحسن بن سفيان، ومسند أبي بكر البزَّار، ومعجم البغوي، والطبراني، وصحيح أبي حاتم بن حبان، وصحيح الحاكم، وصحيح الإسماعيلي، والبرقاني، وأبي نعيم، والجوزقي، وغير ذلك من المصنفات الأمهات التي لا يحصيها إلاَّ الله)(2)

ولا بأس أن نورد هنا بعض الأمثلة عن الكتب التي تعتبر عمدة في العقيدة السلفية، والتي أثنى عليها ابن تيمية، كما أثنى عليها المتأخرون من السلفية، بل لا تزال إلى الآن تطبع وتحقق وتنشر على مستويات عالية، لنرى آثار الحشو على العقيدة الإسلامية التنزيهية التي جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا لتقريرها.

فمن الأمثلة على ذلك (كتاب السنة) لابن أبي عاصم، حيث نجد في هذا الكتاب الكثير من الأخبار المنكرة الغريبة، مثل خلق الله آدم على صورة وجهه، أو على صورة الرحمن، وأن الله تعالى تجلى للجبل منه مثل الخنصر، وأن العرش يئط به من ثقله، وأنه يقعد محمداً ﷺ معه على العرش، وأن المؤمنين يجالسون الله عز وجل في الجنة وغير ذلك.

وقد عقد بابا في هذا الكتاب يذكر فيه أن الله يمكن أن يسمى شخصا أورد فيه هذا الحديث: (لا شخص أغير من الله

---

(1) التسعينية: 1/167.

(2) التسعينية: 1/131-147.

تعالى، ولا شخص أحب إليه العذر من الله عز وجل، ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله تعالى، ومن أجل ذلك وعد الجنة)(1)

ومن تلك الكتب (كتاب السنة) المنسوب إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل .. فمما اشتمل عليه هذا الكتاب من التجسيم: وصفُه الله تعالى بالجلوس على العرش، وإثبات صدر له وذراعين، وإثبات الثقل والصورة التي صور عليها آدم، وأنه على كرسي من ذهب تحمله أربعة من الملائكة، وأنه واضع رجليه على الكرسي، وأن الكرسي قد عاد كالنعل في قدميه، وأنه إذا أراد أن يخوف أحداً من عباده أبدى عن بعضه، وأنه قرَّب داودَ عليه السلام حتى مس بعضه وأخذ بقدمه وغير ذلك مما سيكشف عنه البحث.

ومن أمثلة تلك الكتب (كتاب السنة) لأبي بكر الخلال، والذي قرر فيه قعود النبي ﷺ مع الباري سبحانه على الفضلة التي تفضل من العرش.. وفيه أن الله عز وجل ينادي: يا داود اُدن مني فلا يزال يدنيه حتى يمس بعضه ويقول: كن أمامي فيقول رب ذنبي ذنبي، فيقول الله له كن خلفي خذ بقدمي(2).

ومن أمثلة تلك الكتب (كتاب التوحيد) لأبي بكر بن خزيمة.. والذي عقد فيه بابا بعنوان إثبات الأصابع لله عز وجل، وبابا في إثبات القدم، ونحو ذلك.. ومنها ما جاء في أن الكرسي موضع قدميه، وأن العرش يئط به، وأنه تجلى منه مثل طرف الخنصر، وأنه يهبط ثم يرتفع، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فينتفض تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وأن جنة عدن مسكنه، وأن محمداً ﷺ رآه في روضة خضراء دونه فراش من ذهب يحمله أربعة من الملائكة، وغير ذلك.

ومن أمثلة تلك الكتب (إبطال التأويلات) لأبي يعلى الفراء، والذي شحنه بأوصاف كثيرة لله يعف اللسان عن قولها، من أمثال(3): (شاب، أمرد، أجعد، في حلة حمراء، عليه تاج، ونعلان من ذهب، وعلى وجهه فَرَاش من ذهب)

وهو ينص كل حين على أن من لم يؤمن بهذه الصفات العظيمة فهو (زنديق)، (معتزلي)، (جهمي)، (لا تقبل شهادته)، (لا يسلم عليه)، (لا يعاد)، ثم يقول:(وليس في قوله: شاب وأمرد وجعد وقطط وموفور إثبات تشبيه، لأننا نثبت ذلك تسمية كما جاء الخبر لا نعقل معناها، كما أثبتنا ذاتا

1() السنة لابن أبي عاصم (1/ 230)
2() السنة لأبي بكر بن الخلال (1/ 263)
3() إبطال التأويلات: 1/133.

ونفسا، ولأنه ليس في إثبات الفَرَاش والنعلين والتاج وأخضر أكثر من تقريب المحدث من القديم، وهذا غير ممتنع كما لم يمتنع وصفه بالجلوس على العرش..)(1)

وهو يرجع كثيرا إلى اليهود وتلاميذهم، فينقل عن كعب الأحبار أنه قال:(إن الله تعالى نظر إلى الأرض فقال: إني واطئ على بعضك، فانتسفت إليه الجبال فتضعضعت الصخرة فشكر الله لها ذلك فوضع عليها قدمه)(2)، ثم يعتبر هذا لإفك حقيقة عقدية، يدلل لها بالرواية التالية:(آخر وطأة وطئها رب العالمين بوَجّ)، ثم يذكر قول كعب الأحبار:(وَجّ مقدس، منه عَرَجَ الرب إلى السماء يوم قضى خلق الأرض)

ويعلق على هذه الترهات بقوله:(اعلم أنه غير ممتنع على أصولنا حمل هذا الخبر على ظاهره، وأن ذلك على معنى يليق بالذات دون الفعل)(3)

وينقل عنه هذه أنه قال لمن سأله أين ربنا:(هو على العرش العظيم متكئ واضع إحدى رجليه على الأخرى)، ثم يعلق عليها بقوله:(اعلم أن هذا الخبر يفيد أشياء: منها جواز إطلاق الاستلقاء عليه، لا على وجه الاستراحة بل على صفة لا نعقل معناها، وأن له رجلين كما له يدان، وأنه يضع إحداهما على الأخرى على صفة لا نعقلها)، ويدلل على هذا بهذه الرواية الموضوعة:(إن الله لما فرغ من خلقه استوى على عرشه واستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: إنها لا تصلح لبشر)(4)

هذه بعض النماذج عن التصنيف في الصفات، وهي توضح المنحدر السحيق الذي أوقع العقل السلفي فيه الأمة، ليخرجها من جمال التنزيه إلى وثنية التشبيه.

النوع الثاني: الكتب المصنفة في آحاد الصفات

وهي كثيرة جدا، ومن أمثلتها ما كتب حول إثبات الجهة والمكان لله تعالى، كالكتب المؤلفة حول العرش، مثل **(كتاب العرش وماروي فيه)** لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة .. وقد ذكر في هذا الكتاب أن أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل، بينهم وبين ربهم مسيرة خمسمائة عام، وأن السماء منفطرة من ثقل الله، وأن محمداً ﷺ رأى ربه في روضة خضراء وغير ذلك.

وهو مشحون بما يستدل به السلفية على التجسيم والتشبيه.. وقد قال محقق الكتاب في مقدمته تعظيما لشأنه:

1() إبطال التأويلات: 1/146.
2() إبطال التأويلات: 1/202.
3() إبطال التأويلات (ص: 379)
4() إبطال التأويلات (ص: 188)

(ولقد صنف كثير من السلف وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين مؤلفات ورسائل كثيرة في مسائل أسماء الله وصفاته، فبينوا فيها ما يجب على المسلم تجاه هذا الأمر العظيم، وقد اعتمدوا في تصانيفهم تلك على نصوص القرآن والسنة، وقد كان من ضمن تلك المؤلفات كتاب (العرش) للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وقد عالج المصنف- رحمه الله- في هذا الكتاب مسألة تعد من أهم مسائل الأسماء والصفات، بل ومن أهم مسائل العقيدة وأخطرها، ألا وهي: مسألة علو الله عز وجل على خلقه، واستوائه على عرشه)(1)

ومن أمثلتها (**كتاب إثبات الحد لله عز وجل وبأنه قاعد وجالس على عرشه**)، لأبي محمد محمود بن أبي القاسم بن بدران الآنمي الدشتي (المتوفى سنة661هـ)، والذي ذكر في مقدمة الكتاب دوافعه لتأليفه، فقال: (فإن سائلاً سألني، وقال: أحب أن تجمع ما جآء في إثبات الحد لله تعالى، ويعني بذالك حدٌ لا يعلمه إلا الله، وأما من زعم أن لله عز وجل حداً يعلمه غيره فهو ضالٌ مضل مبتدع، فأجبت إلى ذلك، وجمعت في كتابي هذا شيئاً يسيراً من مذهب علماء السلف وأئمتهم، وما روي وصح عنهم، وما احتجوا في ذالك من الكتاب والسنة، وما ذكروه في كتبهم وتصانيفهم، منهم: الإمام عبدالله بن المبارك، والإمام أبو عبدالله أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعثمان بن سعيد الدارمي، وأبو عبد الله ابن بطة، وأبو إسماعيل الأنصاري، وأبو القاسم بن منده، وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني، والقاضي أبو يعلى بن الفراء، والإمام أبو الحسن ابن الزاغوني، والحافظ أبو العلاء الهمذاني، رضي الله عنهم، وكل واحد منهم له تصانيف كثيرة، وإمام من أئمة الإسلام، وحافظ من الحفاظ، وعالم من العلماء، وفقيه من الفقهاء، وشيخ من المشايخ فكلهم من أصحاب الحديث، يعرفون تفسير القرآن العظيم، والأحاديث عن النبي ﷺ، وتأويلها، واحتجوا في إثبات الحد لله عز وجل بنص الكتاب والسنة، وما قالوا في ذلك بالمقاييس والآراء، ولا بأهواء أنفسهم، وإنما قالوا بدلائل وبراهين من الكتاب والسنة، ولا يكون على وجه الأرض أحدٌ أعلم بالكتاب والسنة من أصحاب الحديث، فمن يخالفهم ولا يقول ما قالوه، ولا يعتقد ما اعتقدوه؛ فهو مبتدع ضال مضل)(2)

ومن أمثلتها كتاب (**عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن**)، للشيخ حمود بن عبدالله بن حمود

1() العرش وما رُوِي فيه، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، (ص: 6)
2() إثبات الحد لله عز وجل، ص8.

التويجري، وهو من السلفية المعاصرين، وكتابه منتشر كثيرا، واعتنى به السلفية المعاصرون، بل قدم له شيخهم الكبير عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، وقال في تقديمه له: (اطلعت على ما كتبه صاحب الفضيلة الشيخ حمود بن عبدالله التويجري وفقه الله وبارك في أعماله فيما ورد من الأحاديث في خلق آدم على صورة الرحمن .. فألفيته كتاباً قيماً كثير الفائدة قد ذكر فيه الأحاديث الصحيحة الواردة في خلق آدم على صورة الرحمن، وفيما يتعلق بمجيء الرحمن يوم القيامة على صورته، وقد أجاد وأفاد، وأوضح ما هو الحق في هذه المسألة، وهو أن الضمير في الحديث الصحيح في خلق آدم على صورته يعود إلى الله عز وجل، وهو موافق لما جاء في حديث ابن عمر أن الله خلق آدم على صورة الرحمن، وقد صححه الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه والآجري وشيخ الإسلام ابن تيمية وآخرون من الأئمة رحمة الله عليهم جميعاً، وقد بين كثير من الأئمة خطأ الإمام ابن خزيمة رحمه الله في إنكار عود الضمير إلى الله سبحانه في حديث ابن عمر والصواب ما قاله الأئمة المذكورون وغيرهم في عود الضمير إلى الله عز وجل بلا كيف ولا تمثيل، بل صورة الله سبحانه تليق به وتناسبه كسائر صفاته ولا يشابهه فيها شيء من خلقه سبحانه وتعالى)(1)

وقد ذكر التويجري الدوافع لتأليفه، وهي دوافع لا تختلف كثيرا عن تلك الدوافع التي كان ينطلق منها الدارمي وابن خزيمة وابن تيمية، فقال: (ولا يزال القول بمذهب الجهمية مستمرا إلى زماننا. وقد رأيت ذلك في بعض مؤلفات المعاصرين وتعليقاتهم الخاطئة. وذكر لي عن بعض المنتسبين إلى العلم أنه ألقى ذلك على الطلبة في بعض المعاهد الكبار في مدينة الرياض. ولما ذكر له بعض الطلبة قول أهل السنة أعرض عنه وأصر على قول الجهمية. عافانا الله وسائر المسلمين مما ابتلاه به)(2)

وهو يقصد بالجهمة هنا كل منزهة الأمة، لأنهم جميعا، حتى مع تصحيح الحديث لا يقولون بمقتضاه الظاهر، بل يؤولونه بمختلف صنوف التأويلات.

وغيرها كثير .. وقد أشرنا إلى بعضها في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]

2 ـ كتب الردود:

وهي كثيرة جدا في القديم والحديث، ولا يمكن حصرها، ونجدها في العادة مشحونة بالألفاظ النابية، والأحكام القاسية

---

(1) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن (مقدمة/ 7)

(2) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن (1/ 6)

الشديدة، والتي أورثت ما نراه من تفرقة في الأمة وفتن بينها، بالإضافة إلى ما ملأت به قلب السلفي من أحقاد وغلظة، فلا نكاد نجد سلفيا مسالما، حتى لو تكلف كتم ذلك لسبب من الأسباب، فإن عرق الأحقاد الذي أمده به سلفه، سينفجر فيه حالما تتاح له الفرصة.

وكيف لا يكون كذلك، وهو يعتبر السلام مع الآخر ضلالا وبدعة، فمن أمهات عقائده الولاء والبراء، وهو يعني وجوب البراءة التامة من الآخر .. والآخر عنده هو غير السلفي.

حتى أنهم لا يكتفون بذكر أحكامهم القاسية بتكفير الأمة، بل يلزمونها فوق ذلك بأن تكفر من كفروا، فالساكت ـ عندهم ـ عن تكفير الكافر كافر.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من أبي حنيفة، فمع كونه إمام مذهب مشهور من المذاهب السنية، وله مئات الملايين من الأتباع إلا أن ذلك لم يشفع له عند هؤلاء، لسبب بسيط، وهو أنه يقول بخلق القرآن، أو يقول بأن صوتنا الذي نخرجه عندما نقرأ حروف القرآن الكريم صوت بشري وحادث، وليس قديما، فقد ساق عبد الله بن أحمد في كتابه (السنة) مجموعة كبيرة من الاتهامات والشتائم التي وجهها سلف السلفية لأبي حنيفة من أمثال: (كافر، زنديق، مات جهمياً، ينقض الإسلام عروة عروة، ما ولد في الإسلام أشأم ولا أضر على الأمة منه، وأنه أبو الخطايا، وأنه يكيد الدين، وأن الخمارين خير من أتباع أبي حنيفة، وأن الحنفية أشد على المسلمين من اللصوص، وأن أصحاب أبي حنيفة مثل الذين يكشفون عوراتهم في المساجد، وأن أباحنيفة سيكبه الله في النار، وأنه أبو جيفة، وأن المسلم يؤجر على بغض أبي حنيفة وأصحابه، وأنه لا يسكن البلد الذي يذكر فيه أبو حنيفة، وأن استقضاء الحنفية على بلد أشد على الأمة من ظهور الدجال، وأنه من المرجئة، ويرى السيف على الأمة، وأنه أول من قال القرآن مخلوق، وأنه ضيع الأصول، ولو كان خطؤه موزعاً على الأمة لوسعهم خطأً، وأنه يترك الحديث إلى الرأي، وأنه يجب اعتزاله كالأجرب المعدي بجربه، وأنه ترك الدين، وأن أبا حنيفة وأصحابه شر الطوائف جميعاً، وأنه لم يؤت الرفق في دينه، وأنه ما أصاب قط، وأنه استتيب من الكفر مرتين أو ثلاثاً، واستتيب من كلام الزنادقة مراراً، وأن بعض فتاواه تشبه فتاوى اليهود، وأنه ما ولد أضر على الإسلام من أبي حنيفة، وأن الله ضرب على قبر أبي حنيفة طاقاً من النار، وأن بعض العلماء حمدوا الله عندما سمعوا بوفاة أبي حنيفة، وأنه من الداء العضال، وأن كثيراً من العلماء على جواز

لعن أبي حنيفة، وأنه كان أجرأ الناس على دين الله)(1)

وعلى هذا سار خلفهم الـذين لم يـدعوا أحـدا إلا وكفـروه، وطالبوا بتكفيره، ومن لم يكفره، فهـو كـافر، ومن الأمثلـة على ذلك ما كتبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسـالة إلى بعض أتباعه يقول فيهـا: (إذا عـرفتم ذلـك، فهـؤلاء الطـواغيت الـذين يعتقـد النـاس فيهم، من أهـل الخـرج وغـيرهم مشـهورون عنـد لخاص والعام بذلك، وأنهم يترشحون لـه، ويـأمرون بـه النـاس، كلهم كفار مرتدون عن الإسلام؛ ومن جادل عنهم، أو أنكـر على من كفرهم، أو زعم أن فعلهم هذا، لـو كـان بـاطلا فلا يخـرجهم إلى الكفر، فأقل أحوال هذا المجادل، أنه فاسـق لا يقبـل خطـه ولا شـهادته، ولا يصـلى خلفـه، بـل لا يصـح دين الإسـلام، إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم)(2)

وهكذا كتب لمن يشكك في تكفير بعض من كفـرهم، فقـد كتب لهم يقول: (ما ذكرتم من قول الشـيخ: كـل من جحـد كـذا وكذا، وقامت عليه الحجة، وأنكم شـاكون في هـؤلاء الطـواغيت وأتبـاعهم، هـل قـامت عليهم الحجـة؟ فهـذا من العجب، كيـف تشكون في هذا وقـد أوضـحته لكم مـرارا؟! فـإن الـذي لم تقم عليه الحجة، هو الذي حديث عهـد بالإسـلام، والـذي نشـأ ببادية بعيدة، أو يكون ذلك في مسألة خفية، مثـل الصـرف والعطـف، فلا يكفـر حـتى يعـرف، وأمـا أصـول الـدين الـتي أوضـحها اللـه وأحكمها في كتابه، فإن حجة الله هو القرآن، فمن بلغه القـرآن فقـد بلغتـه الحجـة؛ ولكن أصـل الإشـكال، أنكم لم تفرقـوا بين قيام الحجة، وبين فهم الحجة، فإن أكثر الكفـار والمنـافقين من المسلمين، لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم)(3)

انطلاقا من هذا، فسنشير هنـا إلى نمـاذج من كتب الـردود التي ألفها سلف السلفية، والتي كانت سـببا في تلـك الأمـراض النفسية التي يصاب بها عقل كل سلفي.

ومن تلك الكتب ما ألفه الدرامي، ومنها كتابـان اهتم بهمـا ابن تيمية كثيرا، وكان ينقل عنهمـا، ويشـير إليهمـا، وهمـا كتـاب (الـرد على الجهميـة) وكتـاب (نقض عثمـان بن سـعيد على المريسي العنيد).. وقد قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية يخـبر عن اهتمام ابن تيمية بهمـا: (وكتابـاه من أجـل الكتب المصـنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقـوف على مـا كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه. وكـان شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية

1() انظر السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد من ص 180 -ص120.
2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (10/ 52)
3() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (10/ 93)

ويعظمهما جداً. وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما)[1]

مـع العم أن هـذين الكتـابين من أهم كتب التجسـيم.. بالإضافة إلى ذلك، فقد عقد فيه باباً في تكفير الجهمية، وباباً في قتلهم واستتابتهم من الكفر.. مع العلم أن الجهمية مصطلح تشنيع لا يراد به الفرقة المنسوبة إلى الجهم بن صفوان فقط، لأن الجهم مات، وماتت معه أفكاره إلا أن الدارمي ومن تابعه يعنون بالجهمية من خالفهم في صفات الله عز وجل فيدخل في هذا الوصف المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والشيعة والصوفية والإباضية.. بل كل الأمة.

ومنهجه في الكتابين أنه بعد أن يذكر كل تلك التجسيمات لله يطالب بقتل كل من ينكرها باعتباره جهميا، فقد عقد فصلا مطولا لذلك حرض على قتلهم بكل صنوف القتل.. ومما جاء فيه قوله: (ولو لم يكن عندنا حجة في قتلهم وإكفارهم إلا قول حماد بن زيد، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، ووكيع، ويزيد بن هارون، وأبي توبة، ويحيى بن يحيى، وأحمد بن حنبل، ونظرائهم، رحمة الله عليهم أجمعين، لجبنا عن قتلهم وإكفارهم بقول هؤلاء، حتى نستبرئ ذلك عمن هو أعلم منه وأقدم، ولكنا نكفرهم بما تأولنا فيهم من كتاب الله عز وجل، وروينا فيهم من السنة، وبما حكينا عنهم من الكفر الواضح المشهور، الذي يعقله أكثر العوام، وبما ضاهوا مشركي الأمم قبلهم بقولهم في القرآن، فضلا على ما ردوا على الله ورسوله من تعطيل صفاته، وإنكار وحدانيته، ومعرفة مكانه، واستوائه على عرشه بتأويل ضلال، به هتك الله سترهم، وأبد سوءتهم، وعبر عن ضمائرهم، كلما أرادوا به احتجاجا ازدادت مذاهبهم اعوجاجا، وازداد أهل السنة بمخالفتهم ابتهاجا، ولما يخفون من خفايا زندقتهم استخراجا)[2]

وعلى هذا المنهج نجد متأخرو السلفية والمعاصرون لنا منهم لم يتركوا أحدا من المسلمين إلا وكتبوا عشرات الردود عليه، بالإضافة إلى التشهير به وسبه وتكفيره والتحريض عليه.

فمن منشوراتهم ومؤلفاتهم في الرد على شخص واحد مثل سيد قطب، نجد: الحد الفاصل بين الحق والباطل: حوار في عقيدة سيد قطب وفكره، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، والعواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم، ومطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ، والتوضيح لما في خطاب محمد قطب عن كتب أخيه، وتأكيد ما

1() اجتماع الجيوش 143

2() الرد على الجهمية للدارمي (ص: 213)

ورد في مقال أطوار سيد قطب في وحدة الوجود ودفع شبه المعترضين، ومن أصول سيد قطب الباطلة المخالفة لأصول السلف، والانْتِصار لِكِتَابِ العَزِيز الْجبَّار ولأصحابِ مُحَمَّد ﷺ الأَخْيار رضي الله عنهم على أعدائهم الأشرار، وقول سيد قطب بعقيدة وحدة الوجود والحلول والجبر ودفاعه عن عقيدة النيرفانا الهندوكية البوذية، ونظرة سيد قطب إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وكتب سيد قطب لا شر منها ولا اخطر منها حملت كل البدع.

ومثله نجد ما كتب حول الشيخ حسن بن فرحان المالكي، حيث كتبوا في الرد عليه: (الانتصار للصحابةِ الأخيار في ردِّ أباطيل حسن المالكي) للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر .. ومنها (الرد السديد على مطاعن حسن المالكي على أئمة الدعوة ومقررات التوحيد) للشيخ إبراهيم بن عامر الرحيلي.. ومنها (دحر افتراءات أهل الزيغ والارتياب عن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب) للشيخ ربيع المدخلي .. وغيرها كثير.

وهكذا نجد عالما مثل الشيخ محمد ناصر الدين الألباني يكتب الكثير من الكتب حول معاصريه وغيرهم، ومن أمثلة ذلك كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي)، و(الرد على أرشد السلفي)، و(الرد على التعقيب الحثيث)، و(الرد على رسالة الشيخ التويجري في بحوث من صفة الصلاة)، و(الرد على السخاف فيما سوَّده على دفع شُبه التشبيه)، و(الرد على الشيخ إسماعيل الأنصاري في مسألة الذهب المحلّق)، و(الرد على عز الدين بيلق في منهاجه)، و(الرد على كتاب: تحرير المرأة في عصر الرسالة)، و(الرد على كتاب: ظاهرة الإرجاء)، و(الرد على كتاب المراجعات)، و(الرد على هدية البديع في مسألة القبض بعد الركوع)، و(الرد المفحم على من خالف العلماء)، و(كشف النقاب عما في كلمات أبي غدة من الأباطيل والافتراءات)، و(النصيحة بالتحذير من تخريب ابن عبد المنان)

وهكذا نجد الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الذي حول هو الآخر كل ما آتاه الله من مداد سهاما وجهها لحرب من يسميهم أعداء السلف.. فقد كتب (الطليعة في الرد على غلاة الشيعة)، و(رياض الجنة في الرد على أعداء السنة)، و(إرشاد ذوي الفطن لإبعاد غلاة الروافض من اليمن)، و(الإلحاد الخميني في أرض الحرمين)، و(ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر)، و(المصارعة)، و(قمع المعاند وزجر الحاقد الحاسد)، و(غارة الأشرطة على أهل الجهل والفسفطة)، و(تحفة الشباب

الرباني في الرد على الإمام محمد بن علي الشوكاني)، و(غارة الفصل على المعتدين على كتب العلل)، و(إعلان النكير على أصحاب عيد الغدير)، و(إقامة البرهان على ضلال عبد الرحيم الطحان)، و(فضائح ونصائح)، و(البركان لنسف جامعة الإيمان)، و(إسكات الكلب العاوي يوسف بن عبد الله القرضاوي)، و(صعقة الزلزال لنسف أباطيل أهل الرفض والاعتزال)

أما ما كتب عن الأشاعرة والصوفية والشيعة والإباضية، فلا يمكن عده ولا حصره، وهكذا، فإننا لا يمكن أن نجد سلفيا إلا وهو مشحون بتلك الأحقاد التي تمليها على قلبه أمثال تلك الكتب.

ثانيا ـ الإغراب الكاذب:

وهو من الأسس التي يقوم عليها العقل السلفي، فهو لا يحب أن يتناول الأمور ببساطة، ويسلم لها بيسر، بل هو يحاول أن يعقدها، ويبحث عن تفاصيلها الحسية، لأنه يتصور أنها كلما كانت التفاصيل أكثر، كان العلم أعظم.

والسلفية في ذلك يهتدون بهدي سلفهم من اليهود، والذين حكى الله تعالى موقفهم من البقرة التي أمروا بذبحها، وكان في إمكانهم أن يذبحوا أي بقرة، لكنهم ظلوا يتساءلون عن لوبها وسنها وعملها وغير ذلك.. حتى أنهم لم يسلموا لموسى عليه السلام في شأنها إلا بعد أن ذكر لهم كل تلك التفاصيل، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]

وهكذا نجد العقل السلفي يبحث عن أدق التفاصيل المرتبطة بذات الله وملائكته ويتساءل عن العرش ومكوناته وحجمه .. وقد كانت هذه التساؤلات سببا في وفور سوق الكذابين من اليهود وغيرهم، خاصة مع سهولة تقبل العقل السلفي لأي شيء.

وسنسوق هنا من باب المثال ما كتبه بعض أعلام سلفهم حول الملائكة عليهم السلام، لنرى الفرق بين الصورة الجميلة للملائكة عليهم السلام كما ذكرهم القرآن الكريم، وكما طولبنا بالإيمان بهم، وبين الصورة التي صورها بهم السلفية.

وهذا العلم السلفي المشهور، والذي نجده مصدرا أساسيا في العقائد السلفية هو أبو الشيخ صاحب كتاب العظمة، والذي قال فيه تلميذه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: (كان أحد الأعلام، صنف الأحكام والتفسير، وكان يفيد عن الشيوخ، ويصنف لهم ستين سنة، قال: وكان ثقة)[1]، وقال فيه أبو بكر الخطيب: (كان أبو الشيخ حافظا، ثبتا، متقنا)، وقال فيه أبو موسى

[1] سير أعلام النبلاء(16 / 279)

المديني: (مع ما ذكر من عبادته كان يكتب كل يوم دستجة كاغد؛ لأنه كان يورق ويصنف، وعرض كتابه (ثواب الاعمال)على الطبراني، فاستحسنه، ويروى عنه أنه قال: ما عملت فيه حديثا إلا بعد أن استعملته)[1].

وهكذا ترجم له الذهبي في السير، وقال عنه:(الإمام الحافظ الصادق، محدث أصبهان، أبو محمد، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، المعروف بأبي الشيخ، صاحب التصانيف)[2]

ثم نقل كلام أهل العلم في الثناء عليه فقال: (قال ابن مردويه: ثقة مأمون، صنف التفسير والكتب الكثيرة في الأحكام وغير ذلك)، وقال عنه الصفدي: (كان حافظاً عارفاً بالرجال والأبواب، صنف تاريخ بلده، والتأريخ على السنين، وكتاب السنّة، وكتاب العظمة، وكتاب ثواب الأعمال، وكتاب السنن)[3]

وقد خصص كتابه هذا للروايات المرتبطة بعظمة الله تعالى، وقد رتب أبوابه عن المخلوقات ترتيبا من الأعلى إلى الأدنى، فبدأ بأعلى المخلوقات وأعظمها وهو العرش، وختم بأصغر المخلوقات وهي الجراد.. وذكر بينهما حجب ربنا سبحانه وتعالى، وخلق الملائكة، وجبريل، وميكائيل وإسرافيل، وحملة العرش، وصفة السموات، وذكر الجنات وصفتها، والشمس والقمر، والنجوم، والسحاب وصفته، و المطر ونزوله، وصفة الرعد، والبرق، والمجرة، والرياح، وابتداء الخلق، وصفة الأرضين، وصفة البحر والحوت وعظم خلقهما، وعجائبهما، وصفة النيل ومنتهاه، وقصة ذي القرنين، وذكر جبل قاف، وذكر إرم ذات العماد، وكرسي سليمان عليه السلام وقصة نمرود وأصحاب موسى، وقصة عوج بن عنق، والعمالقة وصفة إلياس عليه السلام، وذكر المائدة وصفتها، وخلق آدم وحواء، ولطيف صنع الله وحكمته، وذكر الجن وخلقهم، وذكر تسبيح الخلائق، وخلق الفرس، وذكرخلق الجراد.

والكتاب مليء بالغرائب التي استقى منها العقل السلفي تصوراته عن الكون من مبتدئه إلى منتهاه، وتشكل آثار اليهود وتلاميذهم فيه حجما ممتازا مقارنة بحجمة، فعدد الروايات التي رواها فيه عن وهب بن منبه وليست مسندة إلى الصحابة ولامرفوعة إلى النبي ﷺ سبعة وسبعون أثراً .. وبلغت روايات كعب الأحبار سبعا وعشرين رواية .. وبعض هذه الروايات أكثر من صفحتين.. أي أن كل رواية منها تساوي عشرات الروايات.

بعد هذا التعريف بالكاتب والكتاب، نسوق ــ باختصار ـ

[1] () سير أعلام النبلاء(16/278)

[2] () سير أعلام النبلاء (16/ 276)

[3] () الوافي بالوفيات 5/473.

بعض الروايات التي أوردها في الأبواب التي خصصها للملائكة عليهم السلام، لنرى الصورة الجديدة للملائكة عند السلفية بدل الصورة القرآنية.

فمن الروايات التي أوردها في باب [ذكر خلق الملائكة وكثرة عددهم] ما رواه بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (أتاني ملك برسالة من الله عز وجل، ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء، ورجله الأخرى ثابتة في الأرض لم يرفعها)[1]

وهذا خلاف ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر: 1]

ومن الروايات الخطيرة التي رواها في هذا الباب ما رواه عن عبد الله بن عمرو، قال: (خلق الله عز وجل الملائكة من نور الصدر والذراعين)[2].. وهذه الرواية الخطيرة ــ بالإضافة لما تحمله من تجسيم ـ تصور الملائكة باعتبارهم جزءا من الله، أو من نور الله، وهم بذلك يقعون فيما ذكره الله تعالى عن المشركين حين قال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 15]

ويروي عن عبد الله بن عمرو الكيفية التي خلقت بها الملائكة، فيقول ـ بلغة تجسيمية وثنية ـ : (خلق الله عز وجل الملائكة من نور، وينفخ في ذلك، ثم يقول: ليكن منكم ألف ألفين، فإن من الملائكة خلقا أصغر من الذباب)[3]

بل يروي في ذلك عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (إن في الجنة لنهرا ما يدخله جبريل عليه السلام من دخلة فيخرج فينتفض إلا خلق الله عز وجل من كل قطرة تقطر منه ملكا)[4]

ويروي تفاصيل أكثر عن وهب بن منبه، يقول فيها: (إن لله تبارك وتعالى نهرا في الهواء سعة الأرضين كلها سبع مرات، ينزل على ذلك النهر ملك من السماء فيملؤه ويسد ما بين أطرافه، ثم يغتسل منه، فإذا خرج قطرت منه قطرات من نور، فيخلق من كل قطرة منها ملك يسبح الله عز وجل بجميع تسبيح الخلائق كلهم)[5]

ويروي عن الضحاك قوله: (إن لله تبارك وتعالى ملكا إذا جهر بصوته صمتت الملائكة كلها تعظيما لذلك الملك، لا يذكرون إلا في أنفسهم، لأنهم لا يفترون عن التسبيح)، قيل له:

---

[1] () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/729)

[2] () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/733)

[3] () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/734)

[4] () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/735)

[5] () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/736)

وما ذلك الملك؟، قال: (ملك له ستون وثلاثمائة رأس، في كل رأس ستون وثلاثمائة لسان، لكل لسان ستون وثلاثمائة لغة)(1)

ويروي عن الأوزاعي قوله: (قال موسى عليه السلام: يا رب، من معك في السماء؟ قال: ملائكتي، قال: وكم هم يا رب؟ قال: اثنا عشر سبطا، قال: وكم عدد كل سبط؟ قال: عدد التراب)(2)

ويروي عن كعب، قال: (ما من شجرة ولا موضع إبرة إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله تبارك، وإن ملائكة السماء أكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى منكبه مسيرة خمسمائة عام)(3)

ويروي عن عبد الله بن الحارث، قال: (ما من شجرة رطبة ولا يابسة إلا موكل بها ملك، يأتي الله عز وجل بعلمها ورطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست كل يوم)، قال الأعمش : وهذا في الكتاب: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59])(4)

ولست أدري كيف عرف الأعمش أن هذا في كتاب الله مع أن الله تعالى ذكر في الآية أن كل شيء مكتوب عنده، أما علم الله بالأشياء، فلا يحتاج إلى ملك ولا إلى غيره. لكن الرؤية السلفية ـ كما ذكرنا في [السلفية والوثنية المقدسة] ـ تصور الله محتاجا لأن تأتيه الملائكة كل حين بالأخبار، ليطلع عليها ويقضي وقتا طويلا في الاطلاع عليها.

ويروي عن كعب في كيفية خلق الملائكة، وسر كثرتهم، فيقول: (لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكا يطير من خشية الله عز وجل) قال صفوان: وزاد فيه غيره: (وذلك أنها نطفة خشية، وليست نطفة شهوة، فمن هنالك كثرة الملائكة)(5)

ويروي عن العلاء بن هارون قوله: (لجبريل عليه السلام في كل يوم اغتماسة في الكوثر، ثم ينتفض، فكل قطرة يخلق منها ملك)(6)

ويروي عن شهر بن حوشب قوله: (إن لله تبارك وتعالى ملكا يقال له: صدلقن إن بحور الدنيا تسع في نقرة إبهامه)(7)

ويروي عن مالك قوله: (بلغنا أن في بعض السموات ملائكة، كلما سبح بينهم ملك وقع من تسبيحه ملك قائم يسبح،

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/740)

2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/741)

3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/742)

4() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/743)

5() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/745)

6() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/746)

7() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/746)

قال: وفي بعض السماوات ملك له من العيون عدد الحصى والثرى، وعدد نجوم السماء، ما فيها عين إلا وتحتها لسان وشفتان، يحمد الله عز وجل بلغة لا يفقهها صاحبها، قال: وإن حملة العرش لهم قرون، بين أطراف قرونهم ورؤوسهم مقدار خمسمائة سنة، والعرش فوق القرون) (1)

ويروي عن نوف البكالي قوله: (إذا مضى ثلث الليل بعث الله تبارك وتعالى أربعة أفواج من الملائكة، فأخذ فوج منهم بشرقي السماء، وفوج منهم بغربي السماء، وفوج حيث تجيء الجنوب، وفوج منهم حيث تجيء الشمال، فقال هؤلاء: سبحان الله، وقال هؤلاء: الحمد لله، وقال هؤلاء: لا إله إلا الله، وقال هؤلاء: الله أكبر، حتى تصرخ الديوك من السحر)(2)

ويروي عن كعب الأحبار قوله: (إن لله عز وجل ملكا، يصوغ حلي أهل الجنة من يوم خلق إلى أن تقوم الساعة، لو أن حليا أخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس)(3)

ويروي عن وهب خبرا طويلا يشكل وحده متنا من المتون التي يتشكل منها العقل السلفي، قال فيه: (ثم إن الله عز وجل أراد أن يخلق حملة العرش، فقال: كن، فكون من الملائكة بعدد القطر، والمطر، والشجر، والورق، وكل رطب، ويابس .. ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، ثم قال: كن، فأمدهم بصف ثان أمثالهم سبعة أضعاف في الشدة والقوة، والنجدة، والشجاعة، والغلظة، والعظمة، ملائكة متراصة أقدامهم، مصطكة مناكبهم، متلازقة أقدامهم، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، ثم قال لهم: كن، فأمدهم بصف أمثالهم، سبعة متلازقة أكتافهم، أنصافهم الأعلى من النار، وأنصافهم الأسفل من الثلج، فلا ذلك النار يذيب الثلج بحره، ولا ذلك الثلج يطفئ النار ببرده، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، ثم قال: كن، فأمدهم بصف رابع أمثالهم، سبعة أضعاف، ملائكة أنصافهم من البرق الخاطف، وأنصافهم من الرعد القاصف، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، فأمدهم بصف خامس: ملائكة أنصافهم من الريح العاصف، وأنصافهم من السحاب العاكف، فلا ذلك العاصف يزيل ذلك العاكف، ولا ذلك العاكف يزيل ذلك العاصف، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، ثم أمدهم بصف سادس أمثالهم، أنصافهم من الظلمة، وأنصافهم من النور، فلا ذلك النور يذهب سواد الظلمة، ولا تلك الظلمة

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/747)
2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/748)
3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/751)

تذهب بذلك النور، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، ثم قال: كن، فأمدهم بصف سابع أمثالهم، ملائكة أنصافهم من الدر، وأنصافهم من الزمرد، فلا ذلك الدر يذهب شعاع ذلك الزمرد الأخضر، ولا ذلك الزمرد يزيل شعاع ذلك الدر، ثم قال لهم: أقلوا العرش، فما قدروا على إقلاله، فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، وعلوي على خلقي وعظمتي، لو أمددتكم بأمثالكم، وأضعافكم أبد الآبدين، ودهر الداهرين ما قدرتم على إقلاله إلا بي، فقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالوها: فاستقل العرش على رءوسهم، فعظم عليهم، ومدت أرجلهم تهوي، فأمر الله عز وجل الملك أن يكتب اسمه الأعظم تحت أرجلهم، فاستقل العرش على رءوسهم، فالله تبارك وتعالى حامل عرشه، لا من حاجة إليهم، ولكن استعبدهم، فإذا أماتهم حمل الله عز وجل عرشه كما كان بديا)[1]

ويروي عن مكحول عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن في حملة العرش أربعة أملاك: ملك على صورة سيد الصور وهو ابن آدم، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور، قال: فما زال غضبان مذ يوم العجل إلى ساعتي هذه، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر)[2]

ومن الروايات التي أوردها في باب سماه [ذكر الملائكة الموكلين في السموات والأرضين] هذه الرواية الخطيرة التي رواها عن شريح بن عبيد، قال: لما صعد النبي ﷺ إلى السماء فأوحى الله عز وجل إلى عبده ما أوحى، قال: (فلما أحس جبريل بدنو الرب تبارك وتعالى خر ساجدا، فلم يزل يسبحه: سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة، ثم قضى الله عز وجل إلى عبده ما قضى، ثم رفع رأسه فرأيته في خلقه الذي خلق عليه، منظوم أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت، فخيل إلي أن ما بين عينيه قد سد الأفق، وكنت لا أراه قبل ذلك إلا على صور مختلفة، وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي، وكنت أحيانا لا أراه قبل ذلك إلا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال)[3]

ومن الروايات التي أوردها في باب سماه [ذكر ميكائيل عليه السلام، والطيران، وعظم خلقه وما وكل به] هذه الرواية التجسيمية الخطيرة التي رفعها إلى رسول الله ﷺ: (جبريل

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/755)، اختصرت بعض الخبر.

2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/756)

3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/780)

عن يمينه، وميكائيل عن الأخرى)(1)

وروى عن عبد الرحمن بن سابط قال: (يدبر الدنيا والأمر أربعة أملاك: فجبريل على الريح والجنود، وميكائيل على القطر والنبات، وملك الموت على الأنفس، وكل هؤلاء ترفع إلى إسرافيل)(2)

وروى عن خالد بن أبي عمران، أنه قال: (جبريل أمين الله إلى رسله، وميكائيل يتلقى الكتب التي ترفع من أعمال الناس، وإسرافيل بمنزلة الحاجب)(3)

وروى عن عكرمة بن خالد هذه الرواية الخطيرة، وهي أن رجلا قال: يا رسول الله، أي الخلق أكرم على الله؟ قال: (لا أدري).فجاءه جبريل فقال: (يا جبريل، أي الخلق أكرم على الله؟) قال: لا أدري. فعرج جبريل ثم هبط فقال: (أكرم الخلق على الله جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت عليهم السلام، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة تنبت وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض كل روح عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم) (4)

وروى هذه الرواية التجسيمية الخطيرة يرفعها إلى رسول الله ﷺ: (أقرب الخلق إلى الله عز وجل جبريل، وميكائيل، وإسرافيل وهم منه مسيرة خمسين ألف سنة، جبريل عن يمينه وميكائيل عن الأخرى وإسرافيل بينهما)(5)

ومن الروايات التجسيمية الخطيرة التي أوردها في باب سماه [صفة إسرافيل عليه السلام، وما وكل به] ما رواه عن عائشة أن كعبا قال لها: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في إسرافيل شيئا؟ قالت: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (له أربعة أجنحة، منها جناحان أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، واللوح بين عينيه، فإذا أراد الله عز وجل أن يكتب الوحي ينقر بين جبهته)(6)

وروى عن وهب بن منبه حديثه الطويل في كيفية خلق الكائنات المختلفة، قال: (.. ثم قال: كن فيكون، فكون الصور وهو من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة وله أربع شعب: شعبة تحت العرش، وشعبة في ثراء الثراء، وشعبة في مشرق المشرق، وشعبة في مغرب المغرب، ثم قال للعرش: خذ

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/809)
2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/810)
3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/810)
4() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/811)
5() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/812)
6() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/820)

الصور، فتعلق بالعرش، ثم قال: كن، فكون إسرافيل وهو من أقرب الملائكة إلى الله تبارك وتعالى، فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وفيه ثقب بعدد كل روح مبدوة، وكل نفس منفوسة، لا يخرج روحان من ثقب واحد، ولا جسمان يدخلان في ثقب، بل كل ثقب لصغير الصغير الذي لا يعرف، ولخليل الخليل الذي لا يوصف وفي وسط الصور كوة كاستدارة السماء والأرض، وإسرافيل واضع فمه على تلك الكوة، ثم قال له الرب عز وجل: قد وكلتك بالصور فأنت للنفخة والصيحة، فدخل إسرافيل في مقدم العرش فأدخل رجله اليمنى تحت العرش، وقدم اليسرى ولم يطرف مذ خلقه الله عز وجل ينتظر ما يؤمر به [ص:842] والعرش على كاهله، واللوح يقرع جبهته)(1)

ويروى وهيب بن الورد قال: (بلغني أن أقرب الخلق من الله عز وجل إسرافيل العرش على كاهله.. فإذا نزل الوحي دلي لوح من تحت العرش، قال: فيقرع جبهة إسرافيل فينظر فيه فيدعو جبريل فيرسله، فإذا كان يوم القيامة أتى بإسرافيل - قال مؤمل: هكذا حفظي: إسرافيل، وقال بعض أصحابنا: اللوح ترعد فرائصه - فيقال: ما صنعت فيما أدى إليك اللوح؟ فيقول: بلغت جبريل. فيدعى جبريل ترعد فرائصه فيقال: ما صنعت فيما بلغك إسرافيل؟ فيقول: بلغت الرسل. فيؤتى بالرسل ترعد فرائصهم فيقال: ما صنعتم فيما أدى إليكم جبريل؟ فيقولون: بلغنا الناس. قال: فهو قوله عز وجل: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: 6، 7]) (2)

وروى عن وهب بن منبه من حديثه الطويل في كيفية خلق الكائنات قوله: (.. ثم يقول الله عز وجل: كن فيكون بحرا تحت الكرسي، وهو البحر المسجور، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 1 ـ 6] أوله في علم الله تعالى وآخره في إرادة الله تعالى فيه ماء ثخين شبه ماء الرجل تمر الموجة خلف الموجة سبعين عاما لا تلحقها، يمطر الله عز وجل منه على الخلق إذا أماتهم) (3)

هذه نماذج عن بعض الروايات التي أوردها أبو الشيخ حول الملائكة عليهم السلام، ونجد أمثالها في الكثير من كتب العقائد التي يسمونها كتب سنة.

وهي كلها تدل على ما ذكرناه من حنين العقل السلفي

1() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/840)
2() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/845)
3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (3/849)

إلى الغرائب، والتي تلجئه إلى الخرافة لا محالة، ولذلك شاع سوق القصاصين والكذابين في المجتمع الإسلامي.

ولو أن هذا العقل اكتفى بما ورد في القرآن الكريم عن خلق الملائكة، وسلم أمره لله فيهم، وعلم أن عقله مطالب بأن يسير في مناكب الأرض ليعمرها، ويملأها هداية وصلاحا لكف عن كل هذا الغثاء الذي شوه به الدين.

وقد أشار الحافظ ابن رجب الحنبلي (المتوفى 795) ـ مع سلفيته المختلطة بالتصوف ـ إلى هذه الظاهرة الخطيرة، فقال في كتابه (فضل علم السلف على الخلف) منتقدا لها: (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا - أي بكثرة الكلام - فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض! وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت، كيف كانوا: كلامهم أقل من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه. وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعو التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم. فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب، يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد. وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام، والتوسع في القيل والقال. وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم، لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، وهذا يلزم منه ما قبله، لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولا ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله، كانوا هم أعلم ممن كان أقل منهم قولا بطريق أولى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضا، فإن هؤلاء كلهم أقل كلاما ممن جاء بعدهم. وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح! وإساءة ظن بهم! ونسبة إلى الجهل وقصور العلم! ولا حول ولا قوة إلا بالله)(1)

وقد أشار الخطيب البغدادي إلى هذه الظاهرة في العقل السلفي، فقال منكرا لها: (وأكثر طالبي الحديث في هذا الزمان يغلب على إرادتهم كتب الغريب دون المشهور، وسماع المنكر دون المعروف، والاشتغال بما وقع فيه السهو والخطأ

---

(1) فضل علم السلف على الخلف، ص 26و28و47.

من روايات المجروحين والضعفاء، حتى لقد صار الصحيح عند أكثرهم مجتنبا، والثابت مصدوفا عنه مطرحا، وذلك كله لعدم معرفتهم بأحوال الرواة ومحلهم، ونقصان علمهم بالتمييز، وزهدهم في تعلمه، وهذا خلاف ما كان عليه الأئمة من المحدثين والأعلام من أسلافنا الماضين)[1]

ثم روى عن أحمد قوله: (شر الحديث الغرائب التي لا يعمل بها ولا يعتمد عليها)، وقوله: (تركوا الحديث وأقبلوا على الغرائب ،ما أقل الفقه فيهم) [2]

وما ذكره الإمام أحمد صحيح ودقيق، ولكن العقل السلفي لا يقبل من أحمد إلا ما يوافق مزاجه.. لأن كل عقل ممتلئ بالحشو لابد أن يكون عقلا مزاجيا، ذلك أنه لا ينطلق للوصول إلى الحقيقة من البحث العلمي الجاد، وإنما ينطلق من إرضاء غريزته وفضوله.

1() الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: 141)
2() الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: 141)

الركن الثالث الذي يقوم عليه بنيان العقل السلفي هو [الرواية]، أو هو حكاية الأقوال والنصوص وترديدها وحفظها.. وهو بسبب مهارته في هذا الجانب، وإغفاله لأدوات التحليل والمناقشة والنقد، أو إغفاله لأدوات الدراية أصبحت هذه الأدوات ضامرة عنده، وإن استعملها فهو يستعملها ليقبل ما يشاء من الروايات، أو يرفض ما يشاء منها.

والعقل السلفي بسبب امتلاكه لهذه الأداة يتصور أنه امتلك كل شيء، ولهذا نرى فيه ذلك التعالي على جميع طوائف الأمة وعلمائها.. بسبب توهمه أنه ما دامت الرواية له، فالحديث له..

وبما أن الحديث هو المصدر الأساسي للدين بعد القرآن الكريم أو مع القرآن الكريم.. فلذلك صار شطر الدين له بهذا الاعتبار..

أو ربما صار كل الدين له، لأن الحديث يمثله رسول الله ﷺ .. ورسول الله ﷺ ـ في العقل السلفي ـ ليس سوى أقواله وأفعاله وتقريراته، ولذلك فإن من يرويها هو الأحق برسول الله ﷺ.. ولذلك نراهم يحتكرون رسول الله ﷺ لأنفسهم باحتكار الرواية عنه.

وبناء على ذلك نرى ذلك التعالي الذي تنضح به كتبهم على سائر الأمة، بل إنهم وضعوا كتبا خاصة تمجدهم، وطالبوا الأمة بالإيمان بها، فمن لم يؤمن بأهل الحديث لم يؤمن بالحديث، ومن لم يؤمن بالحديث لم يؤمن برسول الله ﷺ.

ولهذا نرى سلفهم وخلفهم يرددون ما يردد شيخ إسلامهم ابن تيمية حين يقول في استعلاء وكبرياء كل حين: (وبهذا يتبيّن أنّ أحقّ الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنّة الذين ليس لهم متبوع يتعصّبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها وأئمّتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعٌ لها : تصديقًا وعملاً وحبًّا وموالاةً لمن والاها ومعاداة لمن عاداها، الذين يَرُدون المقالات المجملةَ إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا يُنَصِّبُون مقالةً ويجعلونها من أصول دينهم وجُمل كلامهم إن لم تكن ثابتةً فيما جاء به الرسول ﷺ بل يجعلون ما بعث به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه)[1]

---

[1] () مجموع الفتاوى (٣٤٧/٣)

وقبله قال ابن قتيبة (المتوفى سنة 276 هـ) بعد أن ذكر التوجهات المختلفة التي توجهها علماء الأمة وعامتها:(.. فأما أصحاب الحديث، فإنهم التمسوا الحق من وجهته وتتبعوه من مظانه وتقربوا من اللّه تعالى باتباعهم سنن رسول اللّه ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره براً وبحراً، وشرقا وغربا، يرحل الواحد منهم راجلا مقويا في طلب الخبر الواحد أو السنة الواحدة حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة، ثم لا يزالوا في التنقير عن الأخبار والبحث لها حتى فهموا صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي، فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيا، وبسق بعد أن كان دارسا، واجتمع بعد أن كان متفرقا، وانقاد للسنن من كان عنها معرضا، وتنبه لها من كان عنها غافلا، وحُكِمَ بقول رسول اللّه ﷺ بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان، وإن كان فيه خلاف على رسول اللّه ﷺ)(1)

وبعده قال أبو حاتم محمد بن حبان التميمي (المتوفى سنة 354) مثنيا على أهل الحديث سلف السلفية: (.. ثم اختار طائفة لصفوته وهداهم للزوم طاعته من اتباع سبل الأبرار في لزوم السنن والآثار، فزين قلوبهم بالإيمان، وأنطق ألسنتهم بالبيان من كشف أعلام دينه، واتباع سنن نبيه، بالدّؤُب في الرحل والأسفار وفراق الأهل والأوطار في جمع السنن ورفض الأهواء والتفقه فيها بترك الآراء، فتجرد القوم للحديث وطلبوه، ورحلوا فيه وكتبوه، وسألوا عنه وذاكروا به ونشروه وتفقهوا فيه وأصلوه وفرعوا عليه وبذلوه وبينوا المرسل من المتصل والموقوف من المنفصل والناسخ من المنسوخ والمحكم من المفسوخ والمفسر من المجمل والمستعمل من المهمل والمختصر من المتقصىَّ والملزوق من المتفصىَّ والعموم من الخصوص والدليل من المنصوص والمباح من المزجور والغريب من المشهور والغرض من الإرشاد والحتم من الايعاد والعدول من المجروحين والضعفاء من المتروكين وكيفية المعمول من المجهول وما حرف عن المخزول وقلب من المنحول من مخايل التدليس وما فيه التلبيس حتى حفظ اللّه بهم الدين على المسلمين وصانه من ثلب القادحين، جعلهم عند التنازع أئمة الهدى وفي النوازل مصابيح الدجى، فهم ورثة الأنبياء ومأنس الأصفياء)(2)

ومثله قال أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي (المتوفى سنة 360 هـ) دفاعا على أهل الحديث،

1() تأويل مختلف الحديث (ص: 127)

2() انظر الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان (1/20-23)

وبيـان مكـانتهم:(اعترضـت طائفـة ممن يشـنأ الحـديث ويبغض أهله، فقالوا بنقص أصحاب الحـديث والإزراء بهم وأسـرفوا في ذمهم والتقـول عليهم وقـد شـرف اللّـه الحـديث وفضـل أهلـه وأعلى منزلته وحكمه على كل نحلة وقدمه على كل علم، ورفع من ذكـر من حملـه وعـنى بـه، فهم بيضـة الـدين ومنـار الحجـة وكيف لا يستوجبون الفضيلة ولا يستحقون الرتبـة الرفيعـة وهم الذين حفظوا على الأمة هذا الدين، وأخـبروا عن أنبـاء التنزيـل، وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومـا عظمـه اللّـه عـز وجـل بـه من شـأن الرسـول ﷺ، فنقلـوا شـرائعه ودونـوا مشاهده وصنفوا أعلامه ودلائلـه وحققـوا منـاقب عترتـه ومـآثر آبائه وعشيرته وجـاءوا بسـير الأنبيـاء ومقامـات الأوليـاء وأخبـار الشهداء والصديقين وعبروا عن جميع فعل النبي ﷺ في سـفره وحضره وظعنه وإقامته وسائر أحواله من منام ويقظـة وإشـارة وتصريح وصمت ونطق ونهوض وقعود ومأكل ومشـرب وملبس ومـركب ومـا كـان سـبيله في حـال الرضـا والسـخط والإنكـار والقبول حتى القلامة من ظفره ما كان يصنع بها، والنخاعـة من فيه أين كان وجهتها، وما كان يقوله عند كل فعل يحدثه ويفعله، وعند كل موقف ومشهد يشهده تعظيما له ﷺ ومعرفة بأقدار ما ذكر عنه وأسند إليه، فمن عرف للإسلام حقـه وأوجب للرسـول حرمته، أكبر أن يحتقر من عظم اللّه شأنه وأعلى مكانه وأظهر حجته وأبان فضيلته ولم يرتق بطبيعته إلى حزب الرسول واتباع الوحي وأوعية الدين، ونقلة الأحكام والقرآن، الذين ذكرهم اللّه عز وجل في التنزيل فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبـة: 100]، فإنــك إن أردت التوصــل إلى معرفــة هــذا القــرن، لم يذكرهم لك إلا راو للحديث، متحقق به، أو داخل في حيز أهلــه، ومن سـوى ذلـك فربـك بهم أعلم .. وكفى بالمحـدث شـرفا أن يكون اسمه مقرونا باسم النبي ﷺ متصلا بذكره وذكر أهل بيتــه وأصحابه، ولذلك قيل لبعض الأشراف: نراك تشـتهي أن تحـدث فقـال: أولا أحب أن يجتمـع اسـمي واسـم النـبي ﷺ في سـطر واحد)(1)

وهكـذا قـال الحافـظ أبـو عبـد اللّـه الحـاكم النيسـابوري (المتوفى سنة 405 هـ)، فقد أورد قوله ﷺ : (لا يزال نـاس من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)(2)، ثم روى عن أحمد بن حنبل قوله جوابـا لمن سـأله عن معـنى هـذا الحـديث فقـال: (إن لم تكن هـذه الطائفـة المنصـورة أصـحاب

---

(1) المحدث الفاصل (ص:2)

(2) أحمد (3/436و5/35) والترمذي (2192)

الحديث، فلا أدري من هم؟)(1)

ثم علـق عليـه بقولـه: (فلقـد أحسـن أحمـد بن حنبـل في تفسير هذا الخـبر، إن الطائفـة المنصـورة الـتي يرفـع الخـذلان عنهم إلى قيـام السـاعة هم أصـحاب الحـديث، ومن أحـق بهـذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصـالحين، واتبعـوا آثـار السـلف الماضين، ودفعوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله أجمعين من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطان، وتنعموا بـالبؤس في الأسـفار مع مساكنة العلم والإخبار، وقنعـوا عنـد جمـع الأحـاديث والآثـار بوجـود الكسـر والأطمـار، قـد تركـوا الإلحـاد الـذي تتـوق إليـه النفوس الشهوانية وتوابع ذلـك من البـدع والأهـواء والمقـاييس والآراء والزيغ، جعلوا المساجد بيوتهم وأساطينها تكاهم وبواريها فرشهم) (2)

ثم روى عن عمر بن حفص بن غيـاث قولـه: (سـمعت أبي وقيل له: ألا تنظر إلى أصحاب الحـديث ومـا هم فيـه. قـال: هم خير أهل الدنيا)، وعن أبي بكر بن عياش قولـه: (إني لأرجـو أن يكون أصحاب الحديث خير الناس، يقيم أحدهم ببابي، وقد كتب عني فلو شاء أن يرجع ويقول: حدثني أبو بكر جميع حديثه فعل ولكنهم لا يكذبون)(3)

ثم علـق عليهمـا بقولـه: (ولقـد صـدقا جميعـا أن أصـحاب الحديث خير الناس، وكيف لا يكونـون كـذلك، وقـد نبـذوا الـدنيا بأسرها وراءهم، وجعلـوا غـذاءهم الكتابـة وسـمرهم المعارضـة واسـترواحهم المـذاكرة، وخلـوقهم المـداد، ونـومهم السـهاد، واصـطلاءهم الضـياء، وتوسـدهم الحصـى فالشـدائد مـع وجـود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقـد مـا طلبـوه عندهم بؤس فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، قلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهـل السـنة قاطبـة إخـوانهم، وأهـل الإلحـاد والبـدع بأسـرها أعداؤهم)(4)

ثم روى عن محمد ابن إسماعيل الترمـذي قولـه: كنت أنـا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أبي عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد اللّـه ذكـروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سـوء. فقام أبو عبد اللّه وهو ينفض ثوبه فقال: (زنـديق زنـديق زنـديق

1() معرفة علوم الحديث (ص:2)
2() معرفة علوم الحديث (ص: 2)
3() معرفة علوم الحديث (ص: 3)
4() معرفة علوم الحديث (ص: 3)

ودخل البيت)(1)

وروى عن أحمد بن سنان القطان قوله: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه)، وروى عن أحمد بن سلام الفقيه قوله: (ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد)(2)

ثم علق عليه بقوله: (وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة، ويسميها الحشوية، سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق الفقيه وهو يناظر رجلا، فقال: الشيخ: حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدثنا، إلى متى حدثنا، فقال له الشيخ: (قم يا كافر، ولا يحل لك أن تدخل داري بعد هذا)، ثم التفت إلينا، فقال: (ما قلت قط لأحد لا تدخل داري إلا لهذا)(3)

وهكذا قال أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفى سنة 463) الذي ألف كتابا في فضلهم سماه (شرف أصحاب الحديث)، روى فيه عن يزيد بن زريع قوله: (أصحاب الرأي أعداء السنة)، ثم عليه بقوله: (ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم، وطلب سنن رسول رب العالمين، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين، لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه، لأن الحديث يشتمل على معرفة أصول التوحيد، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين والإخبار عن صفات الجنة والنار، وما أعد الله تعالى فيهما للمتقين والفجار، وما خلق الله في الأرضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات، وذكر الملائكة المقربين، ونعت الصافين والمسبحين. وفي الحديث قصص الأنبياء، وأخبار الزهاد والأولياء، ومواعظ البلغاء، وكلام الفقهاء، وسير ملوك العرب والعجم، وأقاصيص المتقدمين من الأمم، وشرح مغازي الرسول ﷺ، وسراياه وجمل أحكامه وقضاياه، وخطبه وعظاته، وأعلامه ومعجزاته، وعدة أزواجه وأولاده وأصهاره وأصحابه. وذكر فضائلهم ومآثرهم. وشرح أخبارهم) ومناقبهم (، ومبلغ أعمارهم، وبيان أنسابهم. وفيه تفسير القرآن العظيم، وما فيه من النبإ والذكر الحكيم. وأقاويل الصحابة في الأحكام المحفوظة عنهم، وتسمية من ذهب إلى قول كل واحد منهم

1() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)
2() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)
3() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)

من الأئمة الخالفين والفقهاء المجتهدين. وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة. فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺوأمته، والمجتهدون في حفظ ملته. أنوارهم زاهرة وفضائلهم سائره، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأيا تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يقبل منهم ما رووا عن الرسول، وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته، وأوعية العلم وحملته. إذا اختلف في حديث، كان إليهم الرجوع، فما حكموا به، فهو المقبول المسموع. ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن. وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم. وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذلهم الله. لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير وإن الله على نصرهم لقدير)(1)

وقد عقد فصلا في كتابه عنونه [كون أصحاب الحديث أمناء الرسول ﷺ لحفظهم السنن وتمييزهم لها]، روى فيه عن أبي حاتم الرازي قوله: (لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة) فقال: له رجل: يا أبا حاتم ربما رووا حديثا لا أصل له ولا يصح؟ فقال: (علماؤهم يعرفون الصحيح من السقيم، فروايتهم ذلك للمعرفة ليتبين لمن بعدهم أنهم ميزوا الآثار وحفظوها، ثم قال: (رحم الله أبا زرعة، كان والله مجتهدا في حفظ آثار رسول الله ﷺ)) (2)

وروى عن كهمس الهمذاني قوله: (من لم يتحقق أن أهل الحديث حفظة الدين، فإنه يعد في ضعفاء المساكين الذين لا يدينون الله بدين، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: 23]، ويقول رسول الله ﷺ حدثني جبرائيل عن الله عز وجل)(3)

وهكذا نجد فصولا كثيرة تبين المكانة الرفيعة لأصحاب الحديث، منها فصل عن [كون أصحاب الحديث حماة الدين بذبهم عن السنن]، روى فيه الثوري قوله: (الملائكة حراس

(1) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 7)
(2) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 43)
(3) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 43)

السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض)، وقول يزيد بن زريع: (لكل دين فرسان وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد)(1)

وعقد فصلا بعنوان [كون أصحاب الحديث ورثة الرسولﷺ فيما خلفه من السنة وأنواع الحكمة] روى فيه عن الشافعي قوله: (إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث، فكأني رأيت النبيﷺ حيا)(2)

وعقد فصلا بعنوان [من قال: لولا أصحاب الحديث لاندرس الإسلام] روى فيه عن حفص بن غياث، قوله: (لولا أن الله جعل الحرص في قلوب هؤلاء يعني طلبة العلم لدرس هذا الشأن)، وعن أبي داود قوله: (لولا هذه العصابة لاندرس الإسلام يعني أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار)(3)

وعقد فصلا بعنوان [من قال: إن الحق مع أصحاب الحديث] روى فيه عن هارون الرشيد، قوله: (طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام والشغب فوجدته في المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث)(4)

وعقد فصلا بعنوان [كون أصحاب الحديث أولى الناس بالنجاة في الآخرة وأسبق الخلق إلى الجنة] روى فيه عن أبي جعفر النفيلي، قوله: (إن كان على ظهر الأرض أحد ينجو، فهؤلاء الذين يطلبون الحديث)، وروى عن ابن المبارك قوله: (أثبت الناس على الصراط أصحاب الحديث)، وروى عن الحسن بن علي التميمي، قوله: (كنت في الطواف فهجس في سري: من المقدم يوم القيامة؟ فإذا هاتف ينادي: أصحاب الحديث)(5)

وهكذا نجد الفصول الكثيرة في هذا الكتاب وغيره تعقد لبيان فضل أهل الحديث، وفضل الرواية، هي التي يتعلق بها السلفية في بيان فضلهم على سائر الأمة، واعتبار الحق المطلق معهم، والباطل المطلق مع مخالفيهم.

وهي السبب كذلك في تلك الكبرياء التي يمارسها العقل السلفي عندما يحتك مع غيره من العقول، أو يتحاور معها، فهو يتحاور من برجه العاجي الذي بناه له سلفه ممن لقبوا أنفسهم بأهل الحديث.

ونحن لا ننكر ما يذكرونه عن أنفسهم من الجهد والرحلة والحفظ وتلك المعاناة الطويلة في جمع الأسانيد والمتون

---

(1) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 44)
(2) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 46)
(3) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 52)
(4) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 55)
(5) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: 57)

وحشو الكتب والمصنفات بها.

ولا ننكر عليهم صدقهم وإخلاصهم، والذي قد لا يخدش فيه كونه مشوبا أحيانا بحب تلك المكانة الرفيعة وذلك الجاه العريض الذي توليه السلطات بمختلف أصنافها للمحدثين، بالإضافة لتلك المحابر الكثيرة التي تجتمع لديهم، ويجتمع معها كثير من الحظوظ التي يعجلها الله لهم في الدنيا قبل الآخرة.

ولكننا ننكر عليهم ذلك التعالي وتلك الكبرياء، التي جعلتهم يلغون الأمة جميعا بمختلف علمائها وطوائفها، كما أشار السمعاني (ت 489 هـ) ـ وهو من أعلامهم الكبار ـ في كتابه [الانتصار لأصحاب الحديث] إلى ذلك، فقال: (فإن قال قائل: إنكم سميتم أنفسكم أهل السنة، وما نراكم في ذلك إلا مدعين، لأنا وجدنا كل فرقة من الفرق تنتحل اتباع السنة وتنسب من خالفها إلى الهوى، وليس على أصحابكم منها سمة وعلامة أنهم أهلها دون من خالفها من سائر الفرق فكلها في انتحال هذا اللقب شركاء متكافئون، ولستم أولى بهذا اللقب إلا أن تأتوا بدلالة ظاهرة من الكتاب والسنة أو من إجماع أو معقول)(1)

ثم أجاب على ذلك بقوله: (قولكم: إنه لا يجوز لأحد دعوى إلا ببينة عادلة أو دلالة ظاهرة من الكتاب والسنة هما لنا قائمتان بحمد الله ومنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7]، فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سن وأمر ونهى وحكم وعلم.. فوجدنا سنته وعرفناها بهذه الآثار المشهورة التي رويت بالأسانيد الصحاح المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء بعضهم عن بعض، ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث لها أطلب وفيها أرغب ولها أجمع ولصحاحها أتبع فعلمنا يقينا أنهم أهلها دون من سواهم من جميع الفرق.. ورأينا أصحاب الحديث رحمهم الله قديما وحديثا هم الذين رحلوا في طلب هذه الآثار التي تدل على سنن رسول الله ﷺ فأخذوها من معادنها وجمعوها من مظانها وحفظوها واغتبطوا بها ودعوا إلى اتباعها وعابوا من خالفها وكثرت عندهم وفي أيديهم حتى اشتهروا بها كما اشتهر البزاز ببزه والتمار بتمره والعطار بعطره)(2)

وهكذا لا يجد المحاور مع هذا العقل سوى أمثال هذه النصوص، لأنه لو أدلى له بجميع حجج الدنيا، فإنه لن يرضخ لها، بل إنه يتصور أنه ينسفها جميعا برواية يرويها أو أثر ينقله.

والعقدة التي سببت كل ذلك هو توهمه أن كل رواية

---

(1) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: 52)
(2) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: 52)

يرويها عن رسول الله ﷺ هي حقيقة قطعية لا شك فيها.. ولذلك فإن المنكر للرواية مكذب لرسول الله ﷺ .. ولا حظ لمن كذب رسول الله ﷺ في الدين.

وهذا كله غير صحيح .. ذلك أن المنهج الذي اعتمده أهل الحديث في الرواية كان سببا لكل ما حصل في الأمة من الفتن.. فلو أنهم تعاملوا مع الحديث ــ كما تعاملت الأمة مع القرآن الكريم ـ فلم يرفعوا لرسول الله ﷺ إلا ما استوثقوا من صحته، وتأكدوا منه تأكدا تاما ما حصل ما حصل.

لكن بسبب اشتغالهم بالحشو والكثرة، صاروا يجمعون كل شيء، ثم يدونونه في كتبهم ومعه الأسانيد التي وصلوا بها إليه.. ثم ينشرونه في الأمة بعد ذلك.. غير مدركين الآثار الخطيرة التي قد يتركها حديث مكذوب واحد.

وقد أشار ابن قتيبة في كتابه (تأويل مختلف الحديث) إلى هذا المعنى، فقال: (.. كتبت إليَّ تُعْلمني ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم وإسهابهم في الكتب بذمهم ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضا وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث)(1)

وقال: (وقد يعيبهم الطاعنون بحملهم الضعيف وطلبهم الغرائب، وفي الغريب الداء. ولم يحملوا الضعيف والغريب لأنهم رأوهما حقا، بل جمعوا الغث والسمين والصحيح والسقيم ليميزوا بينهما ويدلوا عليهما وقد فعلوا ذلك)(2)

لكن السلفية عندما ترد عليهم أمثال هذه التساؤلات نجدهم ــ بعد فرارهم منها بالطعن في صاحب التساؤل ـ يذكرون أن أسلافهم وضعوا علوما كثيرة، كعلم الرجال، والجرح والتعديل، والعلل وغيرها كثير.. وأنهم بواسطها استطاعوا أن يميزوا بين الضعيف والصحيح..والمقبول والمرفوض.

وذلك غير صحيح .. لأنه لا يوجد علم في الدنيا وقع فيه الخلاف كما يوجد في علم الحديث، فهم يختلفون في الرواة قبولا ورفضا، ويختلفون في شروط القبول، ويختلفون في تطبيق الشروط، ويختلفون في اشتراط الاتصال وعدم الاتصال.. وهكذا نجد اختلافهم في كل جزئية من أجزاء السند.. فكيف بعد هذا يتصورون أنهم قد استطاعوا تمييز الصحيح من الضعيف.

والشيء الوحيد الذي استفادوه من كثرة تلك العلوم التي

1() تأويل مختلف الحديث (ص: 47)
2() تأويل مختلف الحديث (ص: 128)

ربطوها بالحديث هو احتكار الحديث لأنفسهم، حيث راحوا يعقدون مسائله، ومصطلحاته، وطرق التعامل معه، حتى لا يبقى في الحلبة غيرهم، فإذا ما نوقشوا في مسألة أوردوا حديثا، راحوا يتكلمون في سنده، ويتصورون أنهم بإثباتهم لصحته ـ على حسب المنهج الذي اعتمدوه ـ يكونون قد قضوا على حجة المخالف لهم.

وهم يمارسون في ذلك كل أنواع التضليل والمغالطات، بل إننا لو دققنا في طريقة تعاملهم مع الرجال والأسانيد، وتصحيح الأحاديث وتضعيفها، لوجدنا هذا العلم هو الأداة التي يمارسون بها الاحتيال لتصحيح ما يشتهون، وتضعيف ما يشتهون.

فمن أكبر المغالطات المرتبطة بالسند، والتي كانت سببا في اختلاط حديث رسول الله ﷺ مع أحاديث الكذابين والوضاعين والخرافيين والدجالين هو ذلك الاحتقار الذي مارسه العقل السلفي مع شروط الرواية، مقارنة بالشروط التي جمع بها القرآن الكريم، مع أن كليهما واحد من جهة الدور الذي يؤديه، فالقرآن يعطينا عقائد وفقها، وكذلك السنة المطهرة..

لكن السلفية مع اعتقادهم بهذا، بل اعتقادهم بأن السنة حاكمة على القرآن، إلا أنهم تساهلوا في الشروط المرتبطة بها، فاعتبروا أحاديث الآحاد الغريبة في إثبات كل شيء، حتى لو خالفت تلك الأحاديث القرآن والعقل والفطرة وكل حقائق الوجود.

وهذا يعني أنه يمكن لأي شخص حاقد على الدين أن يضع في الدين ما يشاء من العقائد والأحكام، وليس عليه فقط، سوى أن يتظاهر بالعدالة أمام رواة الحديث، ويتقن بعض اللغة العربية، ثم يصب كل ترهاته في قالب حديثي، يضيف إليه سندا مناسبا.

وبعد أن يفعل هذا، قد يفطن بعض الأذكياء من المباحث الحديثية في التعرف على كون الراوي غير ثقة، وأنه مجرد محتال.. ولذلك يصنفونه ضمن الرواة المشبوهين..

ولكن اكتشاف بعضهم له لا يقضي عليه، لأن هناك من انخدع فيه، واعتبره راوية ثقة، وهنا يحصل الخلاف بين المحدثين في اعتباره ثقة أو غير ثقة.. وهنا يقع الخلاف أيضا في كل الأحاديث التي أوردها.. ولا يبعد أن يجد من يدافع عنه، وخاصة إن كانت أحاديثه تتناسب مع مزاج حديثي معين.

ليس هذا فقط، بل للمذهب والطائفة دورها الكبير في انتقاء المحدثين لأنواع الرواة، فمن كان معهم قبلوه ووثقوه حتى لو كان كاذبا .. ومن كان مخالفا لهم بدعوه وكذبوه حتى

لو كان صادقا.

وهكذا نجد أمثال هذه الثغرات التي تملأ علم الحديث، والتي بواسطتها تمكن الشيطان من تحريف الدين، ونشر ما يشاء من العقائد والأحكام.

ولو أن هؤلاء احتاطوا في أمر الحديث، وتركوا شهوة الرواية، وانشغلوا بالدراية والتحقيق لما وقع ما وقع.

بناء على هذا سنحاول هنا أن نذكر أدلة أو أمثلة على بعض هذه الثغرات[1]، ونحن نعلم مسبقا أننا سنتهم بمثل ما يتهم به عادة كل ناقد لهذا المنهج الذي يعتمد عليه العقل السلفي في إثبات تسلطه على سائر الأمة.

أولا ـ التساهل في طرق الرواية:

مع أن القرآن الكريم ذكر خطورة الشهادة في مسائل وفروع بسيطة تتعلق بآحاد الناس، فشرط العدد في الشهود، بالإضافة للعدالة ونحوها حتى لا يتهم البريء وينجو المجرم.. لكنا نجد المحدثين سلكوا مع الحديث منهجا أيسر وأسهل حتى يتاح التحديث لآحاد الناس، ليطرح كل واحد ما يشاء من غير أن يحتاج لمن يشهد معه، أو يقف بجنبه.

مع انه الأجدر بهم أن يجعلوا شروط رواة الحديث أعظم، وعددهم أكثر، لأن القضية لا تتعلق بفرد واحد من الناس، وإنما تتعلق بأمة كاملة، وبدين كامل.

لكن المحدثين لم يهتموا بهذا، ولم يعطوه الأهمية التي يستحقها، بل إننا نجدهم يجعلون شروط الشهادة أخطر من شروط الرواية[2]، وكأن الدين الذي تتعلق به تلك الروايات صار أهون من الحد الذي لا يصيب صاحبه سوى ببعض العقوبات البسيطة.

وهم في موقفهم ذلك يخالفون من يدعون الانتساب إليهم من الصحابة، فقد كانوا يتشددون في شروط الرواية مع كون

1() خصصنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا بكتابنا [سنة بلا مذاهب]

2() من أمثلة الفروق التي ذكرها المحدثون بين الشهادة والرواية، والتي تدل على أن خطر الشهادة عندهم أعظم من خطر الرواية:

1 ـ العدد غير مشروط في الرواية بخلاف الشهادة فلابد فيها من نصابها فتنقل رواية الآحاد من الرجال والنساء، أما الشهادة فيشترط فيها العدد، فيشترط أربعة في الزنا ورجلان أو رجل وامرأتان في غيره.

2 ـ لا يشترط الحرية في الرواية بخلاف الشهادة فالحرية مطلوبة عند بعض الفقهاء.

3 ـ في شهادة الفروع للأصول والعكس والأقارب لبعضهم خلاف في قبولها بسبب تهمة القرابة، ولا يوجد شيء من ذلك في الرواية.

4 ــ تقبل في الرواية النقل عن شخص آخر (حدثني فلان عن فلا ن)، ولا يقبل في الشهادة إلا الأصالة.

5 ـ تقبل رواية الصبي على رأي البعض، أما الشهادة فلا تقبل إلا من بالغ.

(انظر: انظر: السيوطي: تدريب الراوي، 1/ـ 331 ــ334، مقدمة ابن الصلاح، 104، الكفاية للخطيب البغدادي، 1/104)

المسافة بينهم وبين رسول الله ﷺ قصيرة جدا، فقد روى قبيص بن ذؤيب أنَّ الجدّة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أنْ تورث، فقال لها: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أنَّ رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل النَّاس، فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السُّدس، فقال: هل معك أحد؟ وشهد محمد بن سلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها(1).

ومثل ذلك روي عن أبي سعيد الخدريّ قال: (كنتُ جالساً في مجلس الأنصار إذ أبو موسى كأنَّه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له؛ فليرجع)، فقال: والله لتقيمنَّ عليه ببيّنة، أمنْكمْ أحدٌ سمعه من النَّبيّ ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: (والله لا يقوم معك إلاَّ أصغر القوم)، فكنت أصغر القوم، فقمتُ معه، فأخبرت عمر أنَّ النَّبيّ ﷺ قال ذلك) (2).

وهكذا روي عن الإمام عليّ أنه كان لا يقبل خبر الآحاد ولا يعمل به إلاَّ إذا استحلف الرَّاوي باليمين أنَّه سمع الحديث عن رسول الله ﷺ (3).

لكن العقل السلفي الانتقائي لا يقبل بهذا، لأنه لو قبله لارتفعت حجية الكثير من العقائد التي فرضها على الأمة فرضا، ولزالت معها تلك المجلدات الكثيرة التي جمعها، ولذهب معها كذلك تلك الآلاف وعشرات الآلاف من الأحاديث التي حفظها ليتميز بها عن سائر الناس.

ولهذا نراهم يجتهدون في إثبات خبر الواحد بأي سبيل من السبل، وأولها تلك التشديدات التي لا يتقن سلفهم غيرها، فقد اعتبروا الطاعن في حجية خبر الواحد في المسائل العقدية مبتدعا ومنحرفا، بل طاعنا في السنة النبوية نفسها، بل مكذبا لرسول الله ﷺ.

قال ابن عبد البر مبينا موقف سلف السلفية من المتشدد في قبول خبر الواحد: (مذهب الأئمة، أهل الفقه والأثر .. كلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعاً وديناً في معتقده، وعلي ذلك جماعة من أهل السنة)(4)

وقال أبو المظفر السمعاني في (الانتصار لأصحاب الحديث) مبينا الحجج الحجج القوية التي أوردها المتكلمون، بل كل طوائف المسلمين: (وقد سلك أهل الكلام في رد الناس من الأحاديث إلى المعقولات طريقا شبهوا بها على عامة الناس

1() أبو داود رقم 2877.
2() البخاري، 5/2305، مسلم، 3/1694.
3() الباجي: إحكام الفصول في أحكام الأصول، 1/254.
4() التمهيد (1/8)

قالوا: إن أمر الدين أمر لابد فيه من وقوع العلم ليصح الاعتقاد فيه، فإن المصيب في ذلك عند اختلاف المختلفين واحد والمخالف في أمر من أمور الدين الذي مرجعه إلى الاعتقاد إما كافر أو مبتدع، وما كان أمره على هذا الوجه، فلابد في ثبوته من طريق توجب العلم حتى لا يتداخل من حصل له العلم بذلك شبهة وشك بوجه من الوجوه، والأخبار التي يرويها أهل الحديث في أمور الدين أخبار آحاد وهي غير موجبة للعلم وإنما توجب الإعمال في الأحكام خاصة، وإذا سقط الرجوع إلى الأخبار فلابد من الرجوع إلى دليل العقل وما يوجبه النظر والاعتبار فهذا من أعظم شبههم في الإعراض عن الأحاديث والآثار)(1)

ثم قال ـ بهذه البساطة ـ ردا عليها: (إن خبر الواحد إذ صح عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة وأسنده خلفهم عن سلفهم إلي رسول الله وتلقته الأمة بالقبول فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم، هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين علي السنة)(2)

أما ابن تيمية، فكعادته في حكاية الإجماع، فقد ذكر أن الأمة مجمعة على أن خبر الواحد يعمل به في كل شيء ابتداء من العقائد، قال: (.. فهذا يفيد العلم اليقيني عند جماهير أمة محمد ﷺ من الأولين والآخرين ؛ أما السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع)(3)

وحكاية الإجماع في هذه المسألة وغيرها من ابن تيمية تدل على أن الأمة عنده مختصرة في السلفية، فلذلك إذا اتفق قولهم في مسألة عده إجماعا للمسلمين جميعا، لأنه لا مسلمين غيرهم.

ومثل ذلك قول ابن القيم ـ حاكيا الإجماع في المسألة ــ : (ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها؛ كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطَّلَبِيَّة بها، فما الفرق بين باب الطَّلَب وباب الخبر، بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر، وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تَزَل تحتج بهذه الأحاديث في الخَبَرِيَّات، كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما الأحكام العملية: تتضمَّن الخبر عن الله بأنه شَرَّع كذا، وأوجبه ورضيه دينًا، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، وأهل الحديث، والسنة، يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات، والقدر، والأسماء، والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم ألبتة أنه جَوَّز الاحتجاج بها في مسائل

(1) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: 5)
(2) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: 34)
(3) نقلا عن: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: 561)

الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟)(1)

وهو يحكي قول المخالفين، ويتهمهم بما يتهمهم به السلفية من الإعراض الله ورسوله، لا بكونهم محتاطين خائفين أن يقولوا الله ورسوله ﷺ ما لم يقولا، يقول ابن القيم: (نعم سلفهم بعض مُتأخِّري المتكلمين، الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله وأصحابه؛ بل يصدون القلوب عن الاهتداء في هذا الباب بالكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين، وقواعد المتكلفين، فهم الذين يعرف عنهم التفريق بين الأمرين، وادعوا الإجماع على هذا التفريق، ولا يحفظ ما جعلوه إجماعًا عن إمام من أئمة المسلمين، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين، وهذا عادة أهل الكلام، يحكون الإجماع على ما لم يقله أحد من أئمة المسلمين؛ بل أئمة المسلمين على خلافه) (2)

وخطورة القول بحجية خبر الواحد هي أن هذا النوع من الأخبار كان هو البوابة التي دخل منها تحريف الدين بعقائده وأحكامه.. ذلك أن المقصود بخبر الواحد أن يتوقف الحديث في أي مرحلة من مراحل السند على شخص واحد.

وهنا الثغرة الكبرى لعلم الحديث .. فأي علم هذا الذي يجعل من حديث رسول الله ﷺ الذي هو الدين نفسه مركبا سهلا لكل من يريد أن يضيف حكما جديدا، أو ينسخ حكما ثابتا، لأنه لن يكلفه سوى أن يظهر بمظهر الصلاح، أو يكلف من يظهر بمظهر الصلاح، ثم يأتي المسجد، ويجمع حوله بعض التلاميذ، ثم يروح يعنعن الحديث بعد أن يكون قد أحكم صياغته اللغوية، ووضع بعض المشاهد التي ترغب في حفظه.

وقد ذكرنا الأمثلة الكثيرة على ذلك في كتابينا [السلفية والوثنية المقدسة]، و[السلفية والنبوة المدنسة]، وكيف استطاعت أمثال تلك الأحاديث أن تنشر تصورات عقدية بديلة عن العقائد القرآنية المتعلقة بالله وبأنبياء الله.

وهكذا يقال في الأحكام، فمن السهل أن تروى الأحاديث التي تنسخ ما ورد في القرآن الكريم من السماحة مع المخالف، فليس على من يريد أن يرفع هذا الحكم من الشريعة ومن القرآن الكريم سوى أن يذهب إلى أي شخص ويملي عليه أي حديث أو أحاديث لتتبخر معها السماحة القرآنية النبوية، ويحل بدلها العنف الذي وفر له السلفية سبيل الدخول إلى هذا الدين.

---

(1) الصواعق المرسلة لابن القيم: ج 2 / 412 - 417.
(2) الصواعق المرسلة لابن القيم: ج 2 / 412 - 417.

ثانيا ـ التساهل في شروط الرواة:

لم يكتف سلف السلفية بذلك التساهل في شروط الـرواة من حيث عددهم، بل إنهم راحوا يتساهلون أيضا فيهم من حيث صفاتهم.. وذلك لتسهيل رواية أكبر عدد من الأحاديث، فالتشـدد في الشـروط سـيحرمهم من ذلـك الحشـو الـذي حشـوا بـه مصنفاتهم وشغلوا به الأمة عن دينها ودنياها.

وهم على الـرغم من أنهم في شـروطهم للـرواة يـذكرون أمثال هذه المقولة للإمام مالك: (لا تأخذ العلم من أربعة وخذ ممن سوى ذلك،لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه وان كـان أروى الناس، ولا تأخذ من كذاب يكذب في أحـاديث النـاس إذا جـرب ذلك عليه، وان كـان لا يهتم أن يكـذب على رسـول الله ﷺ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هـواه ولا من شـيخ لـه فضـل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث)[1]

فهذه الشروط التي ذكرها مالـك لـو طبقناهـا على الكثـير من الـرواة الـذين يبـالغ السـلفية في تـوثيقهم والـدفاع عنهم، لوجدناها متخلفة، ولكنهم مع ذلك يظلون يدافعون عنهم.

وكمثال بسيط تقريبي على ذلك فإنهم ـ وباتفقاهم جميعا ـ يذكرون عن كعب الأحبار ووهب بن المنبـه وغـيرهم من اليهـود أو تلاميـذهم ــ أنهم يـوردون في كلامهم مـا ليس صـحيحا، ومـا يمكن اعتبـاره كـذبا، ومـع ذلـك لا يجـرؤون على تـوهينهم أو تضعيفهم، لأنهم إن فعلوا ذلك فسيسقطون كثيرا من الروايـات التي يتعلقون بها في إثبات عقائدهم.

ومن أمثلـة ذلـك مـوقفهم من حـديث أبي هريـرة: (أخـذ رسول الله ﷺ بيدي،فقال: خلق الله التربة يـوم السـبت وخلـق الجبال فيها يوم الأحـد وخلـق الشـجر فيهـا يـوم الاثـنين وخلـق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيهـا الـدواب يوم الخميس،وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلــق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) [2]

فلو أن أهل الحـديث كـانوا صـادقين مـع أنفسـهم، وكـانوا حريصين على سلامة الدين من التحريف لاتهموا كل من يحتمل وضعه لهذا الحديث ابتداء من أبي هريرة وانتهاء بمسلم.

لكنهم لا يفعلون ذلك، وخصوصا مع أبي هريرة، فلكـل من رأى رسول الله ﷺ عندهم مكانة خاصة، وعدالة خاصة وحصـانة لا يمكن لأي أحد أن يخرقها.

ومن عجيب مخالفاتهم في هذا أنهم لا يوهنـون الصـحابي، ولا يتركون الرواية عنه حتى لـو ارتكب مـا ارتكب من الجـرائم،

---

[1] ()) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية،144.

[2] () صحيح مسلم (4/ 2149)

بحجة أنه لا يجرؤ على الكذب على رسول الله ﷺ، ولست أدري كيف وثقوا في ذلك، مع أن رسول الله ﷺ نفسه قال لأصحابه محذرا: (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدهُ من النار)(1)

ولست أدري كيف تصوروا أن الذي هانت عليه جميع الأحكام الشرعية، فراح يعبث فيها كما يشاء، كيف لا يهون عليه الكذب على رسول الله ﷺ.. خاصة مع تلك الأحاديث الإرجائية الكثيرة التي ينشرونها، والتي تجعل الله ـ كما رأينا ذلك سابقا ـ يحثي بكفيه من خلقه إلى الجنة من غير حساب ولا عدد.

ولم يكتف السلفية بهذا أيضا، بل راحوا يكتفون من الرواة مجرد إعلانهم للإسلام، مع عدم ظهور الفسق، مع حسن الظاهر، مع بعض الوقار الذي لا يهم فيه أن يكون متكلفا أو صحيحا، والذي عبروا عنه بالمروءة.. مع شرط آخر أساسي، وهو أن يكون من أحباب المحدثين، لا من أهل الأهواء، قال الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ): (وأصل عدالة المسلم المحدث أن يكون مسلما لا يدعو إلى بدعة، ولا يعلن من أنواع المعاصي ما تسقط عدالته)(2)

وقال الخطيب البغدادي (ت 436هـ): (العدالة المطلوبة في صفة الشاهد والمخبر هي العدالة الراجعة إلى استقامة دينه وسلام مذهبه وسلامته من الفسق وما يجري مجراه مما اتفق على أنه مبطل للعدالة من أفعال الجوارح والقلوب المنهي عنها والواجب أن يقال في جميع صفات العدالة، وقد علم مع ذلك أنه لا يكاد يسلم المكلف من البشر من كل ذنب)(3)

وقال السيوطي (ت849هـ): (يشترط فيمن يحتج بروايته أن يكون عدلا ضابطا لما يرويه وفسر العدل بأن يكون مسلما بالغا عاقلا فلا يقبل كافر أومجنون مطبق بالإجماع ومن تقطع جنونه وأثر في زمن إفاقته .. ولا صغير على الأصح يقبل المميز ان لم يجرب عليه الكذب سليما من أسباب الفسق وخوارم المروءة)(4)

وهكذا نجدهم متفقون على أن أي شخص بهذه المواصفات البسيطة في أي بلد من بلاد الإسلام يمكنه أن يروي ما يشاء، وتصبح روايته بعد ذلك حديثا لرسول الله ﷺ أو أثرا موقوفا.. ومهما يكن فإنها ستصبح دينا تكلف الأمة على بكرة أبيها بالتدين به حتى لو خالف قرآنها وعقلها وكل القيم التي تؤمن بها.

---

(1) المعجم الكبير للطبرانى: 8/379. وغيره.

(2) الحاكم النيسابوري : معرفة علوم الحديث، ص53.

(3) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية، ص 103 .

(4) السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر،تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي،، 1/300.

ولا يستغرب من السلفية أن يقولوا هذا، وهم أنفسهم الذين جوزوا المعاصي بل الكفر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهل يمكن أن يشترطوا في الراوي من الشروط ما لم يشترطوه في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

ولهذا فإنهم نصوا على قبول رواية الفاسق الذي تاب من فسقه.. أو الكافر الذي غير دينه، وتحول إلى الإسلام.. بشرط واحد فقط، وهو أن تكون له علاقة طيبة بأهل الحديث، وأن يكون بعيدا عن التجهم والجهميين، بعيدا عن أي معارضة تقوم ضد السلطة.

ولهذا نرى في واقعنا كيف يتحول الفاسق عند السلفية من مدمن مخدرات، ومرتكب لأبشع الجرائم بمجرد توبته وإطالة لحيته وتقصير قميصه إلى علم من أعلام الدين ورمز من رموز السنة، تكال له كل مكاييل الثناء المادية والمعنوية.

وهكذا خُدع أسلاف السلفية بأمثال هؤلاء الذين يزينون ظاهرهم بما يتناسب مع أهواء المحدثين، ثم يخترعون أي فكرة، ويضعون أي قصة، ثم يضعون معها إسنادا مناسبا ليفسروا به القرآن والدين والحياة.

بل إن المحدثين ـ وحرصا على التشجيع على كثرة الرواية ـ تساهلوا في الكثير من الشروط التي وضعوها، يقول العراقي (ت806هـ): (.. الذين لم يشترطوا على الإسلام مزيداً لم يشترطوا ثبوت العدالة ظاهرا، بل اكتفوا بعدم ثبوت ما ينافي العدالة فمن ظهر منه ما ينافي العدالة لم يقبلوا شهادته ولا روايته، وأما من اشترط العدالة وهم أكثر العلماء فاشترطوا في العدالة المروءة)[1]

وقال ابن عبد البر(ت463هـ): (كل حامل علم معروف العناية به فهو عدل محمول في أمره أبدا على العدالة حتى تبين جرحه)[2]

وقال ابن حبان: (العدل من لم يعرف منه الجرح ضد التعديل، فمن لم يعلم بجرح عنهم وإنما كلفوا الحكم بالظاهر من الأشياء غير المغيب عنهم)[3]

وقال الخطيب : (العدل هو من عرف بأداء فرائضه ولزوم ما أمر به، وتوقي ما نهي عنه، وتجنب الفواحش المسقطة، وتحرى الحق والواجب في أفعاله ومعاملاته، والتوقي في لفظه مما يثلم الدين والمروءة، فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه، ومعروف بالصدق في حديثه)[4]

1()) التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح،1/136.

2()) التقييد والإيضاح، ص114.

3() ابن حبان: الثقات، 1/ 11 ـ 13.

4() الكفاية ص 102 - 103 .

بل إنه اعترض على بعضهم عندما عرف العدالة بقوله: (إنها ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة)(1)، بأن ذلك غير صحيح لكونه (تشديدا لايتم وجوده إلا في حق المرسلين المعصومين، وإن هذا ليس معنى العدالة لغة.. وأن العدل : هو المتوسط في الأمور، الذي يغلب خيره على شره، ويطمئن القلب إلى خبره)(2)

ومن عجائب الاستدلالات على هذا التيسير والتخفيف استدلالاهم بقوله: (الله سبحانه وتعالى وصف أمه محمد ﷺ بالوساطة وهي العدالة، فصار المسلم عدلا لا يحتاج إلى سؤال عنه عملا بنص القرآن، كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]، فقد فهموا من الآية الكريمة أن أمر الله تعالى بالتثبت مشروط بالفسق، فما لم يظهر لا يجب التثبت فيه)(3)

واستدلوا على ذلك بالإجماع القائم على أن (الصحابة كانوا متفقين على قبول أقوال العبيد والنسوان والأعراب المجاهيل لما ظهر إسلامهم وسلامتهم من الفسق الظاهر) (4)

واستدلوا على ذلك بأن (الأصل في الإسلام البراءة والعدالة، إذ الفسق طارئ عليه، فيحمل على السلامة ما دام مسلما، وصدقه حينئذ أرجح من كذبه، فيؤخذ به، مع أن الفقهاء قد أجمعوا على ان الصبي إذا بلغ، بلغ عدلا، لأنه لا تكليف عليه في الصغر، ويقبلون قول المسلم إذا أخبر عن الماء بأنه طاهر، واللحم بأنه مذكى، وإذا عرض سلعة للبيع، وقال: إنها ملكة، أو أم الناس وأخبر أنه متوضئ، ففي كل هذه الأخبار يصدق بدون بحث اكتفاءً بظاهر إسلامه)) (5)

واستدلوا على ذلك بأنه (أنه لو أسلم كافر وروى عقيب إسلامه خبرا من غير مهلة،فمع إسلامه وعدم وجود ما يوجب فسقه بعد إسلامه، يمتنع رد روايته، وإذا قبلت روايته حال إسلامه، فطول مدته في الإسلام أولى أن لا توجب رده)(6)

واستدلوا على ذلك بأنه لو تشددوا في الشروط، فستضيع الكثير من الثروة الحديثية التي جمعوها، فقد حدث عبدالله بن أحمد بن حنبل قال :(سألت أبي، متى يجوز سماع الصبي في الحديث؟ فقال : إذا عقل وضبط، قلت : فإنه بلغني عن رجل –

1() ذكره ابن حجر في نزهة النظر ص 25.

2() شرح بغية الأمل ص 111-112.

3() الآمدي : الإحكام،2/82

4() الآمدي: الإحكام، 2/82

5() الر ازي : المحصول في علم الأصول، 2/ 199.

6() الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام، 2/ 81.

سميته- أنه قال : لايجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة، لأن النبي ﷺ رد البراء وابن عمر استصغرهم يوم بدر، فأنكر قوله هذا، وقال : بئس القول ؛ يجوز سماعه إذا عقل.فكيف يُصنع بسيفان بن عيينة ووكيع، وذكر أيضا قوما)[1]

وهذا يبين أن من الأسباب النفسية التي تجعل المحدثين يتساهلون في الشروط هو أنهم لو تشددوا فيها، فسينقص عدد الرواة، وتنقص عدد الأحاديث بذلك، وهم لا يريدونها أن تنقص.

وفوق ذلك التساهل كله، تساهلوا مع من يزكي الرواة، ويبين للمحدث وثاقتهم، ذلك أن المحدث مشغول الوقت بالحفظ المراجعة والكتابة والرحلة، ولذلك يصعب عليه أن يخالط الناس حتى يميز الثقة من غير الثقة.. فلذلك نصوا على أنه (تثبت عدالة الراوي بتنصيص عالمين عليها)[2]، وقال ابن الصلاح تثبت بعدلين .. ثم عَدَل عن ذلك، فقال (تثبت بمعدِلٍ واحد)[3]

وقد نقل الخطيب البغدادي إجماع المحدثين على ذلك، فقال: (أجمع أهل العلم على أنه لا يقبل إلا خبر العدل كما أنه لا تقبل إلا شهادة العدل، ولما ثبت ذلك وجب متى لم تعرف عدالة المخبر والشاهد أن يسأل عنهما أو يستخبر عن أحوالهما أهل المعرفة بهما، إذ لا سبيل إلى العلم بما هما عليه إلا بالرجوع إلى قول من كان بهما عارفا في تزكيتهما فدل على انه لابد منه) [4]

وقد نص الآمدي على أدلتهم على ذلك، فقال: (الذي عليه الأكثر إنما هو الاكتفاء بالواحد في باب الرواية دون الشهادة، وهو أشبه، وذلك لأنه لا نص ولا إجماع في هذه المسألة، يدل على تعيين أحد هذه المذاهب، فلم يبق غير التشبيه والقياس، ولا يخفى إن العدالة شرط في قبول الشهادة والرواية، والشرط لا يزيد على مشروطه، وقد اعتبروا العدد في قبول الشهادة دون الرواية)[5]

ثالثا ـ التساهل مع المدلسين:

من أخطر الظواهر التي أصابت علم الحديث في مقاتل لم يجد لها حلا ولا علاجا ظاهرة التدليس[6]، والتي جعلته يتساهل في الحكم على أصحابها خشية أن تضيع كل جهود

1() - أخرجه الخطيب في الكفاية ص 80-81 .

2() السيوطي: تدريب الراوي، 1/ 301.

3() ابن الصلاح، مقدمة ابن ا لصلاح،160

4() الخطيب البغدادي: الكفاية، 1/ 34.

5() الآمدي: الإحكام، 2/ 316.

6() قال ابن حجر في تعريفه:واشتقاقه من الدَلَسَ بالتحريك، وهو اختلاط الظلام بالنور ؛ سمي بذلك لاشتراكهما في الخفاء)، نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص 39)

المحدثين سدى.. ذلك أنه ـ بإقرار المحدثين ـ لم يكـد ينجـو من التدليس أحد من الرواة، بل حتى من كبارهم.

وتكمن خطورة التدليس في أن له علاقة بأهم وأدق علـوم الحـــديث: علم الرجـــال، وعلم العلـــل، وعلم المصـــطلح .. بالإضـافة إلى كونـه سـببا غامضـا خفيـا يصـعب تحديـده بدقـة.. بالإضافة إلى اختلاف العلماء في تحديد مراتبـه وتعريفهـا وبيـان ضوابطها، واختلافهم فيمن يتصف بها من الرواة ..

والأخطر من ذلـك كلـه أن أكـثر رجـال البخـاري ومسـلم ـ وهم الذين يعتبرهم المحدثون في أعلى درجات الوثاقة ـ ذكـروا في المدلسين.. فكيف بغيرهم؟

ولذلك فقد استعمل المحدثون كل ما أوتوا من حيلة لتبرير التدليسات التي وقـع فيهـا رجـالهم، وخاصـة من يعتـبرونهم من الثقاة، كما صنع الحافـظ ابن حجـر العسـقلاني (المتـوفى 852 هــ) في كتابـه (تعريـف أهـل التقـديس بمـراتب الموصـوفين بالتـدليس)، والـذي جمـع فيـه من رواة الكتب السـتة وغـيرهم، وقسمهم على مراتب خمس ؛ لكل واحدة منها ضابط ووصف.

وحتى نفهم خطورة المسألة، ودورها في القضاء على كـل تلـك المفـاخر الـتي يزعمهـا السـلفية لأنفسـهم ولأسـلافهم، فسننقل هنا من كلامهم ما يبين أنواع التدليس والأضرار الناتجة عنها، لنكتشف من خلال ذلك الثغرات الخطيرة الـتي تكمن في علم الرواية.

فمن أقسام التـدليس مـا سـموه [تـدليس الشـيوخ]، وقـد عرفه الخطيب بقوله: (.. أن يروي المحدث عن شيخ سمع منه حديثاً، فيغير اسـمه، أو كنيتـه، أو نسـبه، أو حالـه المشـهور من أمره ؛ لئلا يعرف) (1)

وعرفه ابن الصلاح بقولـه: (هـو أن يـروي عن شـيخ حـديثاً سمعه منه ؛ فيسميه أو يكنيه بما لا يُعرف به كي لا يُعرف)(2)

ومن الأمثلة الـتي يوردهـا المحـدثون للدلالـة على صـعوبة التعـرف على التـدليس مـا ورووا أنـه اجتمـع أصـحاب هشـيم ؛ فقـالوا : لا نكتب عنـه شـيئا ممـا يُدَلِّسُـه ؛ ففطن لـذلك، فلمـا جلس قال : حدثنا حصـين ومغـيرة عن إبـراهيم ؛ فحـدث بعـده أحـاديث، فلمـا فـرغ قـال : هـل دلسـت عليكم شـيئا ؟ قـالوا : لا.فقـال : بلى كـل مـا حـدثتكم عن حصـين فهـو سـماعي، ولم أسمع من مغيرة من ذلك شيئاً(3).

ويكفي هذان لإدراك خطورة هـذا النـوع من التـدليس، لأن

---

(1) الكفاية للخطيب البغدادي (ص 365)

(2) مقدمة ابن الصلاح (ص167)

(3) معرفة علوم الحديث (ص 105)

قيام علم الحديث على الرجال، والتعمية وتعمد إخفاء الضعفاء، بمثابـة التسـتر على المجـرمين، وكـان الأصـل بالمحـدثين أن يتعاملوا مع المتسترين على الرواة الكذابين والضعفاء، بمثل ما تتعامل به القوانين مع المتسترين على المجرمين، لكنا للأسـف لم نرى ذلك.. وكأن الكذب على رسول الله ﷺ أقـل جرمـا من غيره من الجرائم.

والقسم الثاني من التدليس هو تدليس الإسناد، وقد عرفه أبو بكر بن البزار بقوله: (هو أن يروي عمن قد سمع منـه مـالم يسمعه منه من غير أن يذكر أنه سمعه منه)[1].

وعرفـه ابن حجـر بأنـه: (.. أن يـروي عمن لقيـه شـيئاً لم يسمعه منه بصيغه محتملة، ويلتحق بـه من رآه ولم يجالسـه ... وإذا روى عمن عاصره، ولم يثبت لقيه له شيئاً بصيغه محتمله ؛ فهو الإرسال الخفي) [2]

وقـال: (والـذي يظهـر من تصـرفات الحـذاق منهم أن التـــدليس مختص بـــاللقي ؛ فقـــد أطبقـــوا على أن روايـــة المخضـرمين مثـل : قيس بن أبي حـازم، وأبي عثمـان النهـدي وغيرهما عن النبي ﷺ من قبيل المرسل لا من قبيـل المـدلس) [3]

والتأمل في هذه التعاريف وحـدها كـاف في بيـان خطـورة التدليس الذي لم يكد ينجو منه أحد.. ولهذا نجد مشايخ السـلف يعتذرون لأنفسهم إن اكتشف تدليسهم بأن لهم أسوة في ذلـك بمن سـبقهم من المحـدثين الثقـاة، قـال ابن المبـارك : (قلت لهشيم : لِمَ تُـدَلِّس، وأنت كثـير الحـديث ؟ فقـال : كبـيراك قـد دَلّسا الأعمش وسفيان) [4]

بل يذكرون بأن أول من سن سنة التدليس الصـحابة، كمـا قال الذهبي تعليقا على قول شـعبة: (كـان أبـو هريـرة يـدلس): (قلت [أي الذهبي] : تدليس الصحابة كثـير، ولا عيب فيـه، فـإن تدليسهم عن صاحب أكبر منهم والصحابة كلهم عدول)[5]

لكن لسـت أدري كيـف يسـتقيم هـذا مـع أن أبـا هريـرة لا يروي فقط أقوالا بل يضيف إليها مواقف حصلت له، مع أنهـا لم تحصل.. فهو يصدر معظم رواياته بقوله: قال رسول اللـه ﷺ أو سمعت، أو حدثني دون أن يكـون سـمع من النـبي ﷺ أو تحـدث معه.. بل إنه فوق ذلك روى مشاهد كثيرة لم يحضرها، كحديثـه عن فتح خيبر، وحـديث دخولـه على رقيـة زوجـة عثمـان، الـتي

1() التقييد والإيضاح للعراقي (ص 96، 7 9(

2() تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (ص 68-69)

3() النكت على كتاب بن الصلاح (2/623)

4() تهذيب التهذيب (4/281)

5() سير النبلاء 2/608.

توفيت في الثانية من الهجرة، رغم أنه أسلم بعد فتح خيبر سنة سبع من الهجرة.. وأنه أفتى بفطر من أصبح جنبا في رمضان قبل الغسل، ولما بلغه عن عائشة وأم سلمة خلاف ذلك، قال: إنه لم يسمعه من النبي ﷺ وإنما أخبره به الفضل بن عباس.

لكن المحدثين وجدوا مبررات تنفي هذا الغموض، وتستر هذه الثغرة، فذكروا أن قول أبي هريرة: (سمعت، أو حدثني، أو قال فلان، أو قال رسول الله ﷺ) حتى ولو لم يحصل ذلك كله، فإنه مرسل من الصحابة .. والصحابة كلهم عدول.

واعتذروا لذلك أيضا بما قال ابن سيرين: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم...)(1)

وهذا تبرير أخطر، لأنه يدل على أن الأمر كان قبل ذلك سائبا يحدث من شاء بما شاء، من غير أن يطالب بأي بينة.

وقد رووا في ذلك عن حميد قوله: (كنا مع أنس بن مالك، فقال: والله ما كل ما نحدثكم سمعناه من رسول الله ﷺ، ولكن كان يحدث بعضنا بعضا ولا يتهم بعضنا بعضا)(2)

وعن البراء، قال: (ما كل الحديث سمعناه من رسول الله ﷺ كان يحدثنا أصحابنا عنه، بل كانت تشغلنا عنه رعية الإبل)(3)

وقال: (ليس كلنا كان يسمع حديث رسول الله ﷺ إذ كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون - يومئذ - فيحدث الشاهد الغائب)(4)

وهذا عجيب .. ويدل على سذاجة كبيرة، فمنذ متى كان الناس لا يكذبون.. وهل هناك عصر من العصور تقاعد فيه الشيطان عن الوسوسة إلى الناس، بل كيف يدعون هذا، وهم يرمون أنبياء الله، بل يرمون خليله عليه السلام بكونه كذب ثلاث مرات.

لكن ما أسهل أن يجد المحدثون مصطلحا معينا، ويضعوا معه قانونا استثنائيا حتى لا ترمى روايات أبي هريرة أو غيره من المدلسين، يقول ابن الصلاح: (ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ونحوه ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي، مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله ﷺ ولم يسمعوه منه؛ لأن ذلك في حكم الموصول المسند؛ لأن روايتهم عن الصحابة، والجهالة بالصحابي غير قادحة؛ لأن الصحابة كلهم عدول)(5).. و(الصحابة جميعا عدول مرضيين،

1() صحيح مسلم (بشرح النووي) (1/173)
2() الجامع لأخلاق الراوي، (1/174، 175)
3() أحمد، رقم (18516)
4() الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (1/174)
5() علوم الحديث، ابن الصلاح، ص50، 51.

فإن الجهل بأسمائهم في السند لا يضر، وعليه فإن العلم بهم والجهل سواء، وأن السند متصل غير منقطع، ويكون - حينئذ - حجة يلزم العمل بها)(1)

ويقول السيوطي ــ معبرا عن وجهة نظر المحدثين في ذلك ـ : (أما مرسل الصحابي كإخباره عن شيء فعله النبي ﷺ أو نحوه، مما يعلم أنه لم يحضره لصغر سنه أو تأخر إسلامه، فمحكوم بصحته على المذهب الصحيح الذي قطع به الجمهور من أصحابنا وغيرهم، وأطبق عليه المحدثون المشترطون للصحيح القائلون بضعف المرسل، وفي الصحيحين من ذلك ما لا يحصى؛ لأن أكثر رواياتهم عن الصحابة وكلهم عدول، ورواياتهم عن غيرهم نادرة، وإذا رووها وبينوها، بل أكثر ما رواه الصحابة عن التابعين ليست أحاديث مرفوعة، بل إسرائيليات أو حكايات أو موقوفات)(2)

وما ذكره السيوطي خطير جدا، فهو يذكر أن في الصحيحين من ذلك ما لا يحصى.. ثم بعد ذلك يتهمون كل من طعن في حديث من الصحيحين بسبب مخالفته للقرآن الكريم أو للعقل أو للقيم الإنسانية بأنه زنديق وضال مضل..

رابعا ـ الذاتية في قبول الرواة:

تعتبر الذاتية أبشع مظهر من مظاهر الاحتيال على الحقائق، ذلك أن الباحث بسببها لا يبحث عن الحقيقة كما هي في الواقع، وإنما يبحث في كيفية إقناع الآخرين بتصوره هو للحقيقة.

وقد كان علم الحديث ـ بسبب الاصطلاحات التي اصطلح عليها أهله ـ أكبر مصدر من المصادر التي تخول للمحدث أن يصحح ما يشاء من الأحاديث، ويضعف ما يشاء منها، فالأمر سهل يسير، والقواعد الحديثية والخلافات الواقعة فيه تيسر على المحدث أن يتعامل بهذه الطريقة.

ولهذا نجد المحدثين يراعون آراءهم العقدية في الحكم على صحة الحديث أكثر مما يراعون البحث عن حقيقة قول رسول الله ﷺ له أو عدم قوله.

ومن الأمثلة على ذلك موقف المحدثين من حديث تجسيمي رواه البخاري بسنده عن شريك بن عبد الله أنه قال سمعت أنس بن مالك ـ ثم ذكر حديث الإسراء، وفيه: (.. ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، **ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى**، فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة

---

(1) التأصيل الشرعي لقواعد المحدثين، د. عبد الله شعبان، ص470.
(2) تدريب الراوي، (1/ 207)

على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة. قال إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت **فعلا به إلى الجبار فقال وهو مكانه** يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات...)(1)

فمدار هذا الحديث الخطير الذي يثبت الحركة والتنقل لله، على الراوي (شريك)، وهو المتهم بالتعبير بهذه الألفاظ التجسيمية، ذلك أنه روى هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك فلم يذكر هذه الألفاظ الخطيرة.

لكن السلفية قبلوا هذا الحديث على الرغم من أن الذهبي قال عنه: (شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني تابعي صدوق.وقال ابن معين لا بأس به. وقال هو والنسائي ليس بالقوي)(2)، وقال ابن حجر: (صدوق يخطىء)(3)

والسبب في ذلك أن الحديث متوافق مع قولهم بجواز الحركة على الله.. بل العجيب أن ابن القيم احتج بخبر شريك في هذه المسألة العقدية الخطيرة، فقال في قصيدته النونية التي نظمها في العقيدة :(فقدرت من قربه من ربه قوسان)(4)

في نفس الوقت الذي رفض روايته في أمر فرعي بسيط يتعلق بالسيرة، فقال في زاد المعاد: (.. وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه فهذا مما عد من أغلاط شريك الثمانية وسوء حفظه لحديث الإسراء)(5)

هذا مجرد مثال عن الذاتية في الحكم على الرواة، وانطلاقا منها يكون الحكم على الحديث، وهم في ذلك يشبهون أولئك المحامون التجار الذين يدافعون عمن يدفع لهم بغض النظر عن حقانية قضيته أو عدم حقانيتها، استغلالا منهم للثغرات القانونية، وهكذا فعل المحدثون استغلالا للثغرات الحديثية الكثيرة.

ومن أمثلتها الاختلاف في الحكم على الرواة قبولا أو رفضا.. وهو أيسر مجال وأخصبه للدفاع عن الحديث أو رده، ذلك أن المحدثين اختلفوا في أكثر الرواة، كما رأينا اختلافهم في شريك.. ومن أمثلة ذلك اختلافهم في أسامة بن زيد الليثي

1() صحيح البخاري 6/370 (7079)
2()   ميزان الإعتدال للذهبي 3/372 .
3()   تقريب التهذيب266.
4() انظر شرح قصيدة ابن القيم1/198
5() زاد المعاد : 1/99

مولاهم أبو زيد المدني (ت153هـ)[1]، والذي قال فيه أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت 333هـ): (اختلفوا فيه، وقيل: ثقة، وقيل: غير ثقة)[2]

ولهذا فإن من يريد أن يصحح حديثا يرد فيه هذا الراوي، فإنه سيؤكد تصحيحه بما يقوله الموثقون له، فيذكر عن ابن الجنيد إبراهيم بن عبد الله الختلي (ت260هـ) قوله: (مديني صالح)[3]. وقال في رواية الدارمي (ت 280هـ) : (ليس به بأس)[4]، ويذكر عن الذهبي قوله: (وقد روى عباس عن يحيى: ثقة، وروى أحمد بن أبي مريم عن يحيى: ثقة حجة، فابن معين حسن الرأي في أسامة)[5]

وإن لم يعجبه الحديث وأراد تضعيفه، فإنه سيذكر أن النسائي (ت 303هـ) قال عنه: (ليس بثقة)[6]، وقال أيضاً: (ليس بالقوي)[7]، ويذكر أن عبد الله بن أحمد روى عن أبيه: (روى أسامة بن زيد عن نافع أحاديث مناكير. قلت له: إن أسامة حسن الحديث. قال: إن تدبرت حديثه فستعرف النكرة فيها)[8]، ويذكر أن عبد الله قال: (سئل أبي عنه فقال: هو دونه، وَحرَّك يَدَهُ)[9]

ويضيف لهذا قوله ــ من باب تأكيد التوثيق ــ : والحافظ الذهبي من النقاد المتأخرين، وقد شهد الحافظ ابن حجر له بأنه: من أهل الاستقراء التام في الرجال.

وهكذا يمكن أن يستغل أمثال هذه الثغرات الكثيرة، ليصحح ما يشاء، ويضعف ما يشاء.. بل إن الروايات ــ أحيانا كثيرة ــ تختلف عن أحدهم في توثيق الراوي الواحد، فتارة يعدله، وتارة يجرحه، وهنا يجد المحدث مجالا خصبا لإبراز مهاراته في الانتقاء بحسب مزاجه الحديثي.

ومن أمثلة ذلك موقف الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ) من الراوي (إسماعيل بن زكريا بن مُرَّة الخُلقاني الأسدي (ت 194هـ)، فقد قال عنه في رواية عبد الله: (حديثه حديث مقارب)[10]، وقال عنه في رواية عبد الملك الميموني (ت 274هـ): (أما الأحاديث المشهورة التي يرويها فهو فيها مقارب

---

[1] () سير أعلام النبلاء 6/342.

[2] () إكمال مغلطاي 2/58.

[3] () سؤالات ابن الجنيد ص402 رقم (547)

[4] () تاريخ الدارمي ص66 رقم (118)

[5] () سير أعلام النبلاء 6/343.

[6] () الضعفاء للنسائي رقم (53)

[7] () الكامل 1/385، والضعفاء للعقيلي 1/96.

[8] () العلل (1428) وأيضا (503)، الجرح والتعديل 2/284 (1031)

[9] () العلل رقم (1472)، (1473)

[10] () تهذيب الكمال 3/93.

الحديث، صالح، ولكنه ليس ينشرح الصدر له، ليس يعرف هكذا يريد بالطلب)[1]، وقال عنه في رواية أحمد بن ثابت أبـو يحـيى: (ضعيف الحديث)[2]، وقال عنه في رواية أبي داود: (ما كـان بـه بأس)[3]

وهكــذا موقفــه من حفص بن ســليمان الأســدي الــبزاز الكوفي الغاضري (ت 180هـ)[4]، فقد قال في رواية عبـد اللـه، وحنبل بن إسحاق: متروك الحديث[5]، وقال عنه في رواية عبــد الله: صالح[6]، وقال عنه في رواية حنبل بن إسحاق: ما كان بــه بأس[7].

ومثل ذلك أبو زرعة عبيد الله بن عبـد الكـريم الـرازي (ت 264هـ)، فقد تناقضت الأقوال عنه في (الحكم بن عبدالله بن إسـحاق بن الأعـرج البصـري)، حيث سـئل عنـه فقـال: بصـري ثقة[8]، وقال مرة أخرى: فيه لين[9].

ومثل ذلك موقفـه من خطـاب بن القاسـم الحـراني، فقـد سئل عنه فقال: قاضي حران ثقة[10]، وقال عنه: منكر الحـديث يقال إنه اختلط قبل موته[11].

ومثل ذلك موقـف أحمـد بن شـعيب النسـائي (ت 303هـ)، من سماك بن حرب بن أوس بن خالد الذهلي البكـري الكـوفي (ت 123هـ)، فقد قال عنه: سماك ليس بالقوي وكان يقبل التلقين[12]، وقــال عنــه: ليس ممن يعتمــد عليــه إذا انفــرد بالحديث؛ لأنه كان يقبل التلقين[13]، وقال عنـه: ليس بـه بـأس، وفي حديثه شيء[14].

وهكـذا نجـد الأمثلـة الكثـيرة في تناقضـات الروايـات عن المحدث الواحد، وحول الراوي الواحد، بل إن الأمر يصل أحيانــا إلى التنــاقض في الحكم على الــراوي الواحــد من المحــدث الواحد، بـل في الجملـة الواحـدة، وهنـا تتوقـف كـل العقـول إلا العقل السلفي الذي يسهل عليه تقبـل المتناقضـات، بـل يجتهـد

1() سؤالات الميموني رقم (475)
2() تهذيب التهذيب 1/298.
3() تهذيب الكمال 3/94.
4() التقريب رقم (1405)
5() تهذيب التهذيب 2/700.
6() تاريخ بغداد 8/187.
7() تاريخ بغداد 8/187
8() الجرح والتعديل 2/120.
9() الجرح والتعديل 2/120.
10() الجرح والتعديل 2/120.
11() تهذيب التهذيب 3/146.
12() السنن الصغرى 8/319 رقم (5677)
13() السنن الكبرى 3/368 رقم (3295) وسير أعلام النبلاء 5/248.
14() تهذيب الكمال 12/120، وسير أعلام النبلاء 5/247، وتهذيب التهذيب 6/234.

في تبريرها، بل في تفعيلها، فإن أعجبه الحديث غلب جانب القبول، وإن لم يعجبه غلب جانب الرد.

ومن أمثلة ذلك قول يعقوب بن شيبة (ت262هـ) في الراوي الربيع بن صبيح، فقد قال عنه: (رجل صالح، صدوق ثقة، ضعيف جداً)(1)

ومثل ذلك قول يعقوب بن سفيان (ت277هـ) في محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري: (ثقة عدل، في حديثه بعض المقال، لَيِّن الحديث عندهم) (2)

ومثل ذلك قوله أبي حاتم الرازي (ت 277هـ) في محمد بن الحسن بن زبالة: (واهي الحديث، ضعيف الحديث، ذاهب الحديث، منكر الحديث، عنده مناكير، وليس بمتروك الحديث) (3)

ومثل ذلك قول أبي زرعة الرازي (ت 264هـ) في عمر بن عطاء بن وراز: (ثقة لَيِّن)(4)

ولا يتوقف الأمر على الخلاف في آحاد الرواة، بل نجد اختلافهم حتى في تقييم كبار المحدثين من أصحاب المصنفات الحديثية الكبرى.. ولهذا نجد السلفية إذا ما روى أحدهم حديثا مخالفا لهم، ولم يتمكنوا من رده سندا، اتهموا صاحب المصنف الذي نقل عنه.. وما أسهل أن يجدوا من جرحه.

ومن أمثلة ذلك اتهامهم للحاكم بالتشيع بسبب روايته لأحاديث في فضل الإمام علي وآل البيت كتصحيحه لحديث الطير، وقوله عنه: (هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.وقد رواه عن أنس جماعةٌ من أصحابه، زيادة على ثلاثين نفسًا، ثم صحَّت الروايةُ عن عليٍّ وأبي سعيد الخدري وسفينة)(5)

قال الخطيب: (وكان ابن البيِّع ـ الحاكم ـ يميلُ إلى التشيُّع ؛ فحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأرموي، بنيسابور، وكان شيخًا صالحًا فاضلًا عالمًا، قال : جمع الحاكمُ أبو عبد الله أحاديث زعم أنها صحاحٌ على شرط البخاري ومسلم، يلزمهما إخراجها في صحيحيهما، منها : حديث الطائر، ومن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك، ولم يلتفتوا فيه إلى قوله، ولا صوَّبوه في فعله)(6)

لكنهم إن كان التجريح مرتبطا بمن يقبلون حديثهم حملوا

---

(1) التقريب رقم (1895)
(2) التقريب رقم (6081)
(3) التقريب، رقم (5815)
(4) التقريب رقم (4949)
(5) المستدرك (3 /130، 131)
(6) التاريخ (5 / 435)

ذلك على ما يسمونه [تجريح الأقران]، وأنه لا يضر، وقد عقد ابن عبد البر في كتاب العلم بابا للأقران والمتعاصرين بعضهم في بعض، ورأى أن أهل العلم لا يقبل جرح بعضهم بعض إن كانوا متعاصرين(1).

وينقلون عن ابن دقيق العيد في ذلك قوله: (الوجوه التي تدخل منها الآفة خمسة أحدها الهوى والغرض وهو شرها وفي تواريخ المتأخرين كثيرة والثاني المخالفة في العقائد والثالث الاختلاف بين المتصوفة وأصحاب العلوم الظاهرة، فوقع تنافر أوجب كلام بعضهم في بعض، والرابع الكلام بسبب الجهل بمراتب العلوم وأكثر ذلك في المتأخرين، والخامس: الأخذ بالذم مع عدم الورع(2).

ولهذا نرى الذهبي لا يقبل قول الجارح إذا كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد وقال: (ان الحاذق اذا تأمل أبي اسحاق الجوزجاني لأهل الكوفة رأى العجب وذلك لشدة انحرافه في النصب وشهرة أهلها بالتشيع، فتراه لا يتوقف في جرح من ذكره منهم بلسان ذلقة وعبارة طلقة حتى انه أخذ الأعمش وأبي نعيم وعبيد الله بن موسى وأساطين الحديث وأركان الرواية)(3)

ولكنه في نفس الوقت نراه يحذر عن الأخذ بجرح الجوزجاني بينما يترجم له في نفس الكتاب ويعتبره أحد أئمة الجرح والتعديل، ويقول عنه: (الجوزجاني إبراهيم بن يعقوب الثقة الحافظ، أحد أئمة الجرح والتعديل، وكان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق في التحامل على علي رضي الله عنه) (4)

وهكذا نجد اختلافهم في الشروط التي وضعوها لقبول الأحاديث أو رفضها، فهي مختلفة اختلافا بينا، بل متناقضا شديدا يمكن استغلاله والعبور منه لتصحيح ما يشاءون تصحيحه، وتضعيف ما يشاءون تضعيفه.

ومن الأمثلة على ذلك اختلافهم في حكم خبر المستور، وهو الراوي الذي روى عنه اثنان فصاعداً، ولم يصدر في حقه جرح ولا تعديل(5) .. فمن المحدثين من يعتبر المستور عدلاً إذا كان في القرون الثلاثة الأولى، فيقبل روايته، بناء على أن الأصل في المسلم العدالة.. بينما يرى آخرون عدم الأخذ بروايته احتياطاً .. كما قال السرخسي: (أما المستور فقد نص محمد في كتاب الاستحسان: على أن خبره كخبر الفاسق،

1() انظر: القاري: شرح نخبة الفكر، 1/ 741.

2() انظر: القاري:شرح نخبة الفكر، 1/ 741..

3() انظر: الذهبي: لسان الميزان، 1/ 17.

4() انظر: الذهبي: لسان الميزان، 1/ 35 ـ 36..

5() أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص271.

وروى الحسن عن أبي حنيفة، أنه بمنزلة العدل في رواية الأخبار لثبوت العدالة ظاهراً، بالحديث المروي عن رسول الله ﷺ، وعن عمر: (المسلمون عدول بعضهم على بعض).. ولكن ما ذكره في الاستحسان أصح في زماننا، فإن الفسوق غالب في أهل هذا الزمان، فلا تعتمد رواية المستور ما لم تتبين عدالته، كما لم تعتمد شهادته في القضاء قبل أن تظهر عدالته..)(1)

وهذا الاختلاف بالإضافة لدخوله في التساهل في شروط الرواة يدخل هنا من حيث كونه سلما لتحقيق ذاتية المحدث، فإن ورد الحديث للمحدث وأعجبه، صحح الحديث، ودافع عن كون الراوي مستورا بالحجج التي يدلي بها من يجيز روايته، وإن لم يعجبه الحديث ضعفه، واستدل بحجج من يرى تضعيفه.

وهكذا نراهم يستغلون الحديث المرسل.. وهو (ما رفعه التابعي خاصة إلى النبي ﷺ)(2) كما قال السرخسي: (فأما مراسيل القرن الثاني والثالث حجة في قول علمائنا، وقال الشافعي: لا يكون حجة إلا إذا تأيد بآية أو سنة مشهورة، أو اشتهر العمل به من السلف، أو اتصل من وجه آخر، قال –أي الشافعي-: ولهذا جعلت مراسيل سعيد بن المسيب حجة لأني اتبعتها فوجدتها مسانيد)(3)

وهكذا نرى استغلالهم للمسألة التي يطلقون عليها [إنكار الراوي للحديث الذي رواه]، فقد اختلفوا أيضا، فقال بعضهم: لا يعمل به. وقال آخرون: بل يعمل به، كما قال السرخسي: (وبيان هذا فيما رواه ربيعة عن سهيل بن أبي صالح من حديث: (القضاء بالشاهد واليمين)، ثم قيل لسهيل: إن ربيعة يروي عنك هذا الحديث فلم يذكره، وجعل يروي ويقول: حدثني ربيعة عني وهو ثقة...ثم قال السرخسي: وقد عمل الشافعي بالحديث مع إنكار الراوي، ولم يعمل به علماؤنا، وذكر سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن النبي قال: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل...الحديث).. ثم روي أن ابن جريح سأل الزهري عن هذا الحديث فلم يعرفه، ثم عمل به محمد والشافعي مع إنكار الراوي، ولم يعمل به أبو حنيفة وأبو يوسف لإنكار الراوي إياه...)(4)

هذه نماذج عن المغالطات التي يستعملها السلفية في تصحيحهم للأحاديث وتضعيفها، ولهذا نراهم ينكرون على غيرهم

1() أصول السرخسي (27:1)
2() أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص334-335.
3() أصول السرخسي (360:1)
4() أصول السرخسي(3:2)

الكلام في الحـديث تصـحيحا أو تضـعيفا، لأنهم يتصـورون أنـه لا يحــق لأحــد أن يتحــدث في الروايــة إلا إذا كــان صــاحب عقــل سلفي.

التوهم .. لا التعقل

الركن الرابع الذي يقوم عليه بنيان العقل السلفي هو [التوهم] بدل التعقل، ونعني به ما يسميه الفلاسفة وعلماء النفس القدامى غلبة القوة الوهمية على القوة العقلية.

ولنفهم هذا المعنى جيدا، لارتباطه بتحليل العقل السلفي، فإننا ننقل هنا ـ باختصار ـ ما ذكره فلاسفة المسلمين وغيرهم عند ذكرهم لأنواع القوى التي تتميز بها أصناف النفوس، ومعها تتميز أصناف العقول، ذلك أننا من خلال تنزيل ما ذكروه على العقل السلفي وجدنا تحليلا علميا منطقيا متوافقا مع القرآن الكريم أولا، ومع الواقع العقلي السلفي ثانيا.

وسنشرح ذلك هنا ببعض التبسيط.. فقد ذكروا أن للنفس الإنسانية أربع قوى[1] : قوة عقلية ملكية، وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية ..

وذكروا أن من شأن (القوة الأولى)، وهي القوة العقلية الملكية: إدراك حقائق الأمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة.

وأما (القوة الثانية)وهي القوة الغضبية السبعية، فهي موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بأنواع الأذى والتعنيف ونحوها.

وأما (القوة الثالثة)، وهي القوة الشهوية البهيمية، فلا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من الحرص على الشهوات المختلفة، والرغبة الشديدة فيها، واختصار مقاصد الحياة في تحصيلها.

وأما (القوة الرابعة) وهي القوة الوهمية، فذكروا أن من شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع .. وذكروا أن من خصائص هذه القوة إدراك المعاني الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة ..

ثم ذكروا أن هذه القوة تستخدم ثلاثة قوى موجودة في الإنسان هي: (الواهمة والخيال والمتخيلة)، وذكروا أن وظيفة القوة الأولى أي الواهمة إدراك المعاني الجزئية، ووظيفة القوة الثانية أي الخيال إدراك الصور، وظيفة القوة الثالثة أي المتخيلة التركيب والتفصيل بينهما.

والفلاسفة المسلمون يربطون هذه الأنواع الثلاثة للقوى بأنواع النفوس المذكورة في القرآن الكريم: فـ (ما ورد في

1() انظر تفاصيل هذه القوى في: جامع السعادات (ج1، ص 52)، وغيره.

القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء، إشارة إلى القوى الثلاث: العاقلة والسبعية والبهيمية .. فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت مطمئنة، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي، وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت لوامة.وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت أمارة بالسوء لأنه لما اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنما هي الآمرة بالسوء) (1)

وليبسطوا هذه المعاني، فقد شبهوا اجتماع هذه القوى في الإنسان باجتماع حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد.وكان بينها منازعة، وأيها صار غالبا كان الحكم له، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته.

وضربوا مثلا آخر على ذلك (براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق، فالراكب هو العقل، والبهيمة هي الشهوة، والكلب هو الغضب، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان، فإن كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد، واقتحامه في موارد الهلكات وإن كان الكل تحت نهي العين وأمره، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم إلى أيدي السارقين.وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت إشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين أكل، وصار الجميع كالواحد، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية، فتصلح النفس وقواها)(2)

انطلاقا من هذا التحليل للنفس الإنسانية وأنواع القوى الموجودة فيها، نرى من خلال الأدلة الكثيرة التي سنسوق بعضها هنا غلبة القوة الوهمية على القوة العقلية في النفس السلفية.. كما سنرى في الفصل التالي غلبة القوة البهيمية على هذه النفس حين فسرت الدين تفسيرا حسيا، وجعلت كل همها من الحياة الحصول على النعيم الحسي في الآخرة.. كما

1() جامع السعادات (ج1، ص 53)
2() جامع السعادات (ج1، ص 55)

غلبت القوة السبعية على هذه النفس ـ كما سنرى في الفصل السادس من هذا الكتاب ــ حين راحت تمارس كل أصناف التكفير والتضليل والتبديع والعنف باسم الدين، وهي في الحقيقة لم تفعل ذلك إلا من السبع الذي يسكن عقلها وقلبها وجميع لطائفها.

وما ذكره الفلاسفة وعلماء النفس القدامى يوافق تماما ما ذكره القرآن الكريم عن أسلاف السلفية من اليهود، فقد ذكر تغليبهم للقوة الوهمية الحسية على قواهم العقلية التجريدية، ولذلك راحوا كل حين يطلبون إلها حسيا يرضي وهمهم وخيالهم ومداركة الحسية، كما تعالى قال عنهم: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 153]

فهذه الآية الكريمة تختصر مطالب العقل الوهمي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس الملموس، ولهذا سأل هؤلاء رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا حسيا يرونه لا مجرد كلمات يرددها، وقد ذكرهم الله تعالى بأن هذا ليس غريبا عنهم، فقد سأل أجدادهم موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة، فلما لم يفعل اتخذوا العجل ليكون بديلا عن إلههم الذي لم يروه.

وهذا نفس ما حصل في هذه الأمة بسبب تتلمذ العقل السلفي على العقل اليهودي، حيث أن هؤلاء رغبوا عن التنزيه القرآني المتعلق بالله، والذي يغلب عليه التنزيه والتعظيم والتسليم لله، وإدراك أن الله أعظم من أن يدرك أو يحاط به، وأن العجز عن المعرفة هو المعرفة نفسها.. لأن المطلق لا يمكن تحديده، والكامل لا يمكن توصيفه.

لكن هؤلاء رغبوا عن ذلك، وراحوا يتعلقون بما تمليه عليهم قواهم الوهمية الحسية، بل وصل بهم الأمر إلى إنكار وجود ما لم يخضع لقواهم الوهمية، فصاروا بذلك مثل فرعون الذي قال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38]

بل إنهم فعلوا ذلك حين نراهم كل حين يشيدون بمعرفة فرعون بالله، وأنه أعلم من منزهة المسلمين، فقد قال أبو أحمد الكرجي: (قوله إخبارًا عن فرعون ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، حجة على من يزعم أن الله بنفسه في الأرض؛ حال في كل مكان، وينكر كينونته بنفسه في

السماء وعلمه في الأرض. إذ محال أن يقول فرعون هذا القول إلا وقد دلّه موسى -صلى الله عليه- أن إلهه في السماء دون الأرض. فإن كان فرعون أنكر كينونته في السماء وثبته في الأرض فقد وافق القوم فرعون في قوله. وإن كان أنكره في السماء والأرض معًا فقد خالفوا موسى -صلى الله عليه - مع خلافهم لجميع الأنبياء والناس، وأهل الملل كافة سواهم. ولا أعلم في الأرض باطلا إلا وهذا أوحش منه، نعوذ بالله من الضلالة)(1)

وقال سعد بن علي الزنجاني في شرح قصيدته في السنة: (وأخبر عن فرعون أنه قال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ وكان فرعون قد فهم عن موسى أنه يُثبت إلهًا فوق السماء حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتهم موسى بالكذب في ذلك، ومُخالفنا ليس يعلم أن الله فوقه بوجود ذاته فهو أعجز فهمًا من فرعون)(2)

وهكذا نرى أئمتهم في استدلالاتهم العقلية مع المخالفين لهم من المنزهة ينطلقون مما تمليه هذه القوة الوهمية، فقد قال عبدالعزيز الكناني (240 هـ) ـ كما ينقل ابن تيمية ـ :(قال لي أحد الجهمية : أقول : إن الله في كل مكان لا كالشيء في الشيء، ولا كالشيء على الشيء، ولا كالشيء خارجاً عن الشيء، ولا مبايناً للشيء، فقلت : فقد دللت بالقياس والمعقول على أنك لا تعبد شيئاً)(3)

وقد علق عليه ابن تيمية بقوله: (فهذا عبدالعزيز يبين أن القياس والمعقول يوجب أن ما لا يكون في الشيء ولا خارجاً عنه – فإنه لا يكون شيئاً، وأن ذلك صفة معدوم)(4)

ومثله قال الذهبي (748 هـ): (.. ومقالة الجهمية الأولى أنه في جميع الأمكنة، ومقالة متأخري المتكلمين من المعتزلة والماتريدية والأشعرية أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش ولا على السماوات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا هو متصل بهم.. قال لهم أهل السنة والأثر : فإن هذا السلوب نعوت المعدوم تعالى الله جل جلاله عن العدم، بل هو متميز هن خلقه موصوف بما وصف به نفسه في أنه فوق العرش بلا كيف)(5)

1() نكت القرآن لأبي أحمد الكرجي القصاب (ج3 ص567-568)

2() اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم الجوزية (ص 197-198)

3()) درء التعارض 6/118.

4()) مجموع الفتاوى 5/317.

5()) العلو 107، 195.

وقال ابن القيم: (إن كل من أقر بوجود رب للعـالم، مـدبر له، لزمه الإقرار بمباينته لخلقه، وعلوه عليهم، فمن أقر بالرب، فإما أن يقر بأن لـه ذاتـا وماهيـة مخصوصـة أو لا، فـإن لم يقـر بـذلك، لم يقـر بـالرب، فـإن ربـا لا ذات لـه، ولا ماهيـة لـه، هـو والعدم سواء، وإن أقر بأن له ذاتا مخصوصـة وماهيـة، فيمـا أن يقر بتعينها أو يقول: إنها غير معينة، فـإن قـال: إنهـا غـير معينـة كانت خيالا في الذهن لا في الخارج، فإنه لا يوجد في الخارج إلا معينـا، لا سـيما وتلـك الـذات أولى من تعـيين كـل معين، فإنـه يستحيل وقوع الشركة فيها، وأن يوجد لهـا نظـير، فتعـيين ذاتـه سبحا نه واجب. وإذا أقـر بأنهـا معينـة لا كليـة، والعـالم مشـهود معين لا كلي، لـزم قطعامباينـة أحـد المتعيـنين للآخـر، فـإذا لم يباينه لم يعقل تميزه عنه وتعينه. فإن قيـل: هـو يتعين بكونـه لا داخلا فيه، ولا خارجا عنه. قيل: هذا- والله- حقيقة قـولكم، وهـو عين المحال، وهو تصريح منكم بأنه لا ذات له، ولا ماهية تخصه، فإنه لـو كـان لـه ماهيـة يختص بها لكـان تعينها لماهيتـه وذاتـه المخصوصة، وأنتم إنما جعلتم تعيينه أمـرا عـدميا محضـا، ونفيـا صرفا، وهو كونه لا داخل العالم ولا خارجا عنه، وهـذا التعـيين لا يقتضي وجوده مما به يصح على العدم المحض. وأيضا، فالعــدم المحض لا يعين المتعين، فإنـــه لا شـــيء، وإنمـــا يعينـــه ذاتـــه المخصوصة وصفاته، فلزم- قطعـا- من إثبـات ذاتـه تعـيين تلـك الـذات، ومن تعيينهـا مباينتهـا للمخلوقـات، ومن المباينـة العلـو عليها، لما تقدم من تقريره)(1)

وهم ينقلون عن الإمام أحمـد قولـه: (إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله تعالى حين زعم أنه في كل مكــان، ولا يكون في مكان دون مكان. فقل له: أليس كان الله ولا شـيء؟ فسيقول: نعم. فقل له: حين خلق الشيء هل خلقه في نفسـه، أم خارجا عن نفسه؟ فإنه يصير إلى ثلاثة أقاويل: واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلـق في نفسـه، كفـر حين زعم أنـه خلـق الجن والشـياطين وإبليس في نفسـه. وإن قـال: خلقهم خارجـا عن نفسه ثم دخل فيهم، كـان هـذا- أيضـا- كفـرا حين زعم أنـه في كـل مكـان وحش قـذر رديء. وإن قـال خلقهم خارجـا عن نفسه. لم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع)(2)

فالتأمل في هذه النصـوص وغيرهـا يرينـا اسـتعمال العقـل السـلفي لقـواه الوهميـة في محاولـة إدراك الحقـائق الكـبرى، ولهذا نراهم وقعوا في تجسيم الله وتشبيهه بخلقه.

بل إن ابن تيمية يحاول بكل ما أوتي من قـوة المنطـق أن

(1) مختصر الصواعق: (1/ 279- 280)

(2) الرد على الزنادقة والجهمية: ص (95- 96)

يبرهن على ضرورة أن يكون الله جسما حتى يكون موجودا.. فالوجود عنده يقتضي الجسمية، يقول في ذلك:(فالمثبتة يعلمون بصريح العقل امتناع أن يكون موجوداً معيناً مخصوصاً قائماً بنفسه ويكون مع ذلك لا داخل العالم ولا خارجه، وأنه في اصطلاحهم لا جسم ولا عرض ولا جسم ولا متحيز، كما يعلمون أنه يمتنع أن يقال إنه لا قائم بنفسه ولا قائم بغيره.. فإنك إذا استفسرتهم عن معنى التحيز ومعنى الجسم فسروه بما يعلم أنه الموصوف بأنه القائم بنفسه. ولهذا لا يعقل أحد ما هو قائم بنفسه إلا ما يقولون هو متحيز وجسم .. فدعوى المدعين وجود موجود ليس بمتحيز ولا جسم ولا قائم بمتحيز أو جسم مثل دعواهم وجود موجود ليس قائما بنفسه ولا قائما بغيره.. ومن قيل له هل تعقل شيئاً قائماً بنفسه ليس في محل وهو مع هذا ليس بجسم ولا جوهر ولا متحيز ومع هذا إنه لا يجوز أن يكون فوق غيره ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا أمامه ولا وراءه وأنه لا يكون مجامعا له ولا مفارقا له ولا قريبا منه ولا بعيدا عنه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مماسا له ولا محايثا له وأنه لا يشار إليه بأنه هنا أو هناك ولا يشار إلى شيء منه دون شيء ولا يرى منه شيء دون شيء ونحو ذلك من الأوصاف السلبية التي يجب أن يوصف بها ما يقال إنه ليس بجسم ولا متحيز لقال حاكماً بصريح عقله هذه صفة المعدوم لا الموجود)(1)

وهكذا يضعنا ابن تيمية وأصحابه من أعلام المدرسة السلفية بين أمرين: إما أن نجسم الله، أو نقول بعدمه.. فالوجود عندهم قاصر على الأجسام.. وهو نفس ما قاله فرعون والملاحدة واليهود.

بل إن ابن تيمية يطبق جميع أوصاف الأجسام على كل الموجودات، لا يفرق في ذلك بين الله سبحانه وتعالى واجب الوجوب، وبين الممكنات التي خلقها، فيقول: (الوجه السادس أن يقال ما عُلم به أن الموجود الممكن والمحدث لا يكون إلا جسما أو عرضا أو لا يكون إلا جوهرا أو جسما أو عرضا أو لا يكون إلا متحيزاً أو قائما بمتحيز أو لا يكون إلا موصوفا أو لا يكون إلا قائما بنفسه أو بغيره يُعلم به أن الموجود لا يكون إلا كذلك.. فإن الفطرة العقلية التي حكمت بذلك لم تفرق فيه بين موجود وموجود ولكن لما اعتقدت أن الموجود الواجب القديم يمتنع فيه هذا أخرجته من التقسيم لا لأن الفطرة السليمة والعقل الصريح مما يخرج ذلك ونحن لم نتكلم فيما دل على نفي ذلك عن الباري فإن هذا من باب المعارض

(1) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 364)

وسنتكلم عليه وإنما المقصود هنا بيان أن ما به يعلم هذا التقسيم في الممكن والمحدث هو بعينه يعلم به التقسيم في الموجود مطلقا)(1)

وهم لا يكتفون بتحكيم قواهم الوهمية في الحقائق الدينية، بل راحوا يستعملون هذه القوة في إنكارهم للحقائق العلمية، والتي اتفق عليها عليها كل علماء وعقلاء العالم بعد بحوث طويلة.

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك ما ذكره ابن باز في كتابه المسمى بـ (الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب)، وهو من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، فمن أهم الأدلة التي استعملها لإثبات سكون الأرض وعدم حركتها الدليل الحسي الوهمي، فقد قال: (وكما أن هذا القول الباطل - يقصد ثبوت الشمس ودوران الأرض- مخالف للنصوص فهو مخالف للمشاهد المحسوس ومكابرة للمعقول والواقع لم يزل الناس مسلمهم وكافرهم يشاهدون الشمس جارية طالعة وغاربة، ويشاهدون الأرض قارة ثابتة، ويشاهدون كل بلد وكل جبل في جهته لم يتغير من ذلك شيء، ولو كانت الشمس تدور كما يزعمون لكانت البلدان والجبال والأشجار والأنهار والبحار لا قرار لها، ولشاهد الناس البلدان المغربية في المشرق، والمشرقية في المغرب، ولتغيرت القبلة على الناس حتى لا يقرّ لها قرار، وبالجملة فهذا القول فاسد من وجوه كثيرة يطول تعدادها)(2)

ويقول متحدثا عن تجربته الحسية في هذا: (وأنا من جملة الناس الذين شاهدوا سير الشمس وجريانها في مطالعها ومغاربها قبل أن يذهب بصري وكان سني حين ذهاب بصري تسعة عشر عاما، وإنما نبهت على هذا ليعلم القراء أني ممن شاهد آيات السماء والأرض بعيني رأسه دهرا طويلا)(3)

ثم إنه لا يكتفي بذكره لرأيه في المسألة، بل هو يستعمل القوة السبعية في التعامل مع المخالف لرأيه، فيقول: (وكل من تصور هذا القول يعرف بطلانه وفساد قول صاحبه، وأنه بعيد عن استعمال عقله وفكره، قد أعطى القياد لغيره كبهيمة الأنعام، فنعوذ بالله من القول عليه بغير علم ونعوذ بالله من التقليد الأعمى الذي يردي من اعتنقه وينقله من ميزة العقلاء إلى خلق البهيمة العجماء)(4)

1() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 370)
2() الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض، (ص23)
3() الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض، (ص39)
4() الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض، (ص24)

بل يذهب إلى أخطـر من ذلـك، فيقـول: (فمن زعم خلاف ذلك، وقال إن الشمس ثابتة لا جاريـة، فقـد كـذّب اللـه وكـذّب كتابه الكريم .. ومن قال هذا القول فقد قال كفـرا وضـلالا لأنـه تكـذيب للـه، وتكـذيب للقـرآن وتكـذيب للرسـول ﷺ لأنـه عليـه الصلاة والسلام قد صـرح في الأحـاديث الصـحيحة أن الشـمس جارية وأنها إذا غربت تذهب وتسجد بين يدي ربها تحت العـرش كما ثبت ذلك في الصحيحين من حـديث أبي ذر وكـل من كـذب الله سبحانه أو كذب كتابه الكريم أو كـذب رسـوله الأمين عليـه الصلاة والسلام فهو كافر ضال مضل يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا ويكون ماله فيئا لبيت مال المسلمين كما نص على مثل هذا أهل العلم)(5)

هذه نماذج عن استعمال العقل السـلفي للتـوهم أو القـوة الوهميـة في الحقـائق الدينيـة والحقـائق الكونيـة، وتطويعـه للنصوص المقدسة لذلك، وسـنرى من خلال العنـوانين التـاليين تفاصيل أسباب ذلك وأدلته.

أولا ـ التوهم والحقائق الدينية:

يسـتعمل السـلفية التـوهم بأدواتـه المختلفـة في تفسـير لجميع الحقائق الدينية خلافا لسـائر المسـلمين.. وهم في ذلـك يشبهون اليهود والوثنيين وأصحاب الديانات البدائية.

فكـل المسـلمين ــ مثلا ــ يؤمنـون بالملائكـة ــ إجمـالا ـ باعتبارهم مخلوقات خاصة لا يمكن إدراك ذاتها أو تصـورها على حقيقتهـا، باعتبارهـا من عـالم آخـر مختلـف عنـا تمامـا، فلـذلك نكتفي بالتسليم لما ورد في القـرآن الكـريم في حقهـا، ونمتلئ بالتعظيم لها لأجـل ذلـك.. يقينـا منـا بـأن العقـل لا يسـتطيع أن يتعرف ـ تفصيلا ـ إلا على ما هو من جنسه، أو ما هـو في حـدود مداركه، كما قال الغزالي: (فإذا يستحيل أن يعـرف اللـه تعـالى بالحقيقة غير الله، بل أقول يستحيل أن يعرف النبي غير النبي، وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصــية موجودة لإنسان بها يفارق من ليس نبيـا، ولكن لا يعـرف ماهيـة تلك الخاصـية إلا بالتشـبيه بصـفات نفسـه.. بـل أزيـد وأقـول لا يعرف أحد حقيقة الموت وحقيقـة الجنـة والنـار إلا بعـد المـوت ودخول الجنة أو النـار لأن الجنـة عبـارة عن أسـباب ملـذة ولـو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة لم يمكننا أصلا أن نفهمه الجنـة تفهيما يرغبه في طلبهـا، والنـار عبـارة عن أسـباب مؤلمـة ولـو فرضنا شخصا لم يقاس قط ألما لم يمكننا قط أن نفهمـه النـار فإذا قاساه فهمناه إياه بالتشبيه بأشد ما قاسـاه وهـو ألم النـار، وكــذلك إذا أدرك شــيئا من اللــذات فغايتنــا أن نفهمــه الجنــة

(5) الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض، (ص23)

بالتشبيه بأعظم ما ناله من اللذات وهي المطعم والمنكح والمنظر فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمه أصلا إلا بالتشبيه بهذه اللذات فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا: لم يحصل أهل الأرض والسماء معرفة من الله تعالى إلا على الصفات والأسماء ونحن نقول لم يحصلوا من الجنة إلا على الصفات والأسماء وكذلك في كل ما سمع الإنسان اسمه وصفته وما ذاقه وما أدركه ولا انتهى إليه ولا اتصف به)(1)

لكن العقل السلفي لا يرضى بالاكتفاء بالتعقل، بل يحتاج ليؤمن إلى التوهم والتصور والتخيل، فلذلك راح يرسم في كتبه العقدية صورا كثيرة لعالم الملائكة يمكن لأي رسام ماهر أن يرسمها بدقة، بل يمكن للنحاتين أن يصنعوا منها تماثيل تصور الوثنية السلفية بصورة دقيقة..

ومن الروايات التي رووها في ذلك ما رووا عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت سحابة، فقال: تدرون ما هذه، قالوا: سحاب، قال: والمزن، قا لوا: والمزن، قال: والعنان، ثم قال: تدرون كم بعد ما بين السماء والأراضين، قالوا: لا، قال: إما واحدة أو اثنتين أو ثلاث وسبعين سنة، ثم السماء فوق ذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء،، ثم فوق ظهورهم العرش بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، والله تعالى فوق ذلك)(2)

وعلى الرغم من الغرابة الشديدة لهذا الحديث إلا أن ابن تيمية انتصر له انتصارا شديدا، ومما قاله في الانتصار له: (إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولا إلى النبي ﷺ، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته)(3)

بل انتصر له كل المعاصرين، يقول ابن جبرين: (فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف على نقله وقبوله ولم يتعرضوا لرده

1() المقصد الأسنى (ص: 54)

2() رواه وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية: (5/ 93)، والدارمي في الرد على بشر المريسي: ص 448..

3() الفتاوى (3/192)، ومثله مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه، انظر: تهذيب التهذيب: (7/ 92، 93)

ولا تأوله ولا تشبيهه ولا تمثيله)[1]

بالإضافة إلى هذا، فقد نقلوا في روايات أخرى أن حملة العرش كانو بصور أخرى.. وهي (ملك في صورة رجل، وملك في صورة ثور، وملك في صورة أسد، وملك في صورة نسر)، ورووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن في حملة العرش أربعة أملاك: ملك على صورة سيد الصور وهو ابن آدم، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور، قال: فما زال غضبان مذ يوم العجل إلى ساعتي هذه، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر)[2]

بل إنهم يصورون لوهمهم كيف خلق الله الملائكة، فيروون عن عبد الله بن عمرو الكيفية التي خلقت بها الملائكة قوله ـ بلغة تجسيمية وثنية ـ : (خلق الله عز وجل الملائكة من نور، وينفخ في ذلك، ثم يقول: ليكن منكم ألف ألفين، فإن من الملائكة خلقا أصغر من الذباب)[3]

بل إنهم في روايات كثيرة يصورون أن خلق الملائكة كان من ماء، ومن ذلك ما رووه عن كعب قال: (لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكا يطير من خشية الله عز وجل) قال صفوان: وزاد فيه غيره: (وذلك أنها نطفة خشية، وليست نطفة شهوة، فمن هنالك كثرة الملائكة)[4]

ورووا عن العلاء بن هارون قال: (لجبريل عليه السلام في كل يوم اغتماسة في الكوثر، ثم ينتفض، فكل قطرة يخلق منها ملك)[5]

وهكذا نرى حديثهم عن الله تعالى، فلهذا نراهم ينتقدون بشدة المنهج التنزيهي الذي مارسه المتكلمون والصوفية وكل طوائف الأمة، كما عبر الغزالي عن ذلك بقوله: (فإن قلت فماذا نهاية معرفة العارفين بالله تعالى؟ فنقول: نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله عز وجل، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته)[6]

1() التعليقات على متن لمعة الاعتقاد 84

2() رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد: ص 198، والآجري في الشريعة: ص 494، لعظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/756)

3() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/734)

4() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/745)

5() العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (2/746)

6() المقصد الأسنى (ص: 54)

لكن السلفية ينكرون هذا، ويرون أن الكمال في إثبات أكبر عدد من صفات الله، والتي يقسمونها إلى قسمين كبيرين ـ كما يقول ابن تيمية ـ: (صفات نقص؛ فهذه يجب تنزيه الله عنها مطلقاً؛ كالموت، والعجز، والجهل، والثاني: صفات كمال؛ فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء)[1]

وهم يرون أن الصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية، (فلا يوصف الرب من الأمور السلبية إلا بما يتضمن أموراً وجودية، وإلا فالعدم المحض لا كمال فيه، فينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال، والعدم المحض ليس بشييء، وما ليس بشييء فهو كما قيل ليس بشييء فضلا عن أن يكون مدحاً وكمالاً، لأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع؛ والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال)[2]

بل إنهم يرون أن في اهتمام المنزهة بالتنزيه، وسلب ما لا يليق بالله سوء أدب مع الله، ذلك أن (النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله سبحانه، فإنك لو قلت لسلطان: أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجام ولا حائك لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإن أجملت في النفي أجملت في الأدب)[3]

ولهذا فإنهم يذمون المنزهة حين (يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل فيقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض إلى آخر تلك السلوب الكثيرة التي تمجها الأسماع وتأنف من ذكرها النفوس والتي تتنافى مع تقدير الله تعالى حق قدره)[4]

وهم يبالغون فيما يسمونه صفات كمال، حيث أنهم لا يكتفون منها بما ورد في الأسماء الحسنى، بل إنهم يحتقرون ذلك، لأن المشركين يشاركونهم فيه، وهم يستدلون بأقوال سلفهم على إيمان المشركين بتلك الكمالات التي يسمونها كمالات معنوية، كما رووا عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]: (الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم

1() الصفدية 1/102

2() الرسالة التدمرية ص 21-23

3() شرح العقيدة الطحاوية ص 108-110

4() الصفات الإلهية ص 202.

غيره)(1)، وقال قتادة: (إنك لست تلقى أحداً إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه ورزقه وهو مشرك في عبادته) (2)، وقال ابن زيد: (ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: 75-77]، وقد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا) (3)

فهم بدل أن يحملوا هذه النصوص وغيرها على كون هذا الاعتقاد فطريا، وأن الإيمان بهذه المعاني متفق عليه عند البشر جميعا حتى المشركين منهم إلا أننا نراهم يحتقرون هذا النوع من التوحيد، لكون المشركين يشاركونهم فيه.

ولهذا نراهم يركزون بدله على ما يسمونه توحيد الألوهية، والذي من خلاله يكفرون القائلين بالتوسل والاستغاثة وزوار الأضرحة ونحو ذلك.

ويركزون كذلك على توحيد الصفات .. أو الصفات المرتبطة بالذات سواء كانت ذاتية أو فعلية، والتي يقسمونها كما يقسمون صفات الإنسان ذاته.. أو كما يقسمون أعضاءه، وقد رأينا ذلك بتفصيل في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]

بناء على هذا الموقف المبني على التوهم لا على التعقل، راحت قوتهم الوهمية تطوع كل ما عداها من القوى ليصير في خدمتها، فطوعت النقل والعقل لينسجم مع ما تقتضيه أوهامهم.. وسنذكر هنا بعض الأمثلة على هذا التطويع، وتناقضاتهم فيه.

1 ـ تطويع النقل للوهم:

بما أن المنهج السلفي يقوم على اعتقاد عصمة سلفه فيما طرحوه من فهوم حول النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.. وبما أن سلفهم من اليهود أو تلاميذ اليهود كانوا مجمعين على التجسيم بكل لوازمه ومقتضياته، فقد راح العقل السلفي يتعامل بانتقائية مع القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيؤول ما يشاء منها، ويثبت ما يشاء.

وقد استعانوا بما في القوة الوهمية من قدرة على الاحتيال والخداع، فراح يبدلون الأسماء، ويتصورون أنهم من

1() تفسير الطبري (8/ 13/77)
2() تفسير الطبري (8/ 13/78)
3() تفسير الطبري (8/ 13/78)

خلال ذلك يبدل المسميات.
ولهذا سموا ما حمل به المنزهة النصوص المتشابهة على مقتضيات اللغة العربية [تأويلا]، ثم اعتبروه من لوازم التعطيل.. وأفتوا على أساسه بعدم المجاز في القرآن الكريم، كما نقل الذهبي عن الطبري قوله: (القول فيما أدرك علمه من الصفات خبرا وذلك نحو إخباره عزوجل أنه سميع بصير وأن له يدين بقوله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وأن له وجها بقوله ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27]، وأن له قدما بقول النبي ﷺ: (حتى يضع الرب فيها قدمه)، وأنه يضحك بقوله: (لقي الله وهو يضحك إليه)، وأنه يهبط إلى سماء الدنيا لخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأن له إصبعا بقول رسوله ﷺ : (ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن)، فإن هذه المعاني الذي وصفته ونظائرها مما وصف الله به نفسه ورسوله ما لا يثبت حقيقة علمه بالفكر والرؤية لا نكفر بالجهل بها أحدا إلا بعد انتهائها إليه)(1)
فهم يرون أن كل هذه النصوص تحمل على ظاهرها، وأن من جحدها بعد أن أعلم بها جهمي معطل كافر، لكنهم ــ عندما ووجهوا بآيات أخرى كريمة ـ لا تتفق مع توهماتهم التجسيمية سموها ـ من باب الاحتيال ـ [تفسيرا]، واعتبروا ما ورد فيها من مجاز ـ بنوع من الحيل اللفظية ـ ليس مجازا.
ومن الأمثلة على ذلك أن الشيخ ابن العثيمين سئل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: 10]، فأجاب بقوله: (ينبغي أن نعلم أن التأويل عند أهل السنة ليس مذموماً كله، بل المذموم منه ما لم يدل عليه دليل، وما دل عليه الدليل يسمي [تفسيراً]، سواء كان الدليل متصلاً بالنص، أو منفصلاً عنه، فصرف الدليل عن ظاهره ليس مذموماً على الإطلاق.. فإذا فهمنا هذا القاعدة وهي أن التأويل الذي قام الدليل عليه ليس مذموماً عرفنا الجواب عن الآية التي ساقها السائل.. فهل الصحابة في صلح الحديبية كانوا يبايعون الله؟ هم في الحقيقة كانوا يبايعون النبي ﷺ مباشرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يبايعونك﴾، لكن لما كان الرسول مبلغاً عن الله سبحانه صارت مبايعة الرسول كمبايعة الله، وصار الذي يبايعه كأنما يبايع الله، وقوله تعالى: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ المعلوم أن يد الله حقيقة ليست فوق أيديهم، وأن التي فوق أيديهم عند المبايعة هي يد الرسول ﷺ لكن الرسول كان مبلغاً عن الله)(2)

(1) العلو للعلي الغفار (ص: 206)
(2) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 169)

وهكذا يقال في جميع الآيات.. والتي ضرب السلفية بعضها ببعض.. فأولوا ما يشتهون، وأثبتوا ما يشتهون، والعجيب أنهم يحلون لأنفسم التأويل، ويسمونه - احتيالا - تفسيرا، أما غيرهم، فلا يحلون له ذلك، بل يكفرونه إن فعل ذلك، ولست أدري من الذي أعطاهم وحرم غيرهم، أو من الذي أحل لهم، وحرم على غيرهم؟

ومن الأمثلة على ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: 16]، بـ (من على السماء) كما عبر عن ذلك الذهبي، فيما نقله عن ابن موهب وأبي الحسن على بن مهدي: (قال أهل التأويل: يريد فوقها، وهو قول مالك مما فهمه عمن أدرك من التابعين مما فهموه عن الصحابة مما فهموه عن النبي ﷺ أن الله في السماء، يعني فوقها وعليها)(1)

بل إن الذهبي استدل بعلماء اللغة، في نفس الوقت الذي لا يجيزون فيه للمنزهة أن يستدلوا بما يقوله علماء اللغة، فقد نقل عن الأزهري قوله: (يجوز أن يقال في المجاز هو في السماء لقوله: (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) (2)

وهكذا نرى تأويلهم لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: 7]، فقد روى الذهبي عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن الآية الكريمة، فقال: (قد تجهم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، قرأت عليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ [المجادلة: 7]، فعلمه معهم)(3)

وروى عن المروذي قوله: قلت لأبي عبد الله: إن رجلا قال أقول كما قال الله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره، فقال: (هذا كلام الجهمية بل علمه معهم فأول الآية تدل على أنه علمه) (4)

وهكذا نرى ابن بطة ـ مثل غيره من أعلام السلف ـ يذهب لكل ما في النصوص من تنزيه ليؤولها بما يشاء، ثم يذهب لغيرها، والتي يتوافق ظاهرها مع توهمه وتصوره، فيحكم بالقول بظاهرها، ويعتبر المخالف لذلك جهميا معطلا، ومن الأمثلة على ذلك قوله: (واحتج الجهمي بقول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: 7]، فقالوا: إن الله معنا وفينا، واحتجوا بقوله: ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾

1() مختصر العلو للشيخ الألباني ص283، 252.
2() مختصر العلو للشيخ الألباني ص249.
3() العلو للعلي الغفار (ص: 176)
4() العلو للعلي الغفار (ص: 176)

[فصلت: 54] وقد فسر العلماء هذه الآية: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: 7]، إنما عنى بذلك علمه.. ولو كان معنى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: 75]، أنه إنما علم ذلك بالمشاهدة لم يكن له فضل على علم الخلائق، وبطل فضل علمه بعلم الغيب؛ لأن كل من شاهد شيئا وعاينه وحله بذاته، فقد علمه، فلا يقال لمن علم ما شاهده، وأحصى ما عاينه: إنه يعلم الغيب؛ لأن من شأن المخلوق أن لا يعلم الشيء حتى يراه بعينه، ويسمعه بأذنه، فإن غاب عنه جهله، إلا أن يعلمه غيره فيكون معلما لا عالما، والله تعالى يعلم ما في السماوات، وما في الأرض، وما بين ذلك، وهو بكل شيء محيط بعلمه.. وأما قوله: ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ [فصلت: 54]، فقد فسر ذلك في كتابه فقال: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: 12]، فبين تلك الإحاطة: إنما هي بالعلم لا بالمشاهدة بذاته، فبين تعالى أنه ليس كعلمه علم؛ لأنه لا يعلم الغيب غيره، فتفهموا الآن رحمكم الله كفر الجهمي؛ لأنه يدخل على الجهمي أن الله تعالى لا يعلم الغيب، وذلك أن الجهمي يقول: إن الله شاهد لنا وحال بذاته، فسار في كل شيء ذرأه وبرأه، وقد أكذبهم الله تعالى فقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: 65]، فأخبر أنه يعلم الغيب، وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]، فوصف نفسه تعالى بعلم الغيب والكبر والعلو، ووصفه الجهمي بضد ذلك)(1)

ونقل عن نعيم بن حماد في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: 7] كلاما عجيبا مملوءا بالتأويل والتشبيه، حيث قال: (معناها أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه، ألا ترى أنه قال في كتابه: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: 7] ؟، أراد أنه تعالى لا يخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، ولا في شيء من خلقه، ولو كان الله شاهدا يحضر منهم ما عملوا، لم يكن في علمه فضل على غيره من الخلائق؛ لأنه ليس أحد من الخلق يحضر أمرا ويشهده إلا علمه، فلو كان الله حاضرا كحضور الخلق من الخلق في أفعالهم لم يكن له في علمه فضل على خلقه، ولكنه تعالى على عرشه كما وصف نفسه لا يخفى عليه خافية خلقه، وإنك لتجد في الصغير من خلق الله أنه ليرى الشيء، وليس هو فيه، وبينه وبينه حائل، فالله تعالى بعظمته، وقدرته على خلقه أعظم ألا ترى أنه يأخذ الرجل القدح بيده وفيه الشراب

---

(1) الإبانة الكبرى لابن بطة (7/ 144)

أو الطعام، فينظر إليه الناظر، فيعلم ما في القدح، والله على عرشه، وهو محيط بخلقه بعلمه فيهم، ورؤيته إياهم، وقدرته عليهم، وإنما دل ربنا تعالى على فضل عظمته، وقدرته أنه في أعلى عليين، وهو يعلم الصغير التافه الحقير الذي هو في أسفل السافلين، أي فليس علمه كعلمهم؛ لأن الخلق لا يعلمون إلا ما يشاهدون، والله عز وجل يتعالى عن ذلك)(1)

بل إنهم يعتبرون هذه التأويلات بما يزينونها بها من استدلالات من القرآن الكريم تفسيرا للقرآن بالقرآن، باعتبار هذا النمط أعلى وجوه التفسير وأصوبها، لكنهم إن ووجهوا باستعمال المنزهة لهذا النمط التفسيري رفضوه منهم، وكأنه لهم الحق وحدهم في استعمال النمط الذي يشاءون، وفي الوقت الذي يشاءون.

بل إنا نراهم ـ وفي أحيان كثيرة، وفي الموضع الواحد ـ يجمعون آيات مختلفة، فيؤولون ما تكون دلالته واضحة، ويثبتون ما يحتاج إلى حمله على المجاز ونحوه، كما فعل أبو القاسم اللالكائي حين قال: (سياق ما روي في قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: 5] وأن الله على عرشه في السماء وقال: عز وجل ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، وقال: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ [الملك: 16] وقال: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61] فدلت هذه الآيات أنه تعالى في السماء وعلمه بكل مكان من أرضه وسمائه)(2)

2 ـ تطويع العقل للوهم:

الأصل في العقل الإنساني الحكيم أن يحترم قدره، فلا يتجاوزه، ولا يتدخل فيما لا يعنيه، وفيما لا يطيق فهمه من شؤون الدنيا والآخرة.. لأن خلق الله أعظم من أن يحصر فيما ندركه بحواسنا، أو نتوهمه بأوهامنا.. لكن العقل السلفي المؤسس على الوهم لا يؤمن بذلك، بل يتصور أن في إمكان العقل أن يدرك كل شيء، بل يتصور أنه يمكن أن يدرك الله نفسه.

وهو يستعمل لذلك قياسا غريبا، هو قياس الأولى، وهو قياس وهمي لا يمكن من خلاله التعرف على الكون، فكيف يمكن التعرف على الله.

يقول ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين) تحت عنوان [دلالة قياس الأولى في إثبات صفات الكمال]: (وأما

---

(1) الإبانة الكبرى لابن بطة (7/ 146)
(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (3/ 429)

قياس الأولى الذي كان يسلكه السلف اتباعا للقرآن فيدل على أنه يثبت له من صـفات الكمـال الـتي لا نقص فيهـا أكمـل ممـا علموه ثابتا لغيره مـع التفـاوت الـذي لا يضـبطه العقـل، كمـا لا يضبط التفاوت بين الخـالق وبين المخلـوق، بـل إذا كـان العقـل يدرك من التفاضل الذي بين مخلوق ومخلوق ما لا يحصر قـدره وهــو يعلم أن فضــل اللــه على كــل مخلــوق أعظم من فضــل مخلوق على مخلوق كان هـذا ممـا يـبين لـه أن مـا يثبت للـرب أعظم مما يثبت لكل ما سواه بما لا يـدرك قـدره فكـأن قيـاس الأولى يفيده أمرا يختص به الرب مع علمه بجنس ذلك الأمر)(1)

ولهـذا يـرى ابن تيميـة وأعلام المدرسـة السـلفية أن اللـه سـبحانه وتعـالى مـا دام قـد أعطى لعبـاده بعض الكمـالات الحسية، فهو أولى أن يتصف بهـا، قـال ابن تيميـة يوضـح ذلـك: (كـل مـا ثبت للمخلـوق من صـفات الكمـال فالخـالق أحـق بـه وأولى وأحرى به منه لأنه أكمل منه ولأنه هو الذي أعطـاه ذلـك الكمال، فالخـالق أحـق بـه وأولى وأحـرى بـه منـه...وعلى هـذا فجميع الأمور الوجودية المحضة يكون الرب أحق بها لأن وجوده أكمل ولأنه هو الواهب لها فهو أحق باتصافه بها)(2)

وإلى هنا فإن المعنى مقبول عند جميـع المسـلمين، فاللـه سبحانه وتعالى أولى بصفات الكمال من عباده، ولكن ابن تيمية لا يقصد ذلك فقط، بل يقصد التجسـيم ومـا يقتضـيه التجسـيم، فقد قال بعد ذلك الكلام المقبـول بانيـا عليـه: (وإذا كـان كـذلك فمن المعلوم أن كون الموجود قائمـاً بنفسـه أو موصـوفاً أو أن له من الحقيقة والصفة والقـدر مـا اسـتحق بـه إلا يكـون بحيثِ غيره وأن لا يكون معدوماً بل ما أوجب أن يكـون قائمـاً بنفسـه مبايباً لغيره وأمثال ذلك هو من الأمور الوجودية باعتبـار الغـائب فيها بالشاهد صار على هذا الصـراط المسـتقيم، فكـل مـا كـان أقــرب إلى الوجــود كــان إليــه أقــرب وكلمــا كــان أقــرب إلى المعدوم فهو عنه أبعد)(3)

وبذلك فإن ابن تيمية يقع في التشبيه المحض، لأنه يتصـور أن الكمال في احتياج الذات إلى حيز ومقدار وأعضاء وغير ذلك مع أن الكمال الحقيقي لا يقتضي ذلك..

وقد أشار الغزالي إلى هذه الأوهام التي ينطلق منها العقل السلفي، فقال ـ عند حديثه عن التفكر في اللــه ــ : (.. وكـذلك النظر إلى ذات الله تعالى يـورث الحـيرة والـدهش واضـطراب العقل، فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله

1() الرد على المنطقيين (ص: 154)

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (2/ 350)

3() المصدر السابق 327-328

سبحانه وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة)(1)

ثم ضرب مثالا بليغا هو أبلغ رد على من يعتبر قياس الأولى في هذا، فقال: (بل لو كان للذباب عقل، وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك، وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟)(2)

ثم علق عليه بقوله: (وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتى فينكروني، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون) (3)

ولهذا نرى معاناة المتكلمين مع هذا النوع من العقول، كما روى محمد بن طاهر المقدسي ــ متفاخرا ـ أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس المتكلم الكبير أبي المعالي الجويني المعروف بـ (إمام الحرمين)، (وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال الشيخ أبو جعفر: يا أستاذ دعنا من ذكر العرش- يعني: لأن ذلك إنما جاء في السمع- أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا ألله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة عن قلوبنا، قال: فلطم أبو المعالي على رأسه،

1() إحياء علوم الدين (4/ 434)
2() إحياء علوم الدين (4/ 434)
3() إحياء علوم الدين (4/ 434)

وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني)[1]

وهم يـذكرون هـذا بفخـر كبـير، ويتصـورون أن الهمـذاني انتصـر على الجويـني، وأن لطمـه لرأسـه دليـل على ذلـك الانتصار..

وهم يؤسسون لهذا دليلا عقليا آخر يسمونه دليل الفطـرة، والذي عـبر عنـه ابن تيمية بقوله: (علـو الخـالق على المخلـوق وأنـه فـوق العـالم، أمـر مسـتقر في فطـر العبـاد، معلـوم لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميـع الأمم، إقـرارا بـذلك، وتصـديقا من غـير أن يتواطئـوا على ذلـك ويتشـاعروا، وهم يخـبرون عن أنفسهم أنهم يجـدون التصـديق بـذلك في فطـرهم، وكـذلك هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته، مثل قصده عنـد الـدعاء والمسألة، يضـطرون إلى توجـه قلـوبهم إلى العلـو، فكمـا أنهم مضـطرون إلى دعائـه وسـؤاله هم مضـطرون إلى أن يوجهـوا قلوبهم إلى العلـو إليـه، لا يجـدون في قلـوبهم توجهـا إلى جهـة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها، وخلـو القلـوب عن قصـد جهة من الجهات، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.فهـذا يتضـمن بيـان اضـطرارهم إلى قصـده في العلـو، وتـوجههم عنـد دعائـه إلى العلـو، كمـا يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك)[2]

والسلفية لا يكتفـون بهـذه الأنـواع من الأدلـة العقليـة، بـل إنهم يضيفون إليها ـ بمعونـة من الخـداع والحيلـة الـتي يمتلكهـا العقل التوهمي ـ بعض الجدال الـذي يشـبه في صـورته الجـدل الكلامي، ويختلف عنه في الحقيقة.

وقد كان لابن تيمية الحظوة الكبرى بهذا النوع من الجـدال حتى عابـه عليـه الـذهبي، فقـال في رسـالته [بيـان زغـل العلم والطلب]: (فـإن بـرعت في الأصـول وتوابعهـا من المنطـق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومحارات العقـول، واعتصـمت مع ذلـك بالكتـاب والسُّـنّة وأصـول السـلف، ولفقت بين العقـل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها، وقد رأيتَ ما آل أمـره إليـه من الحـطّ عليـه والهجـر والتضـليل والتكفير والتكذيب بحقّ وباطل، فقـد كـان قبـل أن يـدخل في هذه الصناعة منوَّرًا مضـيئًا على مُحَيَّاه سِـيْمَا السـلف، ثم صـار مظلما مكسوفا عليه قتمة عند خلائق من النـاس، ودجّـالاً أفّاكًـا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلاً محقّقًا بارعًا عنـد طوائـف من عقلاء الفضلاء) [3]

[1] () مجموع الفتاوى: (4/ 44، 61)، شرح العقيدة الطحاوية: ص 325، 326.

[2] () انظر: درء تعارض العقل والنقل: (7/5)، بتصرف.

[3] () انظر نص الرسالة كاملا في (السيف الصقيل رد ابن زفيل) السبكي - هامش ص 211ـ 219 - مكتبة زهران - ومعه تكملة الرد على نونية ابن القيم بقلم : محمد زاهد

ومما جاء فيها قوله ـ يخاطب ابن تيمية ــ : (إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك ! .. إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس مع علمك بنهي الرسول ﷺ: (لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) بلى أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: (إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد ﷺ وهو جهاد) .. بلى والله عرفوا خيرا كثيرا مما إذا عمل به العبد فقد فاز وجهلوا شيئا كثيرا مما لا يعنيهم، و من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.. يا رجل بالله عليك كف عنا فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام.إياكم والغلوطات في الدين كره نبيك ﷺ المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال : (إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)، وكثرة الكلام بغير زلل تقسي القلوب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمى القلوب.. يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، لا سيما إذا كان قليل العلم والدين .. فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل أو عامي كذاب بليد الذهن أو غريب واجم قوي المكر أو ناشف صالح عديم الفهم، فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك .. إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار .. إلى كم تصادقها وتزدري الأبرار .. إلى كم تعظمها وتصغر العباد.إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد .. إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين .. يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والاهدار أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوى ؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب ؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل .. بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغي إلى وعظي بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات وتقطع لي أذناب الكلام ولا تزال تنتصر حتى أقول : وألبتة سكت .. فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد فكيف حالك عند أعدائك .. وأعداؤك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر.. قد رضيت منك بأن تسبني علانية وتنتفع بمقالتي سرا (فرحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي) فإني كثير العيوب غزير الذنوب) (4)

بن الحسن الكوثري - تقديم : لجنة من علماء الأزهر

4() انظر (السيف الصقيل رد ابن زفيل) السبكي - هامش ص 211- 219.

ومن نتائج ذلك الجدل الذي مارسه ابن تيمية ما يسميه السلفية [الجهة العدمية]، أو [المكان العدمي]، وهي من المصطلحات العجيبة التي اخترعها ابن تيمية، وتبعه عليها أتباعه من غير وعي منهم للمحالات العقلية التي ترتبط بها.. فكيف يكون مكانا، ثم يكون معدوما.. أو كيف تكون جهة، ثم تكون معدومة؟

قال ابن تيمية: (وإن أريد بما يتوجه منه أو يتوجه إليه ما يراد بالحيز الذي هو تقدير المكان فلا ريب أن هذا عدم محض)(1)، وقال: (بل يجب في سائر الذوات المتحيزة أن يكون لكل منها تحيز يخصه وهو قدره ونهايته التي تحيط به، ويلزمه الحيز الذي هو تقدير المكان وهو عدمي)(2)

وقد تبعه على هذا القول كل أتباعه من السلفية غير مدركين لمعنى المقولة، يقول العثيمين: (كذلك أيضا: الجهة: هل الله في جهة؟ نقول: أما اللفظ فإننا نتوقف فيه ومالنا وله، ولكن المعنى نستفصل: ماذا تريد في جهة؟ إن أردت الله تعالى في جهة تحيط به إحاطة الظرف بالمظروف فهذا ممتنع وباطل، وإن أردت بذلك سفل ومخالطة للمخلوقات فهذا أيضا باطل ممتنع على الله، فليس الله تعالى في جهة السفل، وليس في جهة تحيط به إحاطة الظرف بالمظروف، وإن أردت أنه في جهة عليا عدمية لا تحيط به، ما ثم إلا هو عزو وجل فهذا حق)(3)

ومثله قال محمد صديق خان القنوجي: (فإن قال القائل: إن الله في جهة قيل له: ما تريد بذلك؟ أتريد أنه سبحانه في جهة موجودة تحصره وتحيط به مثل أن يكون في جوف السموات، أم تريد بالجهة أمرا عدميا وهو ما فوق العلم فإنه ليس فوق العالم شيء من المخلوقات، فإن أردت الجهة الوجودية، وجعلت الله محصورا في المخلوقات، فهذا باطل، وإن أردت الجهة العدمية وأردت أن الله وحده فوق المخلوقات بائن عنها فهذا حق)(4)

ويقول ابن أبي العز: (وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده، فإذا قيل إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح)(5)

ثانيا ـ التوهم والحقائق الكونية

1() تلبس الجهمية: 2/119.

2() تلبس الجهمية: 2/203.

3() شرح العقيدة السفارينية، ص 101.

4() قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، ص 52.

5() شرح العقيدة الطحاوية، ص221.

مثلما تخبط العقل السلفي في تصـوراته للحقـائق الدينيـة نتيجة تغليبه للوهم على العقل، وإخضاعه النقـل للهـوى، حصـل ذلـك معـه في تصـوراته المرتبطـة بحقـائق الكـون، والـتي لم يخالف فيها عقلاء المسلمين فقط، بل خالف فيها العالم أجمـع، بل إنه أصبح بسببها موضع سخرية من كل عقلاء العالم، بل إنـه أصبح أداة لتشويه الإسلام والتحذير منه.

ولكن مع ذلك فإن من محاسن كلامهم في هذا الجانب هو أنـه وسـيلة سـهلة لبيـان حقيقـة عقـولهم، ذلـك أن البعض قـد يجادل في الحقائق الدينية، ويعتبرها وجهـة نظـر قـد يكـون لهـا حظها من التقدير والاحترام والصحة، خاصة عنـدما يكـثرون من ذكر ما يسمونه أدلة من الكتاب والسنة، أو عنـدما يبـالغون في وصف محاسن سلفهم، وما أجمعوا عليه.

لكنه عندما يذهب إلى كلامهم في الحقائق العلمية، ويجده بنفس تلك الصـورة، ويجـد عقـولهم تمـارس كـل أنـواع الـدجل لتعتبر مخالفة الحقائق العلميـة سـنة ودينـا، حينهـا لن يبقى لأي عاقل شك في كذبهم ودجلهم.

فهم كما نقلوا الإجماع عن سلفهم في تجسيم الله، كـذلك ينقلون الإجماع الذي يحرمون خرقه، عن سـلفهم في الحقـائق الكونية، ولذلك فإن من يأخذ الحقائق الكونيـة عنـدهم من كلام الكفار بدعي وضال وكافر.

يقول بعضهم في مقدمة رسالة سماها [مختصر اللفظ في مسـألة دوران الأرض][1] ـــ مبينـا خطـر العلـوم الحديثـة على العقيدة الإسلامية ـ : (فهذه وريقات صغيرة قصيرة تضاد بحوثـاً وكتباً، وأفلاماً وأشرطة، ودروساً مدرسية وجامعيـة، بـل وتضـاد تفكر كثير من الدهماء أتباع كـل نـاعق، ولكن لا ضـير إذا كـانت مستندة إلى الحق الذي يُستقى من الوحـيين. وهـذه الوريقـات ليسـت من قبيـل الكلام في الطبوليـات، وإنمـا هي من النصـح والبيان الذي أمرنا به، وما خطت يداي هذه الأحـرف إلا بعـد أن سُـئلتُ عن هـذه المسـألة فـأجبت بمـا أدين اللـه بـه، ولكن لم تحضرني كل الأدلة حينها، فلزم علي الرجوع والتنقيب، والبحث والنظر والتقصي، كي أخرج بهذا البيان في أكمل حلة؛ ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة والبيان، كما هو معلـومٌ عنـد أهـل الأصـول. لا سـيما ونحن في أيـام عصـيبة، وسـنوات خـداعات مريعة، حتى صارت بلادنا ترزح في ظل هيمنة الغرب وسيطرته العسـكرية والإعلاميـة والفكريـة، يسـتقي أبناؤنـا وإخواننـا في المدارس والجامعات عقائد فاسدة، وتصورات منحطة، مخالفـة لعقيدة الإسلام وأصوله؛ كعقيدة أن أصل الإنسان من قرد، وأن

[1] من تأليف: أبي سفيان تركي بن مبارك البنعلي .

الشمس راسخة لا تتحرك، وأن الأرض تـدور على نفسـها وعلى الشمس، وقد حفظونا قديماً: (كرة الأرض تـدورُ فظـــلامٌ ثم نورُ)(1)

ومثله قال علم من أعلامهم المشهورين، وهو الشيخ عبـد الكـريم بن صـالح الحميـد ردا على من اتهمهم بتحـريم دراسـة العلم الحديث: (.. الذي يُحَرِّمُه المتـديِّنون هـو مَـا فِي الدِّرَاسَـةِ من عقائِد سُوء مثل الإقـرار بالطـاغوت الـدَّوْلي (هيْئـة الأمم).. وكـذلك فـإنَّ المتـدينين يُحرِّمُـون مـا في التعـاليم المُحْدَثـة مِمَّا حَرَّمَ الله ورسوله من (الصُّوَرِ)، ويُحَرِّمُون ما حَرَّمَ الله ورسوله من (مَدْحِ الكفار وموالاتهم)، كذلك يُنكِرُون ما فيها من القولَ بـ (دَوران الأرض)، ودعوى (وصول القمر)، واعتقـادَ أنَّ (الفضاء لا حَـدَّ لـه) الـذي هـو إنكـار لوجـودِ السـموات السَّـبْعِ والكرسـي والعرش والجنة، بل من اعتقد أن الفضاء لا حد له فهـو معطـل منكر لوجود الله ملك الكـون وخـالق الخلـق رب العـالمين جـل جلالـه، وغـير هـذا كثـير يصـعب حصـره موجـود في (الدراسـة الحادثة)، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام -ابن تيمية-: (أن العلــوم المفضولة إذا زاحمت العلوم الفاضلة وأضعفتها فهي تحـرم)(2)؛ وإذا كـان هـذا في علـوم كثـيرة صـحيحة في (الدراسـة) علتهـا مزاحمة علم الدين وإضعافه فكيف بمـا ذَكَـرْتُ آنفـاً مِمَّا يُفْسِـد العقيدة؟!)(3)

وهكذا نجد علما آخر من أعلامهم يكتب كتابا طويلا مفصــلا بعنوان [لِماذا حَرَّكوا الأرْض؟](4) يستعمل فيه كل قوى الخــداع التوهمية ليبرز أن القـول بـدوران الأرض مـؤامرة على عقيـدة المسلمين، وقد استهل كتابه بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْـرَهُمْ وَعِنــدَ اللّـهِ مَكْـرُهُمْ وَإِن كَـانَ مَكْـرُهُمْ لِتَـزُولَ مِنْـهُ الْجِبَـالُ﴾ [إبراهيم: 46]

ثم قـال في مقدمتـه للكتـاب ــ مستعرضـا تـاريخ البحث العلمي في هذه المسـألة مرجعـا إلى الفلاسـفة الـذين كفـرهم ابن تيميةـ : (.. مسـألة دوران الأرض حـول الشـمس، أو بلفـظ أعم: الهيئة الجديدة للكون، والتي اخترعها الدُّهريون الملاحــدة، فاللـه تعـالى مـا خلـق الخلـق إلا ليعبـدوه؛ فكـان لا بـد لهم من مستقر يستقرون عليه؛ لتقع منهم هذه العبادة؛ فلهذا خلق اللـه الأرض ليسكنها الخلق، ويستقرون عليها، ثم خلق بعـد ذلـك مـا يتمم لهم مصـالحهم: من شـمس وقمـر ونجـوم وجبـال وشـجر

1() مختصر اللفظ في مسألة دوران الأرض، ص4.
2() انظر: الإيضاح والتبيين ص197.
3() جلاء حقيقة الدين وعزة المتدينين ص33-34.
4() من تأليف ياسر فتحي حسن علية، ونشر الموقع السلفي المشهور موقـع الألوكـة، وقد تضمن خلاصة لآراء السلفية في المسألة.

ودواب، وأما الدهريون فيدعون كذباً وزوراً: أن هذه الأرض ليست إلا كوكباً ضمن مجموعة شمسية، هذا الكوكب المزعوم يبعد عن الشمس- أمِّها التي خرجت منها- مسافة 93 مليون ميل [150 مليون كم]، وهذه المجموعة الشمسية هي أيضاً واحدة من نحو 100 مليون مجموعة شمسية [شموس تتبعها كواكب]، في المجرة الواحدة التي يزعمون أنا داخلون فيها، ثم هذه المجرة قطرها نحو 100 ألف مليون سنة ضوئية.. وهذه المجرة هي واحدة من مائة مليون من هذه المجرات المتناثرة في الفضاء الهائل الذي لا نهاية له، تكاد تكون تائهة فيه، وهذا الذي ادَّعَوا أنهم اكتشفوه هو جانب ضئيل لا يكاد يذكر من بناء الكون على حد زعمهم) (1)

وبعد أن ذكر هذا وغيره من الحقائق العلمية راح يبحث عن جذورها، ليكتشف أنها من وضع الفلاسفة الملاحدة الذين تلقفها منهم (الملاحدة من فلاسفة ملة الإسلام أمثال: أحمد بن سهل البلخي، وهو فيلسوف بلخي مشهور، كان رافضياً منجماً، ممن سلك طريقة أرسطو، وممن عُني بنقل فلسفة اليونان وترجمتها إلى العربية، إبعاداً لهذه الأمة عن النور المنزل عليها من السماء، وإضلالاً لها.. ثم جاء بعده أبو نصر الفارابي الفيلسوف المشهور.. وكان بارعاً في الكلام والمنطق والموسيقى، وكان رأساً في الكفر والإلحاد، وإنكار النبوات والمعاد، والقول بقدم العالم، وقد تخرج بكتبه ابن سينا.. ثم جاء بعده أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب: مسكويه.. كان مجوسياً وأسلم، اشتغل بالفلسفة والكيمياء، وممن سلك طريقة أرسطو، وخدم دولة بني بويه الشيعية.. كما قد ذكر إخوان الصفا ذلك .. وهم من ملاحدة الشيعة الإسماعيلية، ظهروا في القرن الرابع الهجري، عقائدهم خليط من العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية.. ونُسب هذا القول أيضاً إلى غير هؤلاء ممن اغتر بأقوالهم، وممن نسب إلى العلم الشرعي، ممن ليسوا من أهل التحقيق، الذين ساروا على مناهج المتكلمين المتأثرين بالفلاسفة، فسجلوا ذلك في كتبهم، أمثال: الفخر الرازي وابن خلدون)(2)

وهكذا راح يذكر أعلام الغرب الذين استفادوا وتأثروا بأعلام الحضارة الإسلامية الذين يكفرهم السلفية، فقال: (ثم حمل الرايةَ بعدُ هراطقةُ النصارى الذين نابذوا الكنيسة الكاثوليكية العداء، هدماً لفضائلها، ونبذاً لعقائدها، وبغضاً لما بقي من عبادة الله فيها، أبوا إلا أن يُعبد الوثن وحده، وضاقوا

______

(1) انظر: لِماذا حَرَّكوا الأرْض؟، ص6.
(2) انظر: لِماذا حَرَّكوا الأرْض؟، ص7.

ذرعاً بأن يُعبد الله تعالى حتى ولو مع التثليث، أرادوا بعث الوثنية من جديد، لكن تحت ستار العلم.. هذه خلاصة المهزلة التي قال بها الدهريون الملاحدة بدعوى البحث العلمي النزيه البريء)(1)

ثم .. وفي الأخير، وبعد تلك الجولة الطويلة مع الفلاسفة من المسلمين وغيرهم، يكفرهم جميعا، ولا يستثني أحدا، ويبين أنهم جميعا متآمرون على العقيدة الإسلامية، وصل إلى الحضارة الغربية الحديثة، فقال: (وقد قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس هذه النظرية في الفلك، وكان أول من نُسبت إليه هذه النظرية، وقيل أنه كتب فيها وعارض معتقد النصارى في هذه المسألة، هو: نيكولا كوبرنيك (1473-1543م)، الذي نُسب إليه كتاب (حركة الأجرام السماوية)، محاولاً إثبات هذه النظرية لكنه فشل في ذلك، وأهم عبارة في هذا الكتاب تنم عن معتقد مؤلفه الخبيث، هي قوله: (القمر يدور حول الأرض، والشمس تحتل مركز العالم الذي تنيره وتحكمه)، وكأنه كاهن من كهنة معبد آمون، عبدة الشمس.. ثم جاء بعد كوبرنيك من حاول استخدام علم الرياضيات والفيزياء في إثبات هذه النظرية، مثل: جاليليو في إيطاليا (1564-1642م)، وجوهانز كبلر في ألمانيا (1571-1630م)، وإسحاق نيوتن في إنجلترا (1642-1727م)، وكانت معظم النظريات العلمية الرياضية والفيزيائية التي توصلوا إليها تخدم نظرية الدوران، وكأنها من أجلها وضعت، مع أن الناظر إليها يحسب أن الدافع وراء اكتشاف هذه النظريات العلمية إنما هو البحث العلمي النزيه، وأنه لا علاقة بينها وبين نظرية الدوران)(2)

وهم لا يكتفون بهذه المسائل، بل يعممونها في كل الحقائق العلمية التي يتفق عليها جميع العقلاء، وقد أورد بعضهم ما ذكره سيد قطب في تفسيره عن بعض الحقائق العلمية، فقال: (إن سيداً قد أتي في هذا الباب من ثقته الزائدة في هذه العلوم العصرية التي افتتن بها أكثر الناس؛ كيف لا وهم يُفطمون عليها وعلى نظرياتها في مدارسهم التي تخلط الحق بالباطل)(3):

ثم نقل بعض ما ذكره سيد من الحقائق العلمية الفلكية، وقال: (كل هذا هذيان وظن، ومَن الذي وصل إلى الشمس حتى قاس الذي بيننا وبينها.. فمن أراد النجاة والسلامة لدينه فعليه بالعتيق والأصيل، قال صاحب رسول الله عبدالله بن

---

(1) انظر: لِماذا حَرَّكوا الأرْض؟، ص9.
(2) انظر: لِماذا حَرَّكوا الأرْض؟، ص10.
(3) ميزان الاعتدال في تقييم كتاب المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ص 35.

مسعود: (عليكم بالعتيق)..ولم يقل: (عليكم بالمعاصر) (1)

وانطلاقا من هذا العتيق الذي سلموا له عقولهم، راحوا يردون على كل من يتحدث بأمثال هذه الحقائق العلمية بما ذكره عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي (المتوفى 429هـ) في كتابه (الفرق بين الفرق) عند بيانه لـ [أوصاف الفرقة الناجية]، وفي [بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة والجماعة]، قال: (وأجمعوا على وقوف الأرض وسكونها، وأن حركتها إنما تكون بعارض يعرض لها من زلزلة ونحوها خلاف قول من زعم من الدهرية أن الأرض تهوي أبداً ولو كانت كذلك لوجب ألا يلحق الحجرُ الذي نلقيه من أيدينا أبداً، لأن الخفيف لا يلحق ما هو أثقل منه في انحداره.. والرسول ﷺ قال: (لا تجمع أمتي على ضلالة((2)

وقد ذكر في كتابه [أصول الدين] في [بيان وقوف الأرض ونهايتها] الوهم الذي اعتمد عليه وسلفه في المسألة، فقال: (ولو كانت للأرض حركة دورية لأحسسنا بذلك كما نحس بحركتها عند الزلزلة، ثم إنّا لو جعلنا قطعة من الأرض على طبق لم تدر عليه ولو رمينا بها في الهواء لنزلت على الاستواء ولم تدر على نفسها فإذا كانت كل قطعة منها لا تدور فكيف دارت جملتها.. فلما لم يكن كذلك بطلت هذه العلة وسائر العلل التي حكيناها عن مخالفينا وصح بما قلنا أن الأرض واقفة بقدرة الله تعالى وإنها متناهية من كل جهة كما بيناه وإذا بطلت أقوال مخالفينا في هذه المسألة صح قولنا فيها)(3)

انطلاقا من هذا سنحاول هنا ـ باختصار ـ أن نبين كيف استطاعت القوة الوهمية في العقل السلفي أن تتسلط على القوى العاقلة، وتسخرها لها، بل تسخر معها النصوص المقدسة من الكتاب والسنة، مستعملة في ذلك كل صنوف الحيل والخداع.

أ ـ تطويع النقل للوهم:

من أخطر ما مارسه السلفية في كل عصورهم هو ذلك الإخضاع المقيت للنصوص المقدسة، لتتحول إلى أدوات لحمل الخرافة والدجل وكل أصناف التشويهات.

ولكن الذي فعلوه في عصرنا الذي فتحت فيه خزائن العلوم بمختلف أصنافها، أكثر الأمور خطورة لاعلى توجههم الذي يحرصون عليه أكثر من حرصهم على الإسلام [التوجه السلفي]، وإنما على الإسلام نفسه.

---

(1) ميزان الاعتدال في تقييم كتاب المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ص 36.

(2) الفرق بين الفرق، ص 330.

(3) أصول الدين، ص 63.

ولذلك نرى مقولاتهم في مواقع المبشرين والمستشـرقين والملاحدة والتغريبيين مختلطة مع النصوص القرآنية والأحـاديث النبوية، وهم يفسرونها وفق الرؤية الخرافية، ويعتـبرون المنكـر لذلك ضالا مضلا.

ومن أمثلة ذلك قـول الشـيخ ابن عـثيمين عنـد حديثـه عن مسـألة دوران الأرض، وتطويعـه للنصـوص المقدسـة، قـال: (.. لكن الشيء الذي أرى أنه لا بد منـه هـو أن نعتقـد أن الشـمس هي التي تدور على الأرض، وهي الـتي يكـون بهـا اختلاف الليـل والنهار، لأن الله تعالى أضاف الطلـوع والغـروب إلى الشـمس، فقال عز وجـل: ﴿وَتَـرَى الشَّـمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَـزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّـمَالِ﴾ [الكهـف: 17]، فهذه أربعـة أفعـال أضـيفت كلهـا إلى الشـمس إذا طلعت، وإذا غربت، تزاور، تقرض، كلها أفعال أضيفت إلى الشمس، والأصل أن الفعل لا يضاف إلا إلى فاعله، أو من قام به، أي من قام بـه هذا الفعل فلا يقال: مات زيدٌ، ويراد مات عمرو .. فإذا قال الله (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ) ليس المعنى أن الأرض دارت حـتى رأينـا الشـمس لأنـه لـو كـانت الأرض هي الـتي تـدور، وطلـوع الشمس يختلف باختلاف الدوران ما قيـل: إن الشـمس طلعت، بـل يقـال نحن طلعنـا على الشـمس، أو الأرض طلعت على الشمس وكذلك قال الله تبارك وتعالى في قصة سـليمان ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْـرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي حَتَّى تَـوَارَتْ بِالْحِجَـابِ﴾ [ص: 32] أي الشمس، ولم يقل حـتى تـوارى عنهـا بالحجـاب، وقـال النبي ﷺ لأبي ذر: أتدري أين تذهب هذه الشـمس؟) قلت: اللـه ورسـوله أعلم، قـال: (تـذهب تسـجد تحت العـرش، فتسـتأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتسـتأذن فلا يـؤذن لها، فيقال لهـا: ارجعي من حيث جئت، فتطلـع من مغربهـا)[1]، فأضاف الذهاب إلى الشمس)[2]

وهكذا، وبعد أن طوع ما شاء من النصوص القرآنيـة لقوتـه الوهمية، قال: (فظاهر القرآن والسنة أن اختلاف الليـل والنهـار يكـون بـدوران الشـمس على الأرض، وهـذا هـو الـذي يجب أن نعتقده مـا لم يوجـد دليـلٌ حسـيٌ قـاطع يسـوغ لنـا أن نصـرف النصوص عن ظواهرها إلى ما يوافق هـذا النص القـاطع، وذلـك لأن الأصل في أخبار الله ورسوله أن تكون على ظاهرهـا حـتى يقوم دليل قـاطع على صـرفها عن ظاهرهـا، لأننـا يـوم القيامـة سنسأل عما تقتضيه هذه النصـوص بحسـب الظـاهر، والـواجب علينا أن نعتقـد ظاهرهـا إلا إذا وجـد دليـلٌ قـاطع يسـوغ لنـا أن

1() البخاري 8 / 416، ومسلم رقم (159)

2() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 71)

نصرفها عن هذا الظاهر) (1)

وهكذا قال في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61] عند ذكره لفوائد هذه الآية الكريمة، فقد قال: (وفي قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) دليلٌ على أنهما هما اللذان يجريان حول الأرض يسِيرَان حول الأرض خلافًا لِمَن قال: إنَّهما لا يسيرَان على الأرض وأنَّ هذا -اختلاف الليل والنهار- بسبب دَوَران الأرض نفسِها وهذا لا شكَ أنَّ الذي لا يعتقد أنهما يدوران على الأرض أنَّه على خطر عظِيم ربما يصل به ذلك إلى الكفر لأنّ الذي نؤمن به ونعتقِدُه ما أخبرَنا الله عنه مِن أنَّ الشمس هي التي تدور على الأرض وكذلك القمر) (2)

ثم يرد ـ بمثل ما ردوا به على من أنكر عليهم تصوراتهم المرتبطة بالحقائق الدينية ـ فقال: (ومِن العجيب أنَّ هذا القول المخالف لِظاهِر القرآن أنَّه قد سرَى إلى أناسٍ لا تثِقُ في ديانَتِهم قصدي لا تشُكّ في ديانتهم، لكن غرَّهم السراب، فانخدعوا والواجِبُ علينا في هذه الأمور أن نمشِيَ على ظاهِر القرآن هذا الواجب حتى يتبَيَّن لنا ما يكون مخالِفًا لهذا الظاهر، أمَّا ما دلَّ عليه القرآن دلالة يقينية فإنَّه لا يمكن لِشيءٍ أن يخالفه فدلالةُ القرآن إمَّا ظاهرة وإما صريحة الصريحة قطْعِيَّةُ الدلالة ولا يمكن لشيء أن يخالفَها، والظاهرة ظنِّيَّة الدلالة فنبقى على هذا الأصل نبقى على الظاهر حتى يتبيَّن لنا بأمرٍ قطعي خلافُه وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يمكن أن يُؤَوَّل) (3)

بل إن بعض السلفية لم يكتف بإنكار دوران الأرض، بل راح ينكر كرويتها أيضا، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20]، وفي ذلك يقول القحطاني في نونيته التي لا يزال السلفية يهتمون بها ويحفظونها(4):

كذب المهندس والمنجم مثله فهما لعلم الله مدعيان
الأرض عند كليهما كروية وهما بهذا القول مقترنان
والأرض عند أولي النهى لسطيحة بدليل صدق واضح القرآن
والله صيرها فراشا للورى وبنى السماء بأحسن البنيان

1() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 71)
2() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 72)
3() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 73)
4() نونية القحطاني (ص: 32)

والله أخبر أنها مسطوحة وأبان ذلك أيما تبيان

بل كان أئمة الوهابية في السعودية يتهمون القائل بكون الأرض كروية بالتجهم، حتى أنه اتهم تقي الدين محمد بن عبد القادر الهلالي (المغربي)، بذلك مع كونه سلفيا متشددا، حيث وشى به المسئول عن مراقبة الدروس في المسجد النبوي للمسئولين لأنه يقول بكروية الأرض! واشتد نكيره عليه، وقال: (هذا لا يقوله إلا جهمي!)(1)

وهم لا يكتفون بتطويع ما تشابه من النصوص القرآنية، بل يضيفون إليها أحاديث ممتلئة بالغرابة، يضعون كل جهودهم في تصحيحها على المنهج الذي ذكرناه سابقا، ليضربوا بها في وجه من يخالفهم، لأنه حينها لن يبقى مخالفا لهم، وإنما مخالفا لرسول الله ﷺ .

ومن الأمثلة على ذلك هذا الحديث الذي يوردونه في هذا الباب، وكأنه حقيقة قطعية لا يجوز الجدال فيها.

فقد رووا عن عن عبد الله بن عمرو ـ وقد ذكرنا سابقا أنه كان تلميذا نجيبا لكعب الأحبار وغيره من اليهود ــ أن رسول الله ﷺ قال: (لو أن رَصَاصَةً مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة- أرسلت من السماء إلى الأرض - وهي مسيرة خمسمائة سنة- لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لصارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغ أصلها - أو: قعرها-)(2)

فإذا ما ناقشهم أي عاقل في سند الحديث، ضربوه بقول الترمذي: (هذا حديث إسناده حسن صحيح، وسعيد بن يزيد، هو: مصري، وقد روى عنه الليث بن سعد، وغير واحد من الأئمة)(3)

فإن لم تجد الضربة فيه مقتلا ضربوه بقول الحاكم: (صحيح الإسناد)، أو بقول البغوي: (هذا حديث حسن)(4)

فإن لم يجد كل ذلك نقلوا له ما قال العالم العلامة الحبر البحر الفهامة الشيخ عبد الله الدويش في تعليقه على الحديث: (ووجه الاستدلال بهذا الحديث على استقرار الأرض وثباتها: أن الله تعالى جعل الأرض مركزاً للأثقال، ومستقراً لما ينزل من السماء، ولو كانت الأرض تجري وتدور على الشمس - كما

______

(1) مختصر اللفظ في مسألة دوران الأرض، ص19.

(2) الترمذي (2588) والحاكم (2/438-439) وأحمد (2/197) وابنه عبد الله في الزهد (19-20) وابن المبارك في المسند (124) وفي الزهد (290- زوائد نعيم بن حماد) وابن جرير الطبري في تفسيره (29/64) والطبراني في الكبير (162)

(3) الترمذي (2588)

(4) الحاكم (2/438-439)

زعمه أهل الهيئة الجديدة- لكانت الشمس هي المركز والمستقر للأثقال، وهذا تكذيب لهذا الحديث الصحيح، وفي الحديث دليل آخر على استقرار الأرض وثباتها، وذلك مستفاد من النص على أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، والنص شامل لوجه الأرض من جميع الجهات؛ لأن النبي ﷺ أطلق ولم يخص جهة منها دون الجهة الأخرى؛ فدل عموم النص على أن المسافة بين السماء والأرض: خمسمائة سنة من كل جهة، وقد قرر الإمام أبو الحسين ابن المنادي: أن بُعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، ووافقه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية وغيره على ذلك، وفي حديث عبد الله بن عمرو الذي ذكرنا دليل لما قالوه.. وممن قال بأن جوف الأرض هو المركز للكون: أبو محمد الجويني)(1)

وهكذا لن يجد محاورهم إلا أن يلطم رأسه كما فعل إمام الحرمين.

ومثل ذلك يستدلون بما يروونه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إن هذه تجري، حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدةً، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدةً، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري، لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعةً من مغربك، فتصبح طالعةً من مغربها) فقال رسول الله ﷺ: (أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾). [الأنعام (158)])(2)

فيستدلون بهذا الحديث الغريب على (إثبات جريان الشمس، ودورانها حول الأرض، وأنها في كل يوم تذهب فتستقر تحت العرش، ثم تخر ساجدة، فتستأذن فيؤذن لها، فتشرق مرة أخرى من المشرق، وهكذا كل يوم حتى لا يؤذن لها، فتصبح طالعةً من المغرب)(3)

ويدعمون استدلالهم لهذا بقول الخطابي: (لا يُنكَر أن يكون لها استقرار تحت العرش، من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما هو خبر عن غيب فلا نكذب ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط

---

(1) المورد الزلال ص (269)
(2) البخاري (3199و4802و4803و7424و7433) مسلم (159)
(3) لماذا حركوا الأرض، ص15.

به)(1)

هـذه بعض النمـاذج عن تطـويعهم النقـل للـوهم، وسـنرى تفاصيل أكثر عن ذلك في الكتاب التالي لهذا، والمسـمى [هـذه علـوم السـلفية] في الفصـل المخصـص بمـوقفهم من العلـوم الكونية.

2 ـ تطويع العقل للوهم:

ينطلق السلفيون في إنكـارهم للحقـائق العلميـة السـابقة وغيرها من إنكـارهم للعلـوم والأدوات الـتي اسـتخدمها العلمـاء في اكتشاف تلك الحقـائق كالرياضـيات والهندسـة وعلم الفلـك وغيرها من العلوم، وهم يستدلون في هذا بقـول ابن تيميـة في [الرد على المنطقيين]: (وإنما جعلوا الهندسة مبـدأ لعلم الهيئـة ليستعينوا به على براهين الهيئة، أو ينتفعوا به في عمارة الـدنيا، هذا مع أن براهينهم القياسـية لا تـدل على شـئ دلالـة مطـردة يقينية سالمة عن الفساد إلا في هذه المواد الرياضـية.. وأولئـك المشركون كانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل، ويـدعونها بأنواع الدعوات، كما هو معروف من أخبارهم، ومـا صـنف على طـريقهم من الكتب الموضـوعة في الشـرك والسـحر ودعـوة الكواكب والعـزائم، والأقسـام الـتي بهـا يعظم إبليس وجنـوده، وكان الشيطان بسبب السحر والشرك يغويهم بأشياء هي الـتي دعتهم إلى ذلـك الشـرك والسـحر، فكـانوا يرصـدون الكـواكب ليتعلموا مقاديرها، ومقادير حركاتها، ومـا بين بعضـها وبعض من الاتصالات، ليستعينوا بذلك على ما يرونه مناسباً لها. ولما كانت الأفلاك مستديرة، ولم يكن معرفة حسابها إلا بمعرفـة الهندسـة وأحكام الخطـوط المنحنيـة والمسـتقيمة، تكلمـوا في الهندسـة لذلك، ولعمارة الدنيا. فلهذا صاروا يتوسعون في ذلـك، وإلا فلـو لم يتعلق بذلك غرض إلا مجرد تصور الأعداد والمقـادير لم تكن هذه الغاية مما يوجب طلبها بالسعي المذكور)(2)

بناء على هذا الموقف السلبي من كل العلوم الـتي توصـل من خلالها العلماء إلى تلك الحقائق العلمية، فـإنهم يـذكرون أن المرجع في التعرف على حقائق الكون هو النص المقـدس، لأن العقل لا يستطيع أن يتعرف بمفرده على حقائق الموجودات.

ولهذا نراهم يضعون صورة للكون تتناسب مع معتقـداتهم ـ كمـا أشـرنا إلى ذلـك بتفصـيل في كتـاب [السـلفية والوثنيـة المقدسة]

ونراهم ــ أيضـا ــ يسـتدلون على إنكـار تلـك الحقـائق بمـا يعتبرونه لوازم كفرية من اعتقـاد مـا يـذكره العلم الحـديث عن

---

(1) أعلام الحديث (3/1893)

(2) الرد على المنطقيين (133)

حقائق الكون.

فقد ذكر صاحب كتاب [لماذا حركوا الأرض] اللوازم الخطيرة التي تنجر من القول بدوران الأرض على العقيدة السلفية، فذكر منها: نفي وجود الخالق تعالى، أو الشك في ذلك، أو في أحسن الأحوال: نفي علوه تعالى على خلقه؛ (فإن القول بفضاء ليس له نهاية، يلزم منه: أولاً: نفي وجود السماوات السبع المبنية المحيطة بهذا الكون المخلوق.. ثانياً: نفي الكرسي الذي هو فوقها.. ثالثاً: نفي العرش الذي هو فوق الكرسي.. رابعاً: نفي علو الله تعالى على خلقه.. خامساً: نفي وجود الملائكة، والذين يعمرون هذه السماوات.. سادساً: نفي وجود الجنة، فإنها فوق السماء السابعة)(1)

وذكر ـ ككل أعلام السلفية ـ الأدلة الوهمية الكثيرة التي تثبت ثبات الأرض واستقرارها، مستخدمين ما أتقنوه من العلوم الحديثة، ومن تلك الأدلة (2) :

(1): أن الأرض لو كانت تسير بهذه السرعة الهائلة (30 كم في الدقيقة)؛ لما استقر على ظهرها شيء من البناء والشجر فضلاً عن الحيوانات؛ وذلك لشدة مخرها للهواء، ولشدة صدم الهواء لوجهها، وأما زعمهم: أن الغلاف الجوي تابع للأرض في الدوران فهذا زعم كاذب؛ لا دليل صحيح عليه من نقل أو عقل، لأنه قد جاء في آيات كثيرة ما يدل على أن الهواء مستقل بنفسه، وليس تابعاً للأرض، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء (16)]: فدلت هذه الآية الكريمة على أن خلق ما بين السماء والأرض كان مستقلاً بنفسه، وأنه مغاير في حقيقته وتكوينه لهما، وأما العقل: فمن المعلوم أن جرم وكثافة الجزيئات المكونة للهواء من الأكسجين و الهيدروجين والنيتروجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء: في غاية الخفة والضآلة؛ بحيث لا تؤثر عليها جاذبية الأرض؛ فتجعلها في حكم الملاصق لها، أو في حكم الأجسام التي على سطحها.. وكذلك: فإنه من المعلوم أن الأجسام التي على سطح الأرض إذا ارتفعت عنه واستقلت في الهواء؛ فإن سلطان الجاذبية عليها يضعف نوعاً ما، لا سيما كلما ازداد الارتفاع، وقلت الكثافة.. وكذلك: فإنه من المعلوم بالحس والضرورة أن الهواء المحصور في المراكب الحديثة، سواءً البرية أو البحرية أو الجوية، يكون متحركاً بسرعتها، بخلاف ما كان خارجها؛ فإنه لا يتبعها ولا يتحرك بسرعتها، بل يقاومها؛ فكذلك ما على ظهر الأرض من

---

(1) لماذا حركوا الأرض، ص15.
(2) لماذا حركوا الأرض، ص35.

الهواء لا يكون تابعاً لها.

(2): سير السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ فنحن نراه يتحرك في كل اتجاه، ولو صدق افتراؤهم لكان ينبغي أن تكون حركته فقط من الشرق إلى الغرب.

(3): هجرة الطيور: فما كان لهذه الطيور المهاجرة أن تهتدي لمواطن هجرتها، أو مواطنها الأصلية حين عودتها إليها، لولا فضل الله ورحمته بخلقه أن ثبَّت لهم الأرض التي يسكنونها؛ فجعلها قارَّةً ساكنةً.

(4): الطائرات التي تطير على ارتفاع شاهق جداً من الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس: لا تلحظ حركة الأرض ودورانها من المغرب إلى المشرق كما يزعمون كذباً وزوراً، بل لا ينبغي لهذه الطائرات أن تهتدي لمواضع هبوطها على سطح الأرض بمجرد استقلالها في الهواء.

وقد ختم هذه الاستدلالات العجيبة بهذه النتيجة الغريبة: (ومن تفكر في زورهم وبهتانهم تبين له ما يترتب على هذه النظرية الفاسدة من المناقضات العقلية الكثير)[1]

وهكذا استطاع العقل السلفي أن يحول الحقائق العلمية القطعية التي لا شك فيها وهما وخداعا، ويحول الخرافات التي نقلها عن سلفه حقائق قطعية لا يحل لأحد أن يناقشها، ومن تجرأ على ذلك عرض نفسه لسهام التكفير ورماح التبديع والتضليل.

1() لماذا حركوا الأرض، ص35.

الحسية.. لا المعنوية

الركن الخامس الذي يقوم عليه بنيان العقل السلفي هو [الحس] بدل المعنى، أو [الظاهر] بدل الباطن، أو [الحرفية] بدل المقاصدية، وهو ناشئ ــ كما يذكر المحللون النفسيون القدامى ـ من غلبة الجسد على الروح، والشهوة على العقل، والبهيمية على الإنسانية.. وهو من الخصال التي اكتسبها العقل السلفي من اليهود نتيجة إدمانه على التلمذة على آثارهم وأخلاقهم.

ولا نحتاج إلى جهد كبير لإثبات هذه الخاصية في العقل السلفي، ومشابهتهم لليهود فيها، فإن كل شيء فيهم يفضح هذه الصفة ويدل عليها.

فهم ــ في الظاهر ــ يظهرون ورعا شديدا في التقيد بأحكام الشريعة، ولكنهم ـ في الباطن ـ أبعد الناس عنها، لأنهم لا يرون من الشريعة إلا ظاهرها الملموس، أما حقيقتها ومعانيها العميقة، فهم يجافونها، بل يشوهونها بسلوكهم وأخلاقهم التي يتصورون أنهم لن يتدينوا التدين الصحيح إلا بممارستها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الناحية في اليهود خصوصا، وحذر الأمة من الوقوع فيها، كما قال تعالى في شأن القبلة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]

فالآية الكريمة تبين أن البر ـ الذي هو لب الدين ـ لا يقتصر على تلك المظاهر والرسوم والشعائر الظاهرة، بل هو قبل كل شيء وبعده علاقة روحانية عميقة مع الله ومع جميع الحقائق المقدسة المرتبطة به.. وهو كذلك قيم رفيعة، وأخلاق عالية تتجلى في جميع مظاهر الحياة.

وقد ذكر المفسرون سبب نزول الآية وعلاقتها باليهود، فذكروا أن (الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو

البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه)(1)

وهكذا نجد قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 189]، وهو يشير إلى ما كان يبالغ فيه المشركون من شعائر ظاهرة حسية في نفس الوقت الذي يعرضون فيه عن الشعائر الباطنة، التي هي لب الدين وأصله وجوهره.

وهذا كله يدل على أن التعلق بالشعائر الظاهرة وحدها والمبالغة فيها أسلوب الشيطاني يستعمله مع الديانات المختلفة ليبعدها عن أهداف الدين الأساسية، فيصبح الدين مجرد طقوس وشعائر، لا حياة فيها ولا أثر لها.

وقد طبق الشيطان مشروعه في هذه الأمة عن طريق الاتجاهات السلفية المختلفة التي ملأت حياة الأمة فتنا منذ نشوئها، بل حولت شعائر الدين إلى وسيلة للتنافر والتباغض وجميع الأمراض النفسية.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن الصلاة التي هي عمود الدين وركنه الركين، بدل أن تكون وسيلة لتغذية الروح، والتواصل مع الله، وامتلاء الحياة بجميع القيم النبيلة بسبب الحرص عليها وأدائها بالصفة التي أمر بها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1، 2]، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، وقال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]

إلا أنها تحولت في أيدي السلفية إلى مجرد رسوم وطقوس، يتصورون من خلالها كبرا وغرورا أنهم وحدهم المستأثرون بكيفية صلاة النبي ﷺ، حتى كتبوا في ذلك كتبا كثيرة، وأثاروا فتنا في المساجد بسببها، يدعون أن صلاتهم هي صلاة سنة، وصلاة غيرهم صلاة بدعة.

وقد أشار ﷺ إلى هذه الخصلة فيهم إشارة صريحة، فقال: « يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم)(2)

---

(1) تفسير ابن كثير (1/ 485)

(2) مسلم 2/ـ 748 وأبي داود 5/ـ 125 وأحمد 1/ـ 91 و 92 والنسائي في الكبرى 5/ 163.

فهـذا الحـديث يشـير إلى تلـك المبالغـات في المظـاهر التعبدية في نفس الوقت الذي ينشغلون فيه عن حقائق العبادة وجوهرها.

وفي قوله ﷺ في الحديث:(يقرأون القرآن ليس قـراءتكم إلى قراءتهم بشيء)، وقوله في حديث آخـر : (يخـرج قـوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسـنان، سـفهاء الأحلام، يقولـون من قـول خـير البريـة، يقـرأون القـرآن لا يجـاوز حنـاجرهم)(1) إشـارة إلى مبالغـاتهم في أحكـام الترتيـل والتشـدد مـع الغنـة والمدود، متناسـين الحقـائق القرآنيـة العظيمـة الـتي يحاربونهـا بسلوكهم.

وهكـذا نجـد شـأنهم في جميـع أحكـام الشـريعة.. فهم في المسائل التي أتاحت الشـريعة فيهـا الكثـير من الحريـة للنـاس حـتى لا تضـيق الحيـاة بهم، نـراهم يضـيقون عليهـا، فيفرضـون عليهم مظاهر معينة يلزمونهم بهـا إلزامـا شـديدا، وكـأن الـدين مختصر في لحية وقميص وعباءة ونقاب .. وغيرها.

وهكذا نجد موقفهم من الجوانب الاجتماعية التي اختصرت عنـــدهم في بعض الرســـوم الســـطحية الـــتي يخصـــون بهـــا أصحابهم .. أما غيرهم، فمقتضى الولاء والبراء الـذي اسـتخدمه الشـيطان للتفريـق بين المؤمـنين يـدعوهم إلى ممارسـة كـل الرذائل الأخلاقية معهم باسم الدين وباسم رسول الله ﷺ رحمة الله للعالمين.

حتى أنهم وفي معاملاتهم مع غير المسـلمين الـذين أمرنـا بأن نحسن إليهم، بل ندفع من أموالنا ما يؤلـف قلـوبهم، نـراهم يدعون إلى ممارسة كل أنواع الإساءت معهم بدل تلك الرحمـة والسماحة التي نص عليها القرآن الكريم.

ومن الأمثلة على ذلك مـا يتداولـه السـلفية بينهم من كتب ابن تيمية التي نسخوا بها الشـريعة السـمحة وهي رسـالة تحت عنوان (مسألة في الكنائس)، أجاب فيها على سؤال هـذا نصـه: (ما تقول السادة العلمـاء في الكنـائس الـتي بالقـاهرة وغيرِهـا التي أغلقت بأمر ولاة الأمور، إذا ادعى أهـل الذمـة: أنهـا غلِّقت ظلمـاً، وأنهم يسـتحقون فتحهـا، وطلبـوا ذلـك من ولي الأمـر .. فهل تقبل دعواهم؟ وهل تجب إجابتهم أم لا؟!)(2)

وقـد أجـاب ابن تيميـة على هـذه المسـألة بقولـه: (أمـا دعواهم أن المسلمين ظلموهم في إغلاقها فهذا كـذبٌ مخـالفٌ لأهل العلم، فإن علماء المسـلمين من أهـل المـذاهب الأربعـة: مـذهب أبي حنيفـة، ومالـك، والشـافعي، وأحمـد، وغـيرهم من

(1) البخاري 6 / 172، ومسلم رقم (1063)
(2) مسألة في الكنائس، (ص: 99)

الأئمة، كسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم، ومن قبلهم من الصحابة والتابعين، متفقون على أن الإمام لو هدم كل كنيسةٍ بأرض العنوة كأرض مصر والسواد بالعراق، وبر الشام ونحو ذلك، مجتهدًا في ذلك، ومتبعًا في ذلك لمن يرى ذلك، لم يكن ذلك ظلماً منه؛ بل تجب طاعته في ذلك.. وإن امتنعوا عن حكم المسلمين لهم، كانوا ناقضين العهد، وحلت بذلك دماؤهم وأموالهم) (1)

ولذلك لا نستغرب ما يمارسه تلاميذ المدرسة السلفية من تدمير للكنائس وإساءة للمسيحيين وغيرهم من أهل الأديان المختلفة، بل إساءتهم للمسلمين أنفسهم.. لأنهم يعتقدون أن الإسلام لهم وحدهم، أما غيرهم فكلهم منحرفون ضالون مضلون.

وهكذا نجد مواقفهم السلبية من تلك العواطف النبيلة التي يبرزها المسلمون لربهم أو نبيهم ﷺ حيث يعتبرون كل ذلك بدعة وضلالة، فلا يهتمون بشيء كما يهتمون بالتحذير من كل مظاهر التدين العميق الممتلئ بالمحبة والسماحة.

بل إن غلبة البهيمية على هذا العقل جعلته في ممارساته الدعوية يعطي كل جهده للدعوة إلى الجنة وقصورها وأنهارها وللحور العين، فهو يتاجر بهم في كل المحال، لأن الدين في تصوره ليس سوى مقايضة الله ببعض الممارسات السطحية الممتلئة بالكثافة، وفي المقابل ينال الخلود في الجنة الحسية التي ملأوا حياة الناس ضيقا وشقاء بسببها.

هذه مجرد أمثلة على غلبة الحس على المعنى في العقل السلفي، وسنرى هنا تفاصيل ذلك وأدلتها من خلال الجوانب التالية: التعبدية، والشخصية، والاجتماعية، والعاطفية، وهي مجرد أمثلة لأن استيعاب ذلك كله محال لكثرته وتشعبه.

أولا ـ الجوانب التعبدية

العبادة بالمفهوم الإسلامي الأصيل الذي نص عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة ووضع الشعائر المرتبطة بها هي ذلك التوجه الروحاني الخاشع لله تعالى، بحيث يعيش الممارس لها في ظلها أجواء جميلة من التواصل مع الله والتعرف عليه ومحبته والأنس به والشوق إليه.

ولذلك فإن العبادات ــ بمختلف أنواعها من صلاة وذكر وتلاوة وغيرها ـ هي المعراج الذي يعرج به المؤمن لربه، ليأنس به، ولينال من معرفته والقرب منه بحسب حظه من تلك

(1) مسألة في الكنائس (ص: 102)

الشعائر التعبدية وصدقه في أدائها.

وهي مع كونها ذات هيئة خاصة وقع فيها الخلاف في الأمة إلا أن المسلم الواعي .. أو المسلم المدرك للمقصد الشرعي منها لا يهتم بتلك التفاصيل الكثيرة .. فهو قد يختار هيئة من الهيئات عن قناعة أو اجتهاد أو تقليد لكنه في نفس الوقت لا يفرض على غيره تلك القناعة، ولا يعتبر أن عبادته أفضل من عبادة غيره لكون المقصد من تلك العبادات هو الخشوع لا الحركات المرتبطة بها.

هذه هي نظرة المسلم الصادق للعبادة.. فهو ينظر إليها من زاويتين: زاوية شخصية تجعله يهتم بأدائها بحسب ما وصل إليه اجتهاده أو تقليده..

وزاوية اجتماعية، وهي احترام الشعائر التي يمارسها سائر المسلمين بمختلف مذاهبهم، وعدم التفاخر عليهم.. لأنه لا يدري أيهم أقرب، فالله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والحركات وإنما ينظر إلى القلوب.

هذه هي نظرة المسلم الإنسان الذي يستلهم دينه من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة المحمية بحصون القرآن الكريم.. أما النظرة السلفية، والتي تجعل القرآن الكريم والسنة المطهرة سجينة لفهوم السلف فإنها تنظر إلى المسألة نظرة مختلفة تماما.

فهي من جهة لا تهتم برعاية المقاصد الشرعية في العبادات.. لأن عنايتها كلها موجهة للأداء الظاهري الحرفي.. ومن جهة ثانية تحارب المقاصد الشرعية، بما ابتدعته من فتاوى وأحكام قاسية تحول العباد والزهاد والمستغرقين في عبادة الله إلى مبتدعين وزنادقة ومنحرفين.

وسنتحدث باختصار هنا عن كلا الجانبين:

1 ـ إهمال المقاصد الشرعية:

من أهم مظاهر التقصير بل الإهمال السلفي للمقاصد الشرعية في العبادات ذلك التركيز الشديد على الصور المرتبطة بأدائها والمبالغة الشديدة في ذلك إلى درجة اعتبار كل مخالف لهم في أي جزئية منها مبتدعا وضالا ومنحرفا.

ومن أكبر الطامات هو ربطهم لذلك برسول الله ﷺ .. وكأنهم وحدهم من دون الأمة من رأى رسول الله ﷺ، وشاهد صلاته، فهو يقلده تقليدا، ويعتبر المخالف له مقصرا أو مفرطا أو مبتدعا.

لذلك من غرائب ما كتبوه تلك الكتب المصنفة في كيفية صلاة رسول الله ﷺ .. وكأن صلاة رسول الله ﷺ هي تلك الحركات الخالية من المعاني المقدسة، وكأنهم عندما يتحركون

بتلك الحركات يكونون قد فعلوا نفس ما كان يفعله رسول الله ﷺ.. وأنى لهم ذلك.

بالإضافة إلى ذلك فإن الصلاة التي هي محل التواضع والخشوع والمسكنة تحولت لديهم إلى وسيلة للتباهي على سائر الأمة، ووسيلة لتفريق صفها، وقد ورد في بعض الآثار: (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرا على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، وأجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة)(1)

هذه هي الصلاة التي حث عليها القرآن الكريم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يصلي.. لكن السلفية أبوا ذلك، وراحوا ـ بمنهجهم الحديث الذي ذكرنا ثغراته سابقا ـ يحاولون الوصول بانتقائيتهم المعهودة إلى الكيفية التي كان يصلي بها رسول الله ﷺ.. وهم يعلمون أن الأمة اختلفت، وأن كل طائفة ومذهب اقتنع بقناعة معينة، فهو يصلي على أساسها محترما لغيره، معطيا الأهمية في الصلاة لروحها ومعناها ومقصدها.

ومن أشهر الكتب التي ألفوها في ذلك، وأثارت فتنا كبيرة في المساجد وغيرها الكتاب المعنون بـ [صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها] من تأليف محمد ناصر الدين الألباني، والذي ذكر دوافعه من تأليفه، فقال: (ولما كنت لم أقف على كتاب جامع في هذا الموضوع فقد رأيت من الواجب علي أن أضع لأخواني المسلمين ممن همهم الاقتداء في عبادتهم بهدي نبيهم ﷺ كتابا مستوعبا ما أمكن لجميع ما يتعلق بصفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم بحيث يسهل على من وقف عليه من المحبين للنبي ﷺ حبا صادقا القيام بتحقيق أمره في الحديث: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، ولهذا فإني شمرت عن ساعد الجد وتتبعت الأحاديث المتعلقة بما إليه قصدت من مختلف كتب الحديث فكان من ذلك هذا الكتاب الذي بين يديك)(2)

وهذا الكلام العنصري الخطير الذي يحصر المحبين لرسول الله ﷺ في هذا التيار دون سائر الأمة يبين مفهوم المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ عند السلفيين، فهي عندهم مجرد تقليد لما كان يفعله، لا التواصل الروحي والعاطفي الممتلئ بالمشاعر النبيلة.. ولهذا نراهم يجعلون السنة ـ كما يتصورونها ـ

---

(1) أبو نعيم في حلية الأولياء ح 4731.

(2) صفة صلاة النبي ﷺ الألباني (ص: 40)

هي وسيلتهم للفرقة والكراهية.

وقد ذكر الألباني الآثار الخطيرة التي ستنجر عن كتابه هذا، فقال ـ بجرأة عجيبة متحديا كل الأمة وفقهائها ــ : (ولذلك فإن الكتاب سيكون إن شاء الله تعالى جامعا لشتات ما تفرق في بطون كتب الحديث والفقه - على اختلاف المذاهب مما له علاقة بموضوعه - بينما لا يجمع ما فيه من الحق أي كتاب أو مذهب، وسيكون العامل به إن شاء الله ممن قد هداه الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ثم إني حين وضعت هذا المنهج لنفسي - وهو التمسك بالسنة الصحيحة - وجريت عليه في هذا الكتاب وغيره - مما سوف ينتشر بين الناس إن شاء الله - كنت على علم أنه سوف لا يرضي ذلك كل الطوائف والمذاهب بل سوف يوجه بعضهم أو كثير منهم ألسنة الطعن وأقلام اللوم إلي ولا بأس من ذلك علي فإني أعلم أيضا أن إرضاء الناس غاية لا تدرك، فحسبي أنني معتقد أن ذلك هو الطريق الأقوم الذي أمر الله تعالى به المؤمنين وبينه نبينا محمد سيد المرسلين وهو الذي سلكه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)(1)

لقد ذكر هذا الكلام في مقدمته للطبعة الأولى، وبعد عشر سنين من نشر الكتاب، وبعد أن أصبحت الصلاة التي جعلها الله وسيلة لوحدة الأمة وعروجها إلى ربها وسيلة للفتنة والكراهية .. لم يتراجع، ولم يندم، بل ظل مصرا على ذلك.

بل إنه راح يدعو أتباعه وأتباع مدرسته إلى التشدد أكثر، قال في مقدمته لطبعة جديدة من الكتاب: (ذلك ما كنت كتبته منذ عشر سنوات في مقدمة هذا الكتاب وقد ظهر لنا في هذه البرهة أن له تأثير طيب في صفوف الشباب المؤمن لإرشادهم إلى وجوب العودة في دينهم وعبادتهم إلى المنبع الصافي من الإسلام: الكتاب والسنة فقد ازداد فيهم - والحمد لله - العاملون بالسنة والمتعبدون بها حتى صاروا معروفين بذلك)(2)

لكنه بعد العشرية السوداء من الفتنة التي أحدثها كتابه، والتي أنشأت جيلا من الشباب معروفا بصلاته الميزة رأى في البعض بعض الورع عن استخدام الصلاة وسيلة لشق الصف الإسلامي، فراح ينصحهم، ويزل عنهم ذلك الورع، بل راح ينفخ فيهم روح التحدي، تحدي الأمة جميعا في أقدس شعائرها، يقول في ذلك: (غير أني لمست من بعضهم توقفا عن الاندفاع إلى العمل بها لا شكا في وجوب ذلك بعد ما سقنا من الآيات والأخبار عن الأئمة في الأمر بالرجوع إليها، ولكن لشبهات

---

(1) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 43)
(2) صفة صلاة النبي ﷺ(ص: 58)

يسمعونها من بعض المشايخ المقلدين، لذا رأيت أن أتعرض لذكرها والرد عليها لعل ذلك البعض يندفع بعد ذلك إلى العمل بالسنة مع العاملين بها، فيكون من الفرقة الناجية بإذن الله تعالى)(1)

وهكذا قسم الألباني المصلين إلى قسمين: ناجين وغير ناجين.. أما الناجون فليسوا أولئك الذين في صلاتهم خاشعون، ولا على صلاتهم دائمون .. وإنما أولئك الذي لكتاب الألباني قارئون، وله متبعون، وفي سبيله مضحون.. وأما الهالكون، فليسوا أولئك الذين عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، وإنما هم الذين للألباني مخالفون، وعن كيفية صلاة رسول الله ﷺ معرضون.

هذا ما يريد الألباني وغيره من أعلام السلفية تلقينه للأمة .. هم يدعونها للانشقاق باسم أقدس مقدساتها، كما دعوها للانشقاق باسم عقائدها ورسولها وكل أصول دينها وفروعه.

والعجيب أن الألباني يرد على أولئك الشباب ورعهم في تمزيق وحدة الأمة، يقول حاكيا موقفه الذي لم يعجبه: (قال بعضهم: لا شك أن الرجوع إلى هدي نبينا ﷺ في شؤون ديننا أمر واجب لا سيما فيما كان منها عبادة محضة لا مجال للرأي والاجتهاد فيها لأنها توقيفية كالصلاة مثلا ولكننا لا نكاد نسمع أحدا من المشايخ المقلدين يأمر بذلك بل نجدهم يقرون الاختلاف ويزعمون أنها توسعة على الأمة ويحتجون على ذلك بحديث - طالما كرروه في مثل هذه المناسبة رادين به على أنصار السنة -: (اختلاف أمتي رحمة) فيبدو لنا أن هذا الحديث يخالف المنهج الذي تدعو إليه وألفت كتابك هذا وغيره عليه فما قولك في هذا الحديث)(2)

وهنا يدخل الألباني قدراته الحديثية التي تصحح ما يشاء وتضعف ما يشاء، ليقضي على الحديث، وبعدها يذهب ليقضي على ما ورد في الدعوة إلى الوحدة في القرآن الكريم، فيقول: (.. الثاني: أن الحديث مع ضعفه مخالف للقرآن الكريم فإن الآيات الواردة فيه - في النهي عن الاختلاف في الدين والأمر بالاتفاق فيه أشهر من أن تذكر) (3)

والعجيب أن الألباني كغيره من السلف يطبق ما يقول المثل بدقة: (رمتني بدائها وانسلت)، فهو يتصور أن الاتفاق والوحدة لابد أن تكون على مذهبه، لا على أي مذهب آخر.. أي

1() صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 58)
2() صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 58)
3() صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 59)

أن الأمـة جميعـا سـلفها وخلفهـا إن أرادت أن تتحـد، فعليهـا أن تتحد على كتابه، وإلا فإنه لا يهمه اتحادها أو اختلافها.

ونحن لا ننكر عليـه، ولا على السـلفية جميعـا، ولا على أي أحد من الناس أن يجتهد في أي مسألة، ولكن ننكـر عليـه ذلـك الاحتكار لرسول الله ﷺ ولسنة رسول الله ﷺ وللصلاة.. فلو أنه ذكر أن كتابه هذا اجتهاد منه، وهو لا يلغي اجتهـاد غـيره، وأنـه لا حرج على أي أحد أن يتبع مـا شـاء من الآراء، لمـا أنكرنـا عليـه هذا، لأن إنكارنا للفتنة وليس للبحث العلمي.

وما فعله الألباني هو نفس ما فعلـه السـلفية جميعـا، وفي جميـع مراحـل التـاريخ، فقـد حفـظ لنـا المؤرخـون الكثـير من الحوادث التي كان الحنابلة سببا فيها بسبب فـروع بسـيطة في الصلاة وغيرها.

ومن الأمثلة على ذلك مـا ذكـره ابن الأثـير في سـنة 447 هـ، قال: (في هـذه السـنة وقعت الفتنـة بين الفقهـاء الشـافعية والحنابلـة ببغـداذ، ومقـدم الحنابلـة أبـو يعلى بن الفـراء، وابن التميمي، وتبعهم من العامة الجم الغفير، وأنكـروا الجهـر ببسـم الله الرحمن الرحيم، ومنعـوا من الـترجيع في الأذان، والقنـوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصـل حـال، وأتى الحنابلـة إلى مسـجد ببـاب الشـعير، فنهـوا إمامـه عن الجهـر بالبسملة، فأخرج مصحفا وقال: أزيلوهـا من المصـحف حـتى لا أتلوها)(1)

ومنها ما ذكره ابن كثير في أحداث سنة سنة 323هجرية ـ فقد ذكر أن جماعة من الحنابلة ببغداد اعترضوا على من يجهـر بالبسملة في الصلاة، مما جعل الشرطة تتدخل ضدهم، فأمرت بـأن لا يُصـلي حنبلي بالنـاس إلا إذا جهـر بالبسـملة في صـلاتي الصـبح و العشـاء، لكن الحنابلـة لم يرتـدعوا، و اسـتمروا في عنفهم تجاه الشافعية، و لم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدر الخليفـة الراضـي باللـه توقيعـا عنيفـا زجـرهم فيـه، و هـددهم بالقتـل و التنكيل، و التشريد و حرق البيوت(1)

وقد أشار الغزالي إلى ما يمارسه السلفية من الاسـتغراق في الجـانب الظـاهري من الشـعائر التعبديـة، وإهمـال الجـانب البـاطني، فقـال: (وأمـا الصـلاة فالفقيـه يفـتي بالصـحة إذا أتى بصورة الأعمال مـع ظـاهر الشـروط وإن كـان غـافلا في جميـع صـلاته من أولهـا إلى آخرهـا مشـغولا بـالتفكير في حسـاب معاملاته في السـوق إلا عنـد التكبـير وهـذه الصـلاة لا تنفـع في الآخرة كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفـع ولكن الفقيـه يفـتي بالصـحة أي أن مـا فعلـه حصـل بـه امتثـال صـيغة الأمـر

(1) الكامل في التاريخ (8/ 129)

وانقطع به عنه القتل والتعزير فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه)(1)

ثم حكى عن صلاة السلف الصالح الذين يتاجر بهم السلفية، فروى عن الإمام علي بن أبي طالب أنه كان إذا حضر وقت الصلاة، يتزلزل ويتلون وجهه، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين فيقول: (جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها)(2)

وروي عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: (أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟)(3)

أما صلاة رسول الله ﷺ وخشوعها وعروجه إلى الله فيها، فلا يمكن التعبير عنه ولا وصفه.. بل لا يمكن لأي كتاب من كتب الدنيا أن يحيط به.

بالإضافة إلى هذا رد الغزالي على هذه المنهج الحسي في التعامل مع الصلاة، بأن تلك الحركات، مهما دقت لا تساوي شيئا أمام حركة القلوب بالخشوع والتقوى، يقول في ذلك: (.. أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فإما أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل، كما تمتحن المعدة بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج .. ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل، بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق، ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما في الضمير، ولا يكون معربا إلا بحضور القلب)(4)

2 ـ مناقضة المقاصد الشرعية:

لم يكتف السلفية بشغل الأمة في تلك الخلافات الفرعية حول الشعائر التعبدية، والتي أثارت الفتن بينهم، وزعزعت وحدتهم واستقرارهم، بل راحوا إلى كل حسنة من حسنات الشعائر التعبدية يواجهونها بالمحاربة والتبديع، بل بالتكفير، بل بالتحريض على القتل.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر.. وسأذكر هنا نماذج عنها لتكون دليلا على غيرها.

فمن الأمثلة على ذلك أن الكثير من المسلمين من أتباع

1() إحياء علوم الدين (1/ 18)
2() إحياء علوم الدين (1/ 151)
3() إحياء علوم الدين (1/ 151)
4() إحياء علوم الدين (1/ 160)

المـذاهب المختلفـة، وتقـديرا منهم لأهميـة النيـة في الصـلاة، وخوفـا من تسـرب الغفلـة إليهم فيعجلـوا بـالتكبير قبـل النيـة، صاروا يتلفظون بالنية ردعا للوسواس .. وقـد أخـذ بهـذا الكثـير من المذاهب الإسلامية.. لكن السلفية ـ وبلسان شيخهم الأكـبر ـ لم يكتفوا بأن يروا أن هـذه المسـألة مرجوحـة، والـدليل فيهـا ضعيف، وأن الأرجح خلافها..

وإنما راحـوا بمـا في نفوسـهم من أسـود ونمـور يحكمـون على فاعل ذلك ومستحله بالقتل، يقول ابن تيمية: (الجهر بلفظ النية ليس مشـروعا عنـد أحـد من علمـاء المسـلمين، ولا فعلـه رسول الله ﷺولا فعله أحد من خلفائـه وأصـحابه وسـلف الأمـة وأئمتهـا، ومن ادعى أن ذلـك دين اللـه، وأنـه واجب، فإنـه يجب تعريفه الشريعة، واستتابته من هذا القول، فإن أصـر على ذلـك قتل)(1)

وعلى إثـره قـال الشـيخ ابن بـاز: (التلفـظ بالنيـة بدعـة، والجهر بذلك أشـد في الإثم، وإنمـا السـنة النيـة بـالقلب .. ولم يثبت عن النـــبي ﷺ ولا عن أحـــد من أصـــحابه ولا عن الأئمـــة المتبوعين التلفظ بالنية، فعلم بـذلك أنـه غـير مشـروع بـل من البدع المحدثة)(2)

ومن الأمثلة على ذلك موقفهم من قـراءة القـرآن الكـريم جماعة، والتي أراد المسلمون من خلالها أن يجعلوا من القــرآن الكـريم واسـطة للتلاحم الاجتمـاعي، والروحانيـة الاجتماعيـة، لتتعمق الوحدة بينهم في ظلال حبل الله المتين القرآن الكريم، بالإضافة إلى ما ورد من الـدعوة إلى ذلـك في قولـه ﷺ: **:** (مـا اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسـونه بينهم إلا نـــزلت عليهم الســـكينة، وغشـــيتهم الرحمـــة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)(3)

فهذا الحـديث العظيم كـاف بمفـرده للدلالـة على الفضـل العظيم الـذي ينالـه قـراء القـرآن الكـريم جماعـة، أمـا تحريـف الحديث وتأويله بـذكر أن معنـاه المـراد منـه هـو أن يقـرأ واحـد ويسـتمع البـاقون، فهـو تأويـل بعيـد جـدا، بـل هـو أقـرب إلى التحريـف منـه إلى التأويـل، ذلـك أننـا إذا قلنـا: جلس القـوم يـأكلون.. فهـذا لا يعـني أن تـدار الملعقـة بينهم، ليأكـل الواحـد منهم، وينتظر الآخرون أدوارهم ليأكلوا..

فكلمة [يفعلون] في اللغة العربية دلالتهـا واضـحة، وتعـني أنهم يفعلون جميعا في نفس الوقت.. وإخراجها عن هذه الدلالة

1() مجموع الفتاوى: ج 22 / ص 235ـ236.
2() فتاوى إسلامية ج1ص 315.
3() رواه مسلم (8/71)

يقتضي قرينة أو دليلا خارجيا، ودون ذلك خرط القتاد.

لكن السلفية بسبب حرصهم على سلفهم أكثر من حرصهم على رسول الله ﷺ راحوا يعقبون على ذلك، بأن السلف لم يفعلوا..وما داموا لم يفعلوا، فهذا يعني أن النصيحة التي وجهها رسول الله ﷺ لأمته بدعة، ومن التزم بها فقد ابتدع .. لأن الدين يمثله السلف لا رسول الله ﷺ.. أو هو بعبارة أخرى أكثر أدبا: الدين يمثله رسول الله ﷺ ولكن بشرط أن يكون بفهم السلف، أو بشرط أن يوافق عليه السلف.

وبناء على هذا، فقد راحوا يحذرون من هذه السنة الحميدة التي امتلأت بها مساجد الأمة، وكانت سببا في اهتمامها بالقرآن الكريم حفظا وفهما وتدبرا.

ومن الأمثلة على ذلك أن الشيخ عبد الله بن قعود وعبد الله بن غديان وعبد الرزاق عفيفي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، وكلهم من هيئة كبار العلماء سئلوا هذا السؤال من بعض المغاربة: (من عادتنا نحن المغاربة أن نقرأ القرآن جماعة صباحاً ومساء بعد صلاة الصبح والمغرب، فهل يعد هذا بدعة؟)، فأجابوا هذه الإجابة الخطيرة: (التزام قراءة القرآن جماعة بصوت واحد بعد كل من صلاة الصبح والمغرب أو غيرهما بدعة، وكذا التزام الدعاء جماعة بعد الصلاة، أما إذا قرأ كل واحد لنفسه أو تدارسوا القرآن جميعاً كلما فرغ واحد قرأ الآخر واستمعوا له فهذا من أفضل القرب)[1]

وهذا للأسف ـ قصدوا أو لم يقصدوا ـ نوع من التنفير من قراءة القرآن الكريم، لأن تلك العادة كانت سببا في انتشار تلاوة القرآن الكريم في المغرب العربي، واهتمامهم به وبحفظه، لكن إزالة هذا وغيره قد ساهم في النفور منه، والرغبة عن حفظه.

ولو أننا طبقنا المقاييس التي اعتمدوا عليها في هذه الفتوى، لوجدناهم يتناقضون معها تناقضا تاما.

ومن الأمثلة على ذلك أن المصحف الذي تطبعه السعودية، والذي كان ولا زال لهيئة كبار العلماء علاقة بالإشراف عليه لا يتفق مع المصحف الذي كان في عهد السلف الأول، بل لا يتفق مع قول مالك الذي بنوا عليه قولهم في تبديع القراءة الجماعية للقرآن الكريم.

فقد قال أشهب: سمعت مالكا، وقد سئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية .قال: (إنى أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شئ أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك

1() مجموع فتاوى اللجنة الدائمة بالسعودية - المجلد الخامس والعشرون (العقيدة)

بأسا) (1)

فلذلك عليهم أن يحذفوا من مصاحفهم ما كرهه مالك، وإلا كانوا من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

بل إن النصوص الواردة عن السلف في هـذه المسـألة لم تنحصر في قول مالك وحده، فقد قال الاوزاعي:سـمعت يحـيى بن أبي كثير يقول: (كان القرآن مجردا في المصاحف فأول مـا أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء وقالوا لا بأس به هـو نـور لـه ثم أحـدثوا فيهـا نقطـا عنـد منتهى الآي، ثم أحـدثوا الفـواتح والخواتم)(2)

ومن الأمثلة على مناقضـتهم للمقاصـد الشـرعية مـوقفهم من دعاء المسلمين بعضهم لبعض بعد الانتهاء من الصـلاة، بـأن يقولـوا: (تقبـل اللـه)، ونحوهـا.. فـإن السـلفية لم يعجبهم هـذه السنة الحسنة، والتي تساهم في التآلف والمحبـة، والـتي تعتـبر مقصدا من المقاصد للعبادات التي تؤدى جماعة.. ولذلك راحـوا يحاربونها، ويعتبرون الفاعل لذلك مبتدعا، وضالا، وفي النار.

وقد ورد سؤال لبعض مشايخهم المعاصرين الكبـار يقـول: (بعض الإخوة يقولون تقبـل اللـه بعـد الانتهـاء من الصـلاة، وأنـا أعلم أنها بدعـة، ولكن أريـد التفصـيل : لمـاذا هي بدعـة ؟ ومن من العلماء قال هي بدعة ؟ لأن كثيرا من الجهـال عنـدما تقـول له بدعة يتضايق ويقول : إنه دعاء بأن يتقبل الله صلاتك)

فأجـاب بقولـه: (قـال الحافـظ ابن كثـير: (أهـل السـنة والجماعة يقولون في كـل فعـل وقـول لم يثبت عن الصـحابة : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها)(3) .. وقال الشيخ الفوزان: (البدع التي أحدثت في مجال العبادات في هذا الزمـان كثـيرة ؛ لأن الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع شيء منها إلا بدليل، وما لم يدل عليه دليل فهو بدعـة ؛ لقولـه ﷺ : (من عمـل عملاً ليس عليه أمرنـا فهـو رد)(4)، والعبـادات الـتي تمـارس الآن ولا دليل عليها كثيرة جدًّا)(5) .. وسئل الشيخ ابن عثيمين: (مـا رأى فضيلتكم في المصافحة وقول تقبل الله بعد الفراغ من الصـلاة مباشرة ؟ فأجاب بقولـه: (لا أصـل للمصـافحة، ولا لقـول تقبـل اللـه بعـد الفـراغ من الصـلاة، ولم يـرد عن النـبي ﷺ، ولا عن أصـحابه)(6) .. وسـئل أيضـا : هنـاك من النـاس من يزيـد في

1() الْمُوَطَّأ،2/145(1823)، المحكم الدانى،ص11.
2()) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ،ص 130.
3() تفسير ابن كثير (7 / 278-279)
4() رواه البخاري (2697) ومسلم (1718)
5() البدعة (أنواعها وأحكامها) من مجموعة مؤلفات الفوزان (14 / 15)
6() مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (13 / 171)

الأذكار بعد الصلاة كقول بعضهم : تقبل الله أو قولهم بعد الوضوء (زمزم) فما تعليقكم حفظكم الله تعالى؟ فأجاب بقوله : (هذا ليس من الذكر، بل هذا من الدعاء إذا فرغ وقال : (تقبل الله منك)، ومع ذلك لا نرى أن يفعلها الإنسان، لا بعد الوضوء، ولا بعد الصلاة، ولا بعد الشرب من ماء زمزم ؛ لأن مثل هذه الأمور إذا فعلت لربما تتخذ سنة فتكون مشروعة بغير علم)(1)

ومن الأمثلة على مناقضتهم للمقاصد الشرعية موقفهم من كل تلك الممارسات التعبدية التي يمارسها المسلمون لتمتلئ حياتهم بذكر الله، وقراءة القرآن الكريم، ولتشيع المودة والتآلف بينهم بسبب ذلك.. فقد راحو يعتبرون كل ذلك من بدع الضلالة.

فقد سئل الشيخ ابن باز عن قراءة القرآن في مكبرات الصوت قبل الجمعة، فقال: (لا نعلم لذلك أصلا، لا من الكتاب ولا من السنة ولا من عمل الصحابة ولا السلف الصالح رضي الله عن الجميع، ويعتبر ذلك حسب الطريقة المذكورة من الأمور المحدثة التي ينبغي تركها، لأنه أمر محدث ولأنه قد يشغل المصلين والقراء عن صلاتهم وقراءتهم) (2)

وسئل الشيخ ابن عثيمين عن (وضع المصحف في السيارة أو في مكان العمل دفعاً للعين أو توقياً للخطر أو للتبرك)، فأجاب بقوله: (حكم وضع المصحف في السيارة دفعاً للعين أو توقياً للخطر بدعة فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يحملون المصحف دفعاً للخطر أو للعين وإذا كان بدعةً فإن النبي ﷺ قال : (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)(3)(4)

وهكذا اتفقوا على حرمة قراءة القرآن عند الميت، قال الشيخ ابن عثيمين: (وأما قراءة الفاتحة على الميت فهي بدعة على بدعة، فما كان الرسول ﷺ يعزي بقراءة الفاتحة ولا بغيرها من القرآن)(5)

وهكذا بدعوا التلبية الجماعية التي يمارسها المسلمون في الحج، حيث يتقدم واحد منهم أو يكون في الوسط أو في الخلف ويلبي ثم يتبعونه بصوت واحد، قال الشيخ ابن عثيمين : (وهذا هو المشروع للمسلمين أن يلبي كل واحد بنفسه وألا يكون له تعلق بغيره) (6)

وهكذا بدعوا الدعاء الجماعي الذي يمارسه المسلمون بعد

1() مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (13 / 211)
2() كتاب الدعوة (1/131) الشيخ ابن ياز.
3()) صحيح سنن النسائي رقم (1487)
4()) البدع والمحدثات وما لا أصل له (ص259) ط دار ابن خزيمة .
5() لقاء الباب المفتوح (12/16)
6() فقه العبادات (ص343)

الصلاة بصوت واحد، فقد قالت اللجنة الدائمة للفتوى جوابا على من سأل عن هذا: (ليس الدعاء بعد الفرائض بسنة إذا كان ذلك برفع الأيدي سواء كان من الإمام وحده أو المأموم وحده أو منهما جميعاً بل ذلك بدعة لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه)

ولم يكتف السلفية بهذا، بل وصل بهم الأمر إلى تبديع ما اتفق عليه المسلمون من قراءة الفاتحة عند عقد القران تبركا بالقرآن الكريم، فقد قال الشيخ ابن عثيمين: (ليس هذا بمشروع بل هذا بدعة، وقراءة الفاتحة أو غيرها من السور المعينة لا تقرأ إلا في الأماكن التي شرعها الشرع فإن قرئت في غير الأماكن تعبداً فإنها تعتبر من البدع)(1)

بل إن المبالغة في هذا وصلت بهم إلى حد تبديع من يقول: (صدق الله العظيم) بعد قراءة القرآن الكريم، قال الشيخ ابن عثيمين: (قول صدق الله العظيم بعد قراءة القرآن الكريم لا أصل له من السنة ولا عمل الصحابة رضي الله عنهم، وإنما حدث أخيراً، ولا ريب أن قول القائل: صدق الله العظيم: ثناء على الله عزوجل فهو عبادة، فإنه لا يجوز أن نتعبد لله به إلا بدليل من الشرع وإذا لم يكن هناك دليل من الشرع كان ختم التلاوة به غير مشروع ولا مسنون، فلا يسن للإنسان عند انتهاء القرآن الكريم أن يقول: صدق الله العظيم.. وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قال كان يقرأ ولم ينقل عنه كان يقول صدق الله العظيم)(2)

وهكذا تحول السلفية بفعل تبعيتهم المطلقة لسلفهم إلى معاول لهدم كل حسنة تمارس في المجتمعات الإسلامية للتقرب إلى الله، وإضافة مزيد من الروحانية على العلاقات الاجتماعية، ولذلك لا عجب أن نعتبر السلفية هي مشروع الشيطان في هذه الأمة لصرفها عن دينها المحمدي الأصيل وتحويلها إلى دين الشيطان، وعبدة الشيطان.

ثانيا ـ الجوانب الشخصية

نريد بالجوانب الشخصية تلك الأمور التي لا علاقة لها بالشعائر التعبدية، كما أنه ليس لها علاقة بالجوانب الاجتماعية وغيرها، وفي نفس الوقت تعتبر من الأمور التي تختلف فيها أذواق الناس ومشاربهم.. ومن ذلك ما يتعلق باللباس والهيئة والمظهر والمأكل والمشرب والكثير من العادات التي تدخل في دائرة المباحات.

والنصوص القرآنية الكثيرة ومثلها الأحاديث النبوية

1()) سؤال وجواب من برنامج نور على الدرب (2/84) الشيخ ابن عثيمين .

2()) فتاوى إسلامية الشيخ ابن عثيمين (4/17)

الشريفة تعطي هذا الجانب حرية كبيرة، فللمؤمن أن يأكل ويلبس ويفعل ما يشاء ما دام ذلك لا يضره، ولا يضر الآخرين من حوله.

ولهذا وصفت هذه الشريعة بكونها شريعة سمحة لطيفة لينة، كما قال تعالى في وصف رسول الله ﷺ كما بشر به الأنبياء السابقون: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 156 - 157]

وقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] يدل على ما كان في الديانات السابقة ـ خاصة اليهودية ـ من أنواع الأغلال التي كلفوا بها بسبب عنتهم وجدلهم مع أنبيائهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: 160]، وقال في بيان أنواع من المحرمات عليهم بسبب بغيهم: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146].

بناء على هذا جاءت النصوص الكثيرة تبين حل كل ما يمارسه الناس في جوانبهم الشخصية من أنواع الاختيارات ما دام ذلك لا يضرهم هم ولا مجتمعهم..

بل ورد الأمر بأخذ الزينة والاهتمام بالهندام، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: 31)

وقال ـ مخاطبا أولئك المتكلفين الذين يحرمون ما أحل الله ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 32)

ولهذا فإن البيان النبوي لأحكام الشريعة المرتبطة بهذا الجانب لم تضع إلا قيودا أخلاقية تحمي الجوانب الشخصية من أن تعتدي على سائر الجوانب، ومن ذلك قوله ﷺ: (كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة)(1)

ومن هذا الباب ما ورد من النهي عن إطالة الثوب بسبب المخيلة، لأن المتكبرين في ذلك الحين كانوا يلبسون ثيابا

(1) (النسائي 2559)

طويلة يختالون بها على المستضعفين، كما قال ﷺ : (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)(1)

والحديث واضح في كون النهي مرتبطا بعلة محددة مضبوطة، وهي الخيلاء.. ولذلك فإن أي عاقل ينظر إلى العلة التي قد تتوفر في أي مظهر من المظاهر، والتي قد يكون منها تقصير الثوب نفسه.. فإذا أصبح التقصير خيلاء وفخرا وكبرا حرم.. لا لكونه تقصيرا، وإنما لكونه خيلاء.

هكذا يفهم أصحاب العقل المقاصدي .. لكن الحرفيين والحسيين والعقل السلفي خصوصا جعلوا من تقصير الثوب مسألة كبيرة، راحوا من خلالها يميزون أصحاب الفرقة الناجية من الفرق الهالكة.

وقد جعل أتباعه لذلك ممتلئين بالعقد، فهم يخالفون مجتمعاتهم في أمثال هذه المظاهر البسيطة، وذلك يجرهم بالضرورة إلى الكثير من العقد، ومعها الكثير من الاستعلاء.

وقد سئل الشيخ ابن باز: (ما حكم إطالة الثوب إن كان للخيلاء أو لغير الخيلاء وما الحكم إذا اضطر الإنسان إلى ذلك سواء إجبارًا من أهله أو كان صغيرًا أو جرت العادة على ذلك؟)، فأجاب بقوله: (حكمة التحريم في حق الرجال .. ولا يجوز أن يظن أن المنع من الإسبال مقيد بقصد الخيلاء، لأن الرسول لم يقيد ذلك عليه الصلاة والسلام في الحديثين المذكورين آنفا، كما أنه لم يقيد ذلك في الحديث الآخر وهو قوله ﷺ لبعض أصحابه: (إياك والإسبال فإنه من المخيلة)، فجعل الإسبال كله من المخيلة لأنه من الغالب لا يكون إلا كذلك، ومن لم يسبل للخيلاء فعمله وسيلة لذلك، والوسائل لها حكم الغايات، ولأن ذلك إسراف وتعريض لملابسه للنجاسات، والوسخ ..أما من يتعمد إرخاءها، سواء كانت بشتًا أو سراويل أو إزارًا أو قميصا فهو داخل في الوعيد وليس معذورا في إسبال ملابسه لأن الأحاديث الصحيحة المانعة من الإسبال تعمه بمنطوقها، وبمعناها ومقاصدها فالواجب على كل مسلم أن يحذر الإسبال وأن يتقي الله في ذلك، وألا ينزل ملابسه عن كعبه عملاً بهذه الأحاديث الصحيحة وحذرًا من غضب الله وعقابه)(2)

والعجيب في هذا الاستدلال هو تطبيقه لبعض النصوص على حساب بعض، أو ضربه بعض النصوص ببعض، مع أن الأصل أن يعمل الجميع، فما دام قد ورد القيد في حديث من الأحاديث، فهو يحمل عليها جميعا، وليس بالضرورة أن يبين

---

(1) البخاري 3465، مسلم 2085.

(2) فتاوى مجلة الدعوة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (218)

رسـول اللـه ﷺ في كـل موضـع ذلـك القيـد.. هـذا إن نقلت لنـا الأحاديث بدقة ومن غير تصرف، وقد رأينا كيـف يتلاعب الـرواة بالأحاديث.

وهكذا نرى أمثال هـذه الاسـتدلالات الـتي ضـيقوا بهـا على أنفسهم، وعلى حياة الناس، فوضعوا عليهـا من الأغلال أضـعاف ما كان موضوعا على اليهود.

وسأنقل هنا من كتاب واحـد من كتبهم بعض مـا ذكـره من أغلال، لنرى الصورة التي يريد الشيطان أن يخـرج بهـا المسـلم للعالم حتى يكون حجابا بينهم وبين هداية الله.

وهذا الكتاب هو [الإيضاح والتبيين لمـا وقـع فيـه الأكـثرون من مشـابهة المشـركين]، وهـو من تـأليف الشـيخ (حمـود بن عبدالله التويجري) الـذي تعرفنـا على كتابـه في إثبـات مشـابهة آدم لصورة الرحمن في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]

وقد قدم لـه هـذا الكتـاب أيضـا شـيخ السـلفية الأكـبر في العصر الحديث الشيخ ابن باز، وقد قال في تقديمه له: (اطّلعت على هذا المؤلّف الجليل الموسوم بـ [الإيضاح والتبيين لما وقـع فيه الأكـثرون من مشـابهة المشـركين]؛ تـأليف أخينـا وصـاحبنا الشيخ العلاَّمة (حمود بن عبداللـه التـويجري)، وسـمعته بقـراءة مؤلفه من أوَّله إلى آخِره فألفيته عظيم الفوائـد، كثـير الفرائـد، قد اشتمل على بيان جملة كبـيرة من الأشـياء الـتي أشـبه فيهـا الكثير من المسلمين أعداء الله من اليهود والنصارى والمجوس وسائر المشركين، معزَّزًا بالأدلة الواضـحة من الكتـاب والسـنة، موشَّحًا بالكثير من كلام السلف الصالح وأئمة الإسلام في بيـان الحق بدليله، وتزييف الباطل وإقامة الحجة عليه، وفي التحقيـق أني لا أعلم أنـه أُلِّف على منوالـه مثلـه، مـع وضـوح العبـارة والعنايـة بالأدلـة، والعلـل المهمـة والحِكَم الشـرعية، والأضـرار الكثيرة الناجمة عن مشابهة المشركين والاقتداء بهم، المفضـية إلى نسيان الكثير من السـنة، وطمس الكثـير من أعلام الحـق، ولا سيما في هذا العصر الذي قد استحكمت فيه غُرْبَة الإسـلام، وفَشَتْ فيه البدع والمنكرات، وقلَّ فيه العلم وغلب فيه الجهل، وكثر فيه أنصار الهوى وقلَّ فيه اتِّباع الهـدى، فلا حـول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم)(1)

بناء على هـذه التزكيـة من ابن بـاز ومن كثـير من مشـايخ السلفية سأنقل بعض ما ذكره هذا العلم السـلفي حـتى لا نتهم بأننا ننقل من أعلام غير معتبرين.

فمن الأنـواع الـتي ذكرهـا لتشـبه المسـلمين (بأعـداء اللـه لبس البرنيطة التي هي من لباس الإفرنج ومَن أشبههم من أمم

(1) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص4.

الكفر والضلال، وتسمى أيضًا القبعة، وقد افتُتِن بلبسها كثير من المنتسبين إلى الإسلام في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية، ولا سيما البلدان التي فشتْ فيها الحرية الإفرنجية وانطمست فيها أنوار الشريعة المحمدية.. ومن ذلك الاقتصار على لبس السترة والبنطلون، فالسترة قميصٌ صغيرٌ يبلغ أسفله إلى حدِّ السرَّة أو يزيد عن ذلك قليلاً، وهو من ملابس الإفرنج، والبنطلون اسمٌ للسراويل الإفرنجية، وقد عظمت البلوى بهذه المشابهة الذميمة في أكثر الأقطار الإسلامية.. ومَن جمع بين هذا اللباس وبين لبس البرنيطة فوق رأسه فلا فرق بينه وبين رجال الإفرنج في الشكل الظاهر، وإذا ضمَّ على ذلك حلق اللحية كان أتمَّ للمشابهة الظاهرة، ومَن تشبَّه بقوم فهو منهم) [1]

ثم راح التويجري ينتهج منهج سلفه في الرد على الشبهات المرتبطة بلبس البرنيطة، فقال: (فإن ادَّعى المتشبِّهون بأعداء الله تعالى أنهم إنما يلبسون البرنيطات لتكون وقاية لرؤوسهم من حرِّ الشمس، ويلبسون البنطلونات والقمص القصار لمباشرة الأعمال، قيل: هذه الدعوى حيلة على استحلال التشبُّه المحرَّم والحِيَل لا تُبِيح المحرَّمات، ومَن استحلَّ المحرمات بالحِيَل فقد تشبَّه باليهود)[2]

وهكذا أصبحت البرنيطة والسروال هي علامة اليهودية لا تحويل اليهود إلى مفسرين للقرآن وشارحين للعقيدة، وقد رأينا سابقا كيف أن هذا التويجري نفسه يجيز الرجوع لكتب اليهود للتعرف على صورة الله.

وقد نقل الشيخ التويجري عن علم آخر من أعلام السلفية المعاصرين، وهو الشيخ أحمد محمد شاكر قوله: (ولم يختلف أهل العلم منذ الصدر الأول في هذا؛ أعني: في تحريم التشبُّه بالكفار حتى جئنا في هذه العصور المتأخِّرة فنبتت في المسلمين نابتة ذليلة مستعبدة هجيراها وديدنها التشبُّه بالكفار في كلِّ شيء والاستخذاء لهم والاستعباد، ثم وجدوا من الملتصقين بالعلم المنتسبين له مَن يزيِّن لهم أمرهم ويهوِّن عليهم أمر التشبُّه بالكفار في اللباس والهيئة والمظهر والخلق وكلِّ شيء، حتى صرنا في أمةً ليس لها من مظهر الإسلام إلا مظهر الصلاة والصيام والحج على ما أدخلوا فيها من بِدَع، بل من ألوان من التشبُّه بالكفار أيضًا، وأظهر مظهر يريدون أن يضربوه على المسلمين هو غطاء الرأس الذي يسمُّونه القبعة (البرنيطة)، وتعلَّلوا لها بالأعاليل والأباطيل، وأفتاهم بعض الكُبَراء المنتسبين إلى العلم أن لا بأس بها إذا أُرِيد بها الوقاية

1() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص74.
2() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص74.

من الشمس، وهم يـأبون إلا أن يظهـروا أنهم لا يريـدون بهـا إلا الوقاية من الإسلام، فيصرح كُتَّابهم ومفكروهم بأن هذا اللبــاس له أكبر الأثر في تغيير الرأس الذي تحته ينقله من تفكير عــربي ضيِّق إلى تفكـير إفـرنجي واسـع، ثم أبى اللـه لهم إلا الخـذلان، فتناقضوا ونقضوا ما قالوا من حجة الشـمس إذ وجـدوا أنهم لم يستطيعوا ضرب هـذه الذلَّة على الأمـة، فـنزعوا غطـاء الـرأس بمرة تكـروا الطربـوش وغـيره، ونسـوا أن الشـمس ستضـرب رؤوسهم مباشرة دون واسطة الطربوش، ونسوا أنهم دعوا إلى القبعة وأنه لا وقاية لرؤوسهم من الشمس إلا بها) (1)

ومن أنـواع التشـبه بأعـداء اللـه ــ كمـا يـذكر التـويجري ـ (استقذار الأكل بالأيدي، واعتياد الأكل بالملاعق ونحوها من غـير ضرر بالأيدي، وكذلك الجلـوس للطعـام على الكراسـي ونحوهـا ممـا يتَّكئ الجـالس عليـه ويتمكَّن في جلوسـه، وكـذلك تـرتيب سماطات الطعام وأوانيه على الزيِّ الإفرنجي، وكلُّ هذا مخالِف لهدي رسول الله ﷺ الذي هو أكمل الهدي على الإطلاق) (2)

وقد نقل عن الشيخ أحمد محمـد شـاكر قولـه تعليقـا على بعض الأحـاديث: (هــذا الحــديث ممــا يتحــدَّث فيــه المــترَفون المتمدِّنون عبيد أوروبا في بلادنا يستنكرونه والمـؤدب منهم مَن يزعم أنه حديث مكذوب؛ لأنه لا يعجبـه ولا يوافـق مزاجـه، فهم يستقذرون الأكل بالأيدي وهي آلة الطعام التي خلقها اللـه وهي التي يَثِقُ الآكل بنظافتها وطهارتها إذا كان نظيفًا طاهرًا كنظافـة المؤمـنين.. أمـا الآلات المصـطنَعة للطعـام فهيهـات أن يطمئن الآكل إلى نقائها إلا أن يتولَّى غسلها بيده، فأيُّهما أنقى؟ ثم ماذا في أن يلعق أصابعه غـيره إذا كـان من أهلـه أو ممَّن يتَّصـل بـه ويخالطه إذا وَثِق كلٌّ منهما من نظافة صاحبه وطهره، ومن أنــه ليس به مرضٌ يُخشَى أو يُسْتَقذر) (3)

وقد ذكر بعـد هـذا بعض الأحـاديث، ثم علـق عليهـا بقولـه: (وقد اشتملت هذه الأحـاديث على عـدَّة فوائـد وآداب من آداب الأكل: الأولى: مشروعية الأكل باليد بخلاف ما عليه المتشـبِّهون بالإفرنج وأضرابهم من الأكل بالملاعق واستقذار الأكل بالأيـدي، وفعــل أعــداء اللــه وأشــباههم أَوْلَى بالاســتقذار من فعــل المسلمين، وذلك أن أحدهم يدخل الملعقة أو بعضها في فيه ثم يخرجها وقد علق اللُّعاب بها فيغمسها في الطعام بما علـق بهـا ثم يدخلها في فيه مـرة أخـرى، وهكـذا يفعـل إلى أن يفـرغ من أكله، وأما الأصابع فإن الآكل بها لا يدخلها في فيـه وإنمـا يـدخل

---

(1) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص77.
(2) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص174.
(3) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص174.

اللقمة فقط وتكون الأصابع من خارج فيه فلا يعلق بها اللعاب كما يعلق بالمعلقة. والقول في أكل اللحم بالأشواك التي أحدَثَها أهل المدينة من الإفرنج ومَن يتشبَّه بهم كالقول في الأكل بالملاعق سواء، فكلاهما أَوْلَى بالاستقذار من الأكل بالأيدي. والأكل بهما خلاف هدي رسول الله ﷺ الذي هو الغاية في النظافة والنزاهة والبعد عما يُكرَه ويُستَقذر) (1)

ومن أنواع التشبه بأعداء الله ـ كما يذكر التويجري ـ (الإشارة بالأصابع عند السلام، وكذلك الإشارة بالأكفِّ مرفوعة إلى جانب الوجه فوق الحاجب الأيمن كما يفعل ذلك الشرط وغيرهم.وكذلك ضرب الشرط بأرجلهم عند السلام ويسمُّون هذا الضرب المنكر والإشارة بالأكفِّ التحية العسكرية، وهي تحية مأخوذة عن الإفرنج وأشباههم من أعداء الله تعالى وهي بالهزء والسخرية أشبه منها بالتحية، ولكن ما الحيلة فيمَن غيرت طباعهم المدنية الإفرنجية، وأثَّرت فسادًا كثيرًا في أخلاقهم وأفعالهم حتى صاروا يستحسنون من أفعال الإفرنج وغيرهم من الأعاجم ما يستقبحه أولو العقول السليمة والفِطَر المستقيمة. وهذه التحية المستهجَنة من جملة المنكر الذي ينبغي تغييره والنهي عنه) (2)

ومن أنواع التشبه بأعداء الله ـ كما يذكر التويجري ـ (ما يفعله كثير من الجهَّال من التصفيق في المجالس والمجامع عند رؤية ما يعجبهم من الأفعال، وعند سماع ما يستحسنونه من الخطب والأشعار، وعند مجيء الملوك والرؤساء إليهم، وهذا التصفيق سخَف ورعونة ومنكر مردود من عدَّة أوجه: أحدها: أن فيه تشبهًا بأعداء الله - تعالى - من المشركين وطوائف الإفرنج وأشباههم.. الثاني: أن التصفيق من خصائص النساء لتنبيه الإمام إذا نابَه شيء في صلاته.. الثالث: أن النبي ﷺ أنكر على الرجال لما صفقوا في الصلاة؛ لأنهم فعلوا فعلاً لا يجوز للرجال فعله ولا يليق بهم وإنما يليق بالنساء.. الرابع: أن التصفيق لم يكن من هدي رسول الله ﷺ ولا من هدي أصحابه ولم يكن من عمل التابعين وتابعيهم بإحسان، وإنما حدث في المسلمين في أثناء القرن الرابع عشر من الهجرة النبوية لما كثرت مخالطة المسلمين للإفرنج، وأعجِب جُهَّال المسلمين بسنن أعداء الله وأفعالهم الذميمة) (3)

ومن أنواع التشبه بأعداء الله ـ كما يذكر التويجري ـ (اللعب بالكرة على الوجه المعمول به عند السفهاء في هذه

1() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص174.
2() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص151.
3() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص165.

الأزمان؛ وذلك لأن اللعب بها على الوجه مأخوذ عن الإفرنج وأشباههم من أعداء الله تعالى، وقد رأيت عمل الأمريكان في أخشاب الكرة ومواضع اللعب بها، ورأيت عمل سفهاء المسلمين في ذلك فرأيته مطابقًا لعمل الأمريكان أتمَّ المطابقة.. إذا عُلِم هذا فاللعب بالكرة على الوجه الذي أشرنا إليه من جملة المنكر الذي ينبغي تغييره، وبيان ذلك من وجوه: أحدها: ما فيه من التشبُّه بالإفرنج وأضرابهم من أعداء الله تعالى.. الثاني: ما في اللعب بها من الصدِّ عند ذكر الله وعن الصلاة، وهذا أمر معروف عند الناس عامَّتهم وخاصَّتهم.. الثالث: أن في اللعب بالكرة ضررًا على اللاعبين؛ فربما سقط أحدهم فتخلعت أعضاؤه، وربما انكسرت رجل أحدهم أو يده أو بعض أضلاعه، وربما حصل فيه شجاج في وجهه أو رأسه، وربما سقط أحدهم فغُشِي عليه ساعة أو أكثر أو أقل، بل ربما آلَ الأمر ببعضهم إلى الهلاك، كما قد ذكر لنا عن غير واحد من اللاعبين بها، وما كان هذا شأنه فاللعب به لا يجوز.. الرابع: أن اللعب بالكرة من الأشَر والمرَح ومقابلة نِعَم الله تعالى بضدِّ الشكر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]، واللعب بالكرة نوعٌ من المرح) (1)

ومن أنواع التشبه بأعداء الله ـ كما يذكر التويجري ـ (ما يفعله أهل المدارس وغيرهم من إقامة التمثيليات للماضِين وأفعالهم .. ولم يكن ذلك من هدي رسول الله ﷺ ولا من هدي أصحابه ﷺ ولم يكن من عمل التابعين وتابعيهم بإحسان، وإنما حدث ذلك في زماننا وهو متلقًّى عن الإفرنج وأشباههم، وقد قال النبي ﷺ: (مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ). وفي هذا الحديث دليلٌ على المنع من إقامة التمثيليات لأنها من المحدثات)(2)

ومن أنواع التشبه بأعداء الله ـ كما يذكر التويجري ـ (جعل الولاية العامَّة جمهوريةً، وهذا من عمل أمم الكفر والضلال ومَن يقتدي بهم من المنتسبين إلى الإسلام، وهو خلاف ما تقتضيه الشريعة الإسلامية من نصب إمام واحد لا غير .. وفي هذه الأحاديث دليلٌ على أن البيعة لا تجوز لأكثر من واحد، وأن الجمهورية لا تجوز في الإسلام، وأنه لا يجوز الخروج على ولاة الأمور وإن ظلموا وجاروا، وإن الخارج عليهم لينازعهم الملك يجب قتله) (3)

هذا مجرد نموذج عن العقل السلفي، وفهمه للنصوص

---

(1) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص175.
(2) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص188.
(3) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص175.

الشرعية، وهي توضح كيف ضيق هذا العقل على نفسه، وكيف ضيق على المسلمين، وفوق ذلك كيف رسم صورة للمسلم المعقد والمريض نفسيا لتزرع في العالم أجمع [الإسلامفوبيا] التي أراد بها الشيطان أن يحجب البشرية عن آخر مشروع الهداية أنزل عليهم.

ثالثا ـ الجوانب الاجتماعية

وهي من ـ خلال الرؤية القرآنية ـ من أهم الجوانب، وتقرن دائما بالعبادات الكبرى، بل إنها تقدم في أحيان كثيرة على العبادات نفسها، كما قال تعالى في السورة التي وردها في تعريف الدين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)﴾ [الماعون: 1 - 7]

فهذه السورة الكريمة تعرف المكذب بالدين بأنه ذلك الذي ينهر اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، وذلك الذي يسهو عن صلاته، ويرائي بها، ويمنع معونته عن الناس.

وبناء على هذا كان نجاح المسلم في بناء علاقات اجتماعية قوية وصحيحة مع الناس من أكبر علامات تدينه، لأن التدين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، كما قال ﷺ : (المؤمن يألَف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يألَف ولا يُؤْلَف، وخير النَّاس أنفعهم للنَّاس)(1)، وقال: (إنَّ أحبكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون، وإنَّ أبغضكم إليَّ المشَّاءون بالنَّمِيمَة، المفرِّقون بين الأحبَّة، الملتمسون للبرآء العنت، العيب)(2)

بل إن الله تعالى اعتبر التآلف من نعم الله تعالى على عباده، فقال: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: 103]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: 62-63]

ولهذا شرع لنا أن نمارس كل ما يؤدي إلى هذه الألفة حتى نحافظ على هذه النعمة، كما قال ﷺ: (تهادوا تحابُّوا)(3)، وقال: (جُبِلَت القلوب على حبِّ مَن أحسن إليها، وبغض مَن أساء إليها)(4)

---

(1) أحمد (5/ 335) والطبراني (5744) وقال الهيثمي (10/ 276) إسناده جيد.

(2) قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ـ 21): رواه الطبراني في الصغير والأوسط.

(3) مالك (الموطأ) (1750)

(4) قال في المقاصد الحسنة (ص: 280): رواه أبو نُعيم في الحلية، وأبو الشيخ، وابن

بل إن رسول الله ﷺ مارس هذا الإحسان المؤلف للقلوب مع ألد أعدائه من المشـركين، كمـا ورد في الحـديث وعن عبـد الله بن زيد بن عاصم قال: (لمَّا أفاء اللـه على رسـوله ﷺ يـوم حنين قسـم في النَّاس في المؤلَّفـة قلـوبهم ولم يعـط الأنصـار شيئًا، فكـأنَّهم وجـدوا إذ لم يصـبهم مـا أصـاب النَّاس، فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم اللـه بي وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بي، وعالـة فأغنـاكم اللـه بي؟ كلَّمـا قـال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَن. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال: كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَن. قـال: لـو شئتم قلتم جئتنـا كـذا وكـذا، أترضـون أن يـذهب النَّاس بالشَّـاة والبعـير، وتـذهبون بـالنَّبيِّ ﷺ إلى رحـالكم؟ لـولا الهجـرة لكنت امرءًا مِن الأنصار ولو سـلك النَّاس واديـا وشـعبًا لسـلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والنَّاس دثار، إنَّكم ستَلْقَون بعدي أَثَرَة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)(5)

وهـذا الحـديث الشـريف يـبين حـرص رسـول اللـه ﷺ في تأليفه القلوب على من لم يتبعه أكثر من حرصه على من اتبعه، لأن من اتبعه وكل إلى إيمانه بالله، أمـا الـذي لم يتبعـه في هـو يحتاج إلى مزيد من تأليف قلبه، حتى تزول الحجب الـتي تحـول بينه وبين التأمل فيه أو القناعة به.

ولهذا أمرنا في الشريعة بأن نؤلف قلـوب غـير المسـلمين ولو بإعطائهم من الزكاة، كما قال تعـالى في مصـارف الزكـاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَـامِلِينَ عَلَيْهَـا وَالْمُؤَلَّفَـةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَـابِ وَالْغَـارِمِينَ وَفِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّـبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 60]

وهكذا أمرنا أن نقدم لهم كل أنواع البر التي تقربهم إلينــا، قال تعـالى: ﴿ لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُم مِّن دِيَـارِكُمْ أَن تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَـاتَلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الممتحنة: 8-9]

هذه مجامع مـا ورد في القـرآن الكـريم من اعتبـار الألفـة والمحبـة والتسـامح أسسـا تقـوم عليهـا العلاقـات الاجتماعيـة بتفاصيلها المختلفة، لكن العقـل السـلفي راح يخـرب ذلـك كلـه بتشريعات غريبة، وضـع لهـا سـلفه أحـاديث غريبـة، ووضـع لهـا خلفـه فتـاوى عجيبـة، حـولت المتـدين السـلفي إلى وحش من الوحوش، لا يكاد أحد يقترب منه إلا آذاه.

حبان في روضة العقلاء، والخطيب في تاريخ بغداد.

5() رواه البخاري 8 / 37 - 42، ومسلم رقم (1061)

وبما أننا سنتناول هذه المسألة بتفصيل في كتاب [السلفية والتاريخ الأسود]، فإننا سنكتفي هنا بعـرض بعض النمـاذج الـتي تدل على انحراف العقـل السـلفي عن المقاصـد الشـرعية في هذه الجوانب المهمة في حياة المسلم.

ومن أهم تلك الأحكام الخطـيرة مـا ننسـبوه للشـريعة من أحكام تخرب علاقـة المسـلم بغـير المسـلم، ومن الأمثلـة على ذلـك أن اللجنــة الدائمــة للفتــوى في الســعودية ســئلت هــذا الســؤال: (حـــديث: لا تبـــدأوا اليهـــود والنصـــارى بالســـلام واضطروهم إلى أضيق الطريق ، مـا هـو شـرحه، وكيـف يجمـع المسلم بينه وبن معاملة الرسول ﷺ الحسنة للكفار، من زيـارة مرضاهم، وقبول هداياهم، وأعطى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول قميصه ليكفن أباه فيه؟)

فأجابت ـ بمنهجها الحـديثي المملـوء بالمتناقضـات، والـذي شرحناه سابقا ــ (نص الحـديث كمـا في (صـحيح مسـلم): لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، إذا لقيتم أحـدهم في طريـق فاضـــطروهم إلى أضـــيقه ، وفي روايـــة لمســـلم : إذا لقيتم اليهود ، وفي أخـرى: إذا لقيتم أهـل الكتـاب ، وفي أخـرى: إذا لقيتموهم ولم يسم أحدًا من المشركين، ومعنى الحديث: أنه لا يجوز ابتـداء الكـافر بالسـلام؛ لأن النهي يقتضـي التحـريم، وقـد نهى رسول الله ﷺ عن ابتدائهم بالسلام.. وأما إذا سـلموا فإنـه يـرد عليهم (وعليكم) بـدليل مـا رواه مسـلم في صـحيحه : إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم وقد بين النووي رحمه اللـــه: أن معـــنى قولـــه ﷺ: فـــإذا لقيتم أحـــدهم في الطريـــق فاضطروه إلى أضيقه فقال: قال أصحابنا: لا يترك للذمي صدر الطريق، بل يضـطر إلى أضـيقه إذا كـان المسـلمون يطرقـون، فإن خلت الطريق من الزحمة فلا حرج، قـالوا: وليكن التضـييق بحيث لا يقع في وهدة ولا يصدمه جدار ونحوه)(1)

وهكذا تحولت الألفة التي شـرعها اللـه تعـالى في القـرآن الكــريم، ومارســها رســول اللــه ﷺ في حياتــه إلى أن يضــيق المسلم على غيره الطريق، ولا يبدأه بالسلام.. وذلك كله نتيجة الاستسلام لحديث آحاد غـريب يتنـاقض مـع كـل القيم القرآنيـة والنبوية، كان يمكن رده لو اعتـبرت فيـه هـذه العلـل الخطـيرة الدالة على أنه أبعد من أن ينطق به رسول الله ﷺ.

ولكن العقل السلفي أضـعف من أن يتجـرأ على هـذا، لأن راوي الحـديث من سـلفه، ومصـحح الحـديث من أئمـة سـلفه.. وسلفه لا يمكن أبدا أن يكذبوا أو يخطئوا أو يدلسوا.

1() فتاوى اللجنة الدائمة، (الجزء رقم : 24، الصفحة رقم: 137)، السـؤال السـادس من الفتوى رقم (5313)

ولهذا فإن اللجنة اضطرت لحل إشكال التعارض بين الحديث وفعل رسول الله ﷺ إلى هذا التكلف الممقوت، قالت: (ولا معارضة بين هذا الحديث وبين ما وقع منه ﷺ من المعاملة الحسنة للكفار من زيارة مرضاهم وقبول هداياهم وإعطاء عبد الله بن أبي بن سلول قميصه ليكفن فيه، فإن المعاملة الحسنة يقصد بها تأليفهم ودعوتهم إلى الإسلام وترغيبهم فيه.. وجملة القول في ذلك: أن ما كان من باب البر والمعروف ومقابلة الإحسان بالإحسان قمنا به نحوهم لتأليف قلوبهم، ولتكن يد المسلمين هي العليا، وما كان من باب إشعار النفس بالعزة والكرامة ورفعة الشأن فلا نعاملهم؛ كبدئهم بالسلام تحية لهم، وتمكينهم من صدر الطريق تكريمًا لهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً لذلك لكفرهم، وإذا خيف منهم التلبيس في الحديث أجيبوا بمجمل من القول دون غلظة وفحش، مثل: رد السلام عليهم بكلمة: (وعليكم) وبهذا يجمع بين الأحاديث) (1)

وهكذا نرى موقف السلفية من بعض الممارسات البسيطة التي يقوم بها المسلمون تجاه إخوانهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعيشون معهم في مجتمعاتهم، أو في غيرها من المجتمعات، كالتهنئة بالأعياد ونحو ذلك.

فقد وقفت المدرسة السلفية التي أخذت أصول دينها من اليهود وتلاميذ اليهود كالجدار الصلب وراء كل تعامل حسن مع هذه المسألة، وكأن الدين كله معلق عليها.

وقد سئل بعض مشايخهم هذا السؤال: (بعض المسلمين يشاركون النصارى في أعيادهم فما توجيهكم؟)، فأجاب بقوله: (لا يجوز للمسلم ولا المسلمة مشاركة النصارى أو اليهود أو غيرهم من الكفرة في أعيادهم، بل يجب ترك ذلك لأن من تشبه بقوم فهو منهم والرسول ﷺ حذرنا من مشابهتهم والتخلق بأخلاقهم، فعلى المؤمن وعلى المؤمنة الحذر من ذلك، ولا تجوز لهما المساعدة في ذلك بأي شيء، لأنها أعياد مخالفة للشرع، فلا يجوز الاشتراك فيها، ولا التعاون مع أهلها، ولا مساعدتهم بأي شيء، لا بالشاي ولا بالقهوة ولا بغير ذلك كالأواني وغيرها)(2)

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (ما حكم تهنئة الكفّار بعيد (الكريسمس) ؟ وكيف نرد عليهم إذا هنؤنا به ؟ وهل يجوز الذهاب إلى أماكن الحفلات التي يقيمونها بهذه المناسبة ؟ وهل يأثم الإنسان إذا فعل شيئاً مما ذُكر بغير

1() فتاوى اللجنة الدائمة، (الجزء رقم : 24، الصفحة رقم: 137)، السؤال السادس من الفتوى رقم (5313)

2() [مجموع فتاوى ومقالات متنوعة 6/405].

قصد ؟ وإنما فعله إما مجاملة، أو حياءً، أو إحراجاَ، أو غـير ذلـك من الأسباب ؟ وهل يجوز التشبه بهم في ذلك؟)

فأجاب بقوله: (تهنئة الكفار بعيد الكريسـمس أو غـيره من أعيادهم الدينية حرام بالاتفاق. كما نقل ذلك ابن القيم في كتابه [أحكـــام أهل الذمة] حيث قـــال : (وأما التهنئة بشـــعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول : عيد مبارك عليك، أو تهنـأ بهـذا العيـد ونحـوه، فهـذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات. وهو بمنـزلة أن تهنئـه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشـد مقتـاً من التهنئة بشرب الخمـر وقتـل النفس، وكثـير ممن لا قـدر للـدين عنـده يقـع في ذلـك، ولا يـدري قبح مـا فعـل، فمن هنـأ عبـداً بمعصية، أو بدعـة، أو كفـر فقـد تعـرض لمقت اللـه وسـخطه)، وإنما كانت تهنئة الكفار بأعيادهم الدينيـة حرامـاً وبهـذه المثابـة الـتي ذكرهـا (ابن القيم) لأن فيهـا إقـراراً لمـا هم عليـه من شعائر الكفر، ورضى به لهم، وإن كان هو لا يرضى بهـذا الكفـر لنفسـه، لكن يحـرم على المسـلم أن يرضـى بشـعائر الكفـر أو يهنئ بها غيره.. وإذا هنئونا بأعيـادهم فإننـا لا نجيبهم على ذلـك؛ لأنها ليست بأعياد لنا، ولأنها أعياد لا يرضاها الله تعالى لأنها إمـا مبتدعة في دينهم، وإمـا مشـروعة، لكن نسـخت بـدين الإسـلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ إلى جميع الخلق .. وإجابة المسـلم دعوتهم بهذه المناسبة حرام؛ لأن هذا أعظم من تهنئتهم بها لما في ذلك من مشاركتهم فيهـا .. وكـذلك يحـرم على المسـلمين التشبه بالكفار بإقامة الحفلات بهذه المناسـبة، أو تبـادل الهـدايا أو توزيع الحلوى، أو أطبـاق الطعـام، أو تعطيـل الأعمـال ونحـو ذلك، لقـول النـبي ﷺ: (من تشـبه بقـوم فهو منهم)، قـال شـيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه [اقتضاء الصراط المسـتقيم مخالفة أصحاب الجحيم]: (مشابهتهم في بعض أعيـادهم تـوجب سـرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل، وربما أطمعهم ذلك في انتهـاز الفرص واستذلال الضعفاء)، ومن فعل شيئاً من ذلـك فهـو آثم، سواء فعله مجاملة، أو توددا، أو حياءً، أو لغير ذلك من الأسباب؛ لأنه من المداهنة في دين الله، ومن أسباب تقوية نفوس الكفار وفخرهم بدينهم)(1)

ثم ختم فتـواه بهـذا الـدعاء: (واللـه المسـئول أن يعـزّ المسـلمين بـدينهم، ويـرزقهم الثبـات عليـه، وينصـرهم على أعدائهم، إنه قوي عزيز)

وهكذا غـرس ابن عـثيمين في مسـتفتيه كـل أنـواع الحقـد والعداوة على المجتمع الذي يقيم فيه، ثم دعـا بـأن ينصـر اللـه

1() مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ج3، ص 44.

المؤمنين عليهم ويعزهم.. ثم نتساءل بعد هذا عن سر الإرهـاب وسببه.. وهذه فتاوى عقلائهم تنضح بكل مواد الإرهاب.

ولم يكتـف السـلفية بهـذا، بـل راحـوا يحرمـون كـل الممارسـات الاجتماعيـة الـتي تسـاهم في إضـفاء المـودة على حياة الناس، وتختلف باختلاف العصور والبيئات.

ومن ذلـك تحـريمهم للاحتفـالات المقامـة في المناسـبات المختلفة، بل اعتبار ذلك بدعـة وضـلالة على الـرغم من أنهـا لا تحوي أي محاذير شرعية.

وكمثال على ذلك أن الشيخ عبد العزيـز بن بـاز سـئل: مـا حكم إقامة أعياد الميلاد؟ فأجاب بقوله: (الاحتفال بأعياد الميلاد لا أصل له في الشرع المطهر بل هو بدعة .. ومعلـوم أن النـبي ﷺ لم يحتفل بمولده مدة حياته ولا أمر بذلك، ولا علمه أصـحابه وهكذا خلفاؤه الراشدون، وجميـع أصـحابه لم يفعلـوا ذلـك وهم أعلم الناس بسنته وهم أحب الناس لرسول اللـه ﷺ وأحرصـهم على اتباع ما جاء به)(1)

وسئل الشـيخ ابن عـثيمين عن حكم الاحتفـال بمـا يسـمى بعيد الأم، فقال: (إن كل الأعياد الـتي تخـالف الأعيـاد الشـرعية كلها يكون بدع حادثة لم تكن معروفة في عهد السـلف الصـالح وربما يكون منشؤها من غير المسلمين أيضـاً، فيكـون فيهـا مـع البدعة مشابهة أعداء اللـه سـبحانه وتعـالى، والأعيـاد الشـرعية معروفة عند أهـل الإسـلام؛ وهي عيـد الفطـر، وعيـد الأضـحى، وعيد الأسبوع يوم الجمعة، وليس في الإسلام أعياد سـوى هـذه الأعياد الثلاثة، وكل أعياد أحدثت سـوى ذلـك فإنهـا مـردود على محدثيها وباطلة في شريعة الله سبحانه وتعالى.. وإذا تبين ذلك فإنه لا يجوز في العيـد الـذي ذكـر في السـؤال والمسـمى عيـد الأم، ولا يجوز فيه إحداث شيء من شعائر العيد؛ كإظهار الفرح والسرور، وتقديم الهدايا وما أشبه ذلك، والواجب على المسـلم أن يعتز بدينه ويفتخر بـه وأن يقتصـر على مـا حـده اللـه تعـالى لعباده فلا يزيد فيه ولا ينقص منه، والذي ينبغي للمسلم أيضاً ألا يكون إمَّعَة يتبع كل ناعق بل ينبغي أن يُكوِّن شخصيته بمقتضـى شريعة الله تعالى حتى يكون متبوعاً لا تابعاً، وحتى يكون أسـوة لا متأسياً، لأن شريعة الله والحمد لله، كاملة من جميع الوجوه) (2)

وسئل في محل آخر عن حكم إقامة أعياد الميلاد للأولاد أو بمناسبة الزواج؟ فأجاب: (وأما أعياد الميلاد للشـخص أو أولاده، أو مناسبة زواج ونحوها فكلها غير مشروعة، وهي للبدعة أقرب

1() مجلة البحوث الإسلامية العدد الخامس عشر، ص 285.

2(1) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رقم (353)

من الإباحة) (1)

بل إن الأمر بلغ بالسلفية إلى حد تحريم كل مظاهر المواساة التي تقوم بها المجتمعات عندما تحل ببعضهم بعض المصائب، بحجة أن السلف الصالح لم يفعلوه، ولست أدري: هل نتلقى ديننا من القرآن الذي حظنا على التآلف والمحبة، أم نأخذ ديننا من سلفهم الصالح الذين تلوثت أيديهم بكل ألوان الدماء والتكفير والتضليل؟

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين:هل اجتماع أهل الميت في بيت واحد من أجل العزاء ومن أجل أن يصبر بعضهم بعضاً لا بأس به؟ فأجاب: (الاجتماع في بيت الميت ليس له أصل من عمل السلف الصالح وليس بمشروع، ولا سيما إذا إقترن بذلك إشغال الأضواء وصف الكراسي، وإظهار البيت وكأنه في ليلة زفاف عرس، فإن هذا من البدع)(2)

بل إن التشريعات السلفية لم تكتف بذلك، بل راح مشايخهم الكبار أتباع الملوك والأمراء، يحرضون المتبعين لهم من غير أهل بلادهم على مخالفة العادات المرتبطة بالدولة كتحية العلم ونحوها، فقد سئلت اللجنة الدائمة في السعودية هذا السؤال: (أفيدوني عن حكم من يعمل بالجيش المصري وهذا مصدره رزقه وتفرض عليه نظم الجيش وقوانينه وأن يعظم بعضنا بعضاً كما تفعل الأعاجم وأن نلقى التحية بكيفية ليست بالتي أمرنا بها الله ورسوله وأن نعظم علم الدولة ونحكم ونحتكم فيما بيننا بشريعة غير شريعة الله ـ قوانين عسكرية ـ)، فأجابت بقولها: (لا يجوز تحية العلم، ويجب الحكم بشريعة الإسلام والتحاكم إليها، ولا يجوز للمسلم أن يحيي الزعماء أو الرؤساء تحية الأعاجم، لما ورد من النهي عن التشبه بهم، ولما في ذلك من الغلو في تعظيمهم)(3)

وهكذا كان موقفهم من سؤال وجه لهم بخصوص ما اعتادته المجتمعات الحديثة من الوقوف مع الصمت كتحية للشهداء أو غيره، فقد أجابت بقولها: (ما يفعله بعض الناس من الوقوف زمناً مع الصمت تحية للشهداء أو الوجهاء أو تشريفاً وتكريماً لأرواحهم من المنكرات والبدع المحدثة التي لم تكن في عهد النبي ﷺ ولا في عهد أصحابه ولا السلف الصالح ولا تتفق مع آداب التوحيد ولا إخلاص التعظيم لله، بل اتبع فيها بعض جهلة المسلمين بدينهم من ابتدعها من الكفار وقلدوهم

مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رقم(2/302)(2)1

2() كتاب البدع والمحدثات وما لا أصل له (ص272)

3() فتاوى اللجنة الدائمة: الفتوى رقم : 6894، برئاسة الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

في عـاداتهم القبيحـة وغلـوهم في رؤسـائهم ووجهـائهم أحيـاءً وأمواتاً وقد نهى النبي ﷺ عن مشابهتهم)(1)

ولم يكتف العقل السلفي بكل هذه الغلظة والخشونة، بـل راح يحرم ما اعتادة المسلمون بعد الصلاة من مصافحة بعضهم بعضا، على الـرغم ممـا ورد في المصـافحة من فضـل، لكنهم ـ ونظرا لأن سلفهم لم يصـافحوا ــ فقـد حرمـوا المصـافحة، بـل حكموا ببدعيتها.

وقد سئل ابن تيمية عن المصافحة عقيب الصلاة : هل هي سنة أم لا ؟، فأجاب: (المصافحة عقيب الصلاة ليست مسنونة، بل هي بدعة)(2)

وسئل ابن عثيمين : ما رأى فضليتكم فى المصافحة وقول (تقبل الله) بعد الفراغ من الصلاة مباشـرة؟، فأجـاب: (لا اصـل للمصافحة، ولا قول (تقبل الله) بعد الفراغ من الصلاة, ولم يرد عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة)(3)

وقال الشيخ مشـهور: (ولم نعلم عن احـد من الصـحابة أو السلف الصالح أنهم كانوا إذا فرغـوا من صـلاتهم التفت أحـدهم عن يمينه و شماله مصافحا من حوله مباركـا لـه بقبـول الصـلاة ولم فعل ذلك أحد منهم لنقل إلينا ولو بسند ضعيف.. كيف وقـد نقل المحققون من أهل العلم أن المصـافحة المـذكورة بالهيئـة السابقة بدعة؟)(4)

ونحب أن ننقـل هنـا بعض الأدلـة من رسـالة نـادرة لبعض المشايخ حـول حكم المصـافحة، يـرد بهـا على العقـل السـلفي وضـيق أفقـه، لنقـارن من خلالهـا بين العقـل المسـلم المتـأدب بـآداب القـرآن الكـريم، وبـآداب رسـول اللـه ﷺ، وبين العقـل السلفي المتحجر الـذي لا يـؤمن إلا بسـلفه من اليهـود وتلاميـذ اليهود.

وهــذه الرســالة اســمها (رســالة ســعادة أهــل الإســلام بالمصــافحة عقب الصــلاة والســلام)، من تــأليف أبي الإخلاص حسـن الشـرنبلال، والـتي قـال في مقـدمتها مبينـا دوافعـه من تأليفه: (هذه نبذة يسيرة في تجريد الكلام على سنة المصافحة، الحاصلة بعد الصـلوات الخمس والجمعـة وعنـد كـل لقي، بيـان كيفيتهـا، وحكم حصـولها فيمـا بين الرجـال والنسـاء.. وسـبب جمعها كثرة السؤال عنها، وإنكار بعض النـاس على فاعلهـا من غير استناد لحجة في ذلك)(5)

1()) فتاوى إسلامية (2/49)
2() مجموع الفتاوى 23 / 339.
3() فتاوى اركان الاسلام)336.
4() اخطاء المصلين 107/108.
5() رسالة سعادة أهل الإسلام بالمصافحة عقب الصلاة والسلام، ص6.

وسنحاول هنا باختصار ذكر بعض ما ذكره من أدلة، لنتبين من خلالها الفرق بين المنهج المقاصدي الذي يفهم النصوص المقدسة وأغراضها، ويستعمل كل السبل لتحقيق أغراضها، وبين الذي لا يعرف إلا الهدم اقتداء بسلفه.. فمن الأدلة التي ذكرها:

1 ـ أن المصافحة سنة مجمع عليها عند التلاقي، فلم يبقى للإنكار على فاعلها إلا الحمل على حصول المصافحة عقب السلام من الصلاة قبل القيام والأخذ في عمل آخر، وليس ذلك مسلماً، فقد قال ﷺ: (من صافح أخاه المسلم وحرك يده تناثرت ذنوبهما كما يتناثر الورق اليابس من الشجرة، ونزلت عليهما مائة رحمة، تسع وتسعون لأسبقهما وواحدة لصاحبه)(1)، وقوله ﷺ: (ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا)(2)

فالحديث الأول يقتضي مشروعية المصافحة مطلقا، أعم من أن تكون بعد الصلوات الخمس والجمعة والعيدين أو غير ذلك، لأن النبي ﷺ لم يخصها بوقت دون وقت، فإذا فعلت في أي وقت كان، كانت من مقتضيات هذه الأدلة وداخلة تحت عمومات، ولا يشترط فعل النبي ﷺ المصافحة، ولا أمره عليه السلام بالمصافحة، لأن من المقتضيات ما أفاده الدليل، وإلا لما كان يمكن العمل بعموم الأدلة.

2 ـ أن حالة السلام من الصلاة حالة لقي بحسبه، لأن المصلي لما أحرم صار غائباً عن الناس مقبلاً على الله تعالى بعبادته، فلما أدى حقه قيل ارجع إلى مصالحك ومآربك، وسلم على إخوانك لعجزك واحتياجك وقدومك من غيبتك، ولذلك ينوي القوم بسلامه كما ينوي الحفظة، وإذا سلم يندب له المصافحة أو تسن كالسلام، فلا مانع من المصافحة لسنيتها في كل حال.

ثم نقل عن النووي قوله: (اعلم أن المصافحة مستحبة عند كل لقاء، وأما ما اعتاده الناس من المصافحة بعد صلاة الصبح والعصر فلا أصل له في الشرع على هذا الوجه، لكن لا بأس به فإن أصل المصافحة سنّة، وكونهم حافظوا عليها في بعض الأحوال أو أكثرها لا يخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرع بأصلها)(3)

رابعا ـ الجوانب العاطفية

وهي من أهم الجوانب المكونة لشخصية المسلم، لأنها

---

(1) الترمذي: 5/74.

(2) سنن الترمذي: 5/74 ح: 2727، أبو داوود: 4/354.

(3) انظر النووي- حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار: 5/379 – 398..

هي الواسطة التي تستخدمها روحه الطاهرة للتواصل مع اللـه ومع رسل الله ومع أولياء الله.. بل مع كل الوجود.

و لهذا نرى في القرآن الكريم ذكر هذه العلاقة الطيبة بين المؤمنين وربهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 54]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران: 31)

بل إن الله تعالى يبادل عباده المؤمنين المتقين حبهم له بحبه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: 4)، وقال: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 76]، وقال: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تصور محبة الله لعباده، ومحبتهم له.

وهكذا نجد في السنة المطهرة اعتبار محبة رسول الله ﷺ من المميزات الكبرى التي يتميز بها المؤمن الصادق الصالح، كما روي أن رجلا جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللـه: إنك لأحبُّ إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك وعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيئين، وإني إذا دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69](1)

وقد أخبر ﷺ عن بعض علامات من يحبه ممن لم يعش في زمانه، فقال: (إن أشدَّ أمتي لي حبا قوم يكونون أو يجيئون، وفي رواية - يخرجون بعدي- يودّ أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني)(2)، وقال: (ليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحبُّ إليه من مثل أهله وماله)(3)

بل إن رسول الله ﷺ أخبر عن شوقه ومحبته لهؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بمحبته، فقال: (وددت أني لقيت إخواني)، فقال له أصحابه: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي، ولكن

1() حديث حسن أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه الطبراني في الأوسط والصغير وحسنه ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة. انظر أسباب النزول للإمام السيوطي ص 128..

2() رواه أحمد.

3() رواه البخاري.

إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)(1)
وفي رواية: (ومتى ألقى إخواني؟)، قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: (بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)(2)
وهذه الأحاديث وغيرها تبين أن المحبة المقصودة هي تلك المشاعر الطاهرة الممتلئة بالسمو..
لكن العقل السلفي الذي امتلأ بالغلظة والقسوة لا يذكر هذا المعنى مع أن ظاهر اللفظ يدل عليه، بل نراه يؤول محبة الله ورسوله بالطاعة.. مع أن الطاعة قد تتحقق من قلب فارغ لا يهتم إلا بمصالحه التي يريد أن يجنيها من وراء طاعته، حتى لو كانت تلك المصالح هي الجنة نفسها.
وقد أورد بعضهم في بعض المواقع السلفية الرسمية تساؤلا لبعض المشايخ، فقال: (هناك تساؤل أود الإشارة اليه، وهو أنه عند تتبعي لتراث أئمة الدعوة النجدية الفقهي والأدبي لاحظت أن أغلبهم إن لم يكن كلهم لديهم ابتعاد ونفور من مدح الرسول ﷺ، لذلك لا نجد في دواوينهم أية قصائد مديحية في الرسول ﷺ، بل بالعكس نجد عندهم ضيق صدر بمدحه والثناء عليه، بل ان كتبهم كثيرة في عدم المبالغة في الثناء عليه وتعداد مناقبه، بينما لانجد عندهم ولو كتاب واحد في مدحه والثناء عليه وتعداد مناقبه وشمائله مثلما نجد عند الشعوب الإسلامية الأخرى علماء وأعيان وأفراد، أم هل يفترض أن يكون العالم عند أئمة الدعوة النجدية فاترا عندما يتحدث عن الرسول ﷺ)(3)
وقد رد عليه الشيخ بأن (حب الله ورسوله ليس بالموالد ولا بالبدع، ولكن حب الله ورسوله يكون بطاعة الله ورسوله، وبالاستقامة على شريعة الله، وبالجهاد في سبيل الله، وبالدعوة إلى سنة الرسول ﷺ وتعظيمها والذب عنها، والإنكار على من خالفها، هكذا يكون حب الله سبحانه وحب الرسول ﷺ ويكون بالتأسي به؛ بأقواله وأعماله، والسير على منهاجه عليه الصلاة والسلام، والدعوة إلى ذلك، هذا هو الحب الصادق الذي يدل عليه العمل الشرعي، والعمل الموافق لشرعه)
ومثله قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (فالواجب أن نقدم محبة رسول الله ﷺ على محبة كل أحد ؛ على محبة الولد والوالد والأهل والمال والنفس أيضاً، ولكن إذا قال قائل : كيف الطريق إلى ذلك وما هي العلامة؟ فالجواب أن نقول : أما

1() مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 66)
2() وهي لأحمد، وأبي يعلى.
3() انظر موقع الألوكة على الرابط التالي: http://majles.alukah.net/t47665/.

العلامة فهي أن نقدم أمر الرسول ﷺ على هوى نفسك ؛ فإن هذا هو أكبر علامة على أن الرسول ﷺأحب إليك من نفسك، فإذا أمر الرسول بشيء ونفسك تهوى أن لا تفعل، أو نهى عن شيء ونفسك تهوى أن تفعله، ثم خالفت النفس فمعنى هذا أن الرسول ﷺ أحب إليك من نفسك، وإلا لاتبعت هوى نفسك، وتركت أمر الرسول، ثم إن الإنسان كلما ازداد استحضاراً لمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأخلاقه فإنه تزداد محبته للرسول ؛ يعني: أنك لو كنت تستشعر عند الوضوء والصلاة والصيام وغيرها من العبادات وكذلك في معاملة الناس بالأخلاق الفاضلة والإحسان إليهم أنك بذلك متأسّ يالرسول عليه الصلاة والسلام ومتابع له، فإن ذلك يُنمي محبتك له ويجعلك تابعاً له متابعة تامة)(1)

و مثله قال الشيخ صالح الفوزان: (وهذا يقتضي أن الإنسان يقدِّم طاعة الرسول ﷺ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول ﷺ بأمر وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من النّاس بأمر يخالف أمر الرسول ﷺ فإنه يجب عليك معصية هذا الآمر وطاعة الرسول ﷺ، وهذا هو الدليل على محبة الرسول ﷺ، أن لا تقدّم على محبته شيئاً، ولا تقدّم على طاعة الرسول شيئاً، فإذا أمرك أحد بمخالفة الرسول ﷺ فلا تطعه ولو كان أقرب النّاس إليك ولو كان أحب النّاس إليك، فطاعة الرسول ﷺ مقدَّمة، وهي ثمرة محبته ومن علامات محبة الرسول ﷺ ترك ما لم يشرعه الرسول من البدع والمحدثات .. أما الذي يدّعي أنه يحب الرسول ﷺ ويُقيم الموالد والاحتفالات المبتدعة، والرسول ﷺ ينهاه عن البدع والمحدثات، فلا يطيعه، وإنما يطيع المخرِّفين والدجّالين في هذا، فهذا كاذبٌ في محبّته للرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ نهى عن البدع والمحدَثات والخُرافات ولو كان النّاس عليها ولو كان عليها أبوك أو ابنك أو أقرب النّاس إليك، فمن كان عنده بدعة ومخالفة للرسول ﷺ وجب عليك معصيته، فإذا أطعته فإن هذا دليل على عدم صدق محبتك للرسول ﷺ .. فالحاصل؛ أنه ليس الدليل على محبة الرسول ﷺدعوى تُقال، أو احتفال يُقام، لأن الدليل على محبة الرسول ﷺ: متابعته، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلاّ بما شرع عليه الصلاة والسلام. هذا هو الدليل على محبة الرسول ﷺ، ونحن لا نقبل الدعوى، وإنما نقبل الدليل على الدعوى، فالذين يعملون بالسنّة ويتركون البدع فهذا دليلٌ على محبتهم للرسول ﷺ)(2)

---

(1) في شرحه على صحيح البخاري [1/63].
(2) إعانة المستفيد، [2/41 – 43].

وبناء على هذا احتكر السلفية محبة اللـه ورسـوله، لأنـه لا يطيع أحد في الدنيا الله ورسوله ـ في تصورهم ــ غـيرهم.. لأن الأمة كلها مبتدعـة.. والحب لا يكـون إلا من سـني سـلفي.. لأن الحب ليس سـوى تلـك الحركـات والرسـوم ومـا يصـحبها من الغلظة والخشونة.

وبناء على هذا استطاع العقل السلفي أن يحول في أذهان متبعيه كل المحبين لرسول الله ﷺ مبتدعـة ضـالين بـل كفـارا.. لأنهم جميعا يمارسون من البدع مـا يـبرهن على أنهم لم يتبعـوا رسول الله ﷺ..

ومن أخطر تلك البدع ـ كما يصور العقل السلفي ـ هو ذلك الشوق الذي يتحرك في القلوب ليدعوها إلى زيارة رسول اللـه ﷺ .. لأن زيارة رسول الله عندهم بدعة.. وبدعة ضلالة.

هكذا قرر شيخ إسلامهم .. وهم تبعوه في ذلـك .. وخـالفوا الأمة جميعا، فقد قال في (مجموع الفتاوي): (السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصـالحين بدعـة لم يفعلهـا أحـد من الصـحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله، ولا استحب ذلـك أحـد من أئمـة المسلمين فمن اعتقد ذلـك عبـادة وفعلهـا فهـو مخـالف للسـنة ولإجماع الأئمة)(1)

ومنها قوله في تبديع أشواق المسلمين لزيارة رسول اللـه ﷺ عند الهم بالحج: (حتى أن أحـدهم إذا أراد الحج لم يكن أكـثر همه الفرض الذي فرضه الله عليـه وهـو حج بيت اللـه الحـرام، وهو شعار الحنيفية ملة إبراهيم إمـام أهـل دين اللـه بـل يقصـد المدينة. ولا يقصد ما رغب فيه النبي ﷺ من الصلاة في مسجده .. بل يقصد من زيـارة قـبره أو قـبر غـيره مـا لم يـأمر اللـه بـه ورسوله ولا فعله أصحابه ولا استحسنه أئمة الـدين. وربمـا كـان مقصوده بالحج من زيارة قبره أكثر من مقصـوده بـالحج وربمـا سوى بين القصدين وكل هذا ضلال عن الدين باتفاق المسلمين بل نفس السـفر لزيـارة قـبر من القبـور - قـبر نـبي أو غـيره - منهي عنه عند جمهور العلماء حتى أنهم لا يجوزون قصد الصلاة فيه بناء على أنه سـفر معصـية.. وكـل حـديث يـروى في زيـارة القبر فهو ضعيف بل موضوع)(2)

وهكذا نرى مـواقفهم من كـل مـا أنتجتـه الأمـة تعبـيرا عن محبتها وأشواقها لرسول اللـه ﷺ.. وهكـذا أيضـا نـرى مـواقفهم من الطائفة التي اهتمت بهذا الجانب من الـدين، وهم الصـوفية الـذي امتلأت حيـاتهم وآثـارهم بمحبـة اللـه ورسـوله ﷺ.. لكن السلفية واجهوهم بأسلحة التبديع والتكفير.

1() مجموع الفتاوى 27/ 220.
2() مجموع الفتاوى (4/ 519)

كما قال الشيخ عبد الرحمن عبد الخـالق: (إن أعظم فتنـة ابتلي بها المسلمون قديمًا وحديثًا هي فتنة التصوف. هذه الفتنة التي تلبست للمسلمين برداء الطهر والعفـة والزهـد والإخلاص، وأبطنت كـل أنـواع الكفـر والمـروق والزندقـة، وحملت كـل الفلسفات الباطلة ومبادئ الإلحاد والزندقة. فأدخلتها إلى عقائد الإسـلام وتـراث المسـلمين على حين غفلـة منهم، فأفسـدوا العقول والعقائد. ونشروا الخرافات والدجل والشعوذة، ودمـروا الأخلاق، وأتوا على بنيـان دولـة الإسـلام من القواعـد إذ حـارب المتصـوفة العلم والجهـاد والبصـيرة في الـدين، بـل والـزواج والعمل والكسب، فنصبوا للقرآن والسـنة حربًـا لا هـوادة فيهـا، وحرفوا الناس عن تعليمها بكل سـبيل زاعمين تـارة أن القـرآن والسـنة علم أوراق وظـواهر وأن علمهم البـاطني علم أرواح وحقائق واطلاع على الغيب ومشاهدة وتـارة أخـرى زاعمين أن أورادهم وأذكـارهم تفضـل مـا في القـرآن والسـنة آلاف بـل عشـرات الآلاف من المـرات وتـارة ثالثـة واصـفين كـل علمـاء الشـريعة بـأنهم محجوبـون مرتزقـة ظـاهريون جامـدون، لم يتـذوقوا الحقـائق ولم يشـاهدوا الغيب، واختص المتصـوفة أنفسـهم وهم بوجـه عـام من الزنادقـة المبتـدعين والكفـار المستترين بأنهم أهل العلم اللدني، والحقيقة)(3)

ونجد أمثال هذه الأكاذيب التي يرمي به السـلفية الصـوفية من غـير بحث ولا رويـة، لتحـذير الأمـة من الاهتمـام بالجـانب العـاطفي من دينهـا، ويبقى دينهـا مقصـورا على تلـك الحركـات التي وصفها لهم الألباني وابن تيمية والعثيمين وغيرهم.

وكان من نتائج ذلك أنهم حولوا القارة الإفريقية التي كانت محلا للصوفية الصادقين المخلصين إلى قـارة ممتلئـة بالإرهـاب بسبب ما كانوا يرسلونه من كتب ومنشورات ودعاة إلى أبـواب جهنم..

لهـذا قضـوا على بعض الطـرق الصـوفية، وأحلـوا بـدلها طريقتهم (بوكو حرام)، و(شباب الإسـلام)، وغيرهـا من الطـرق الإرهابية.

وسبب كل ذلك تلك الفتاوى الرعناء التي كانت توجـه ضـد أكـبر طريقـة صـوفية في إفريقيـا، وهي الطريقـة التيجانيـة، لتمحوها من الوجود وتحل بدلاها جماعاتها الإرهابية.

ومن الأمثلة على الفتاوى الكثـيرة الـتي أفـتى بهـا مشـايخ السـلفية فتـوى أكـبر هيئـة إفتـاء في السـعودية، فقـد قـالت: (الطريقة التيجانية طريقة منكرة لا تتفق مع هـدي رسـول اللـه ﷺ وسنته، بل فيها بدع شركية تخرج من يعتقـدها أو يعمـل بهـا

(3) الصوفية في ضوء الكتاب والسنة (ص: 5)

من ملة الإسلام والعياذ بالله، وأورادها فيها بدع فلا يجوز التعبد بها؛ لأن الأذكار من العبادات، والعبادات توقيفية يرجع فيها إلى كتاب الله وإلى ما ثبت عن رسول الله ﷺ لتلاوة القرآن الكريم وما حث عليه رسول الله ﷺ من الذكر والدعاء في دواوين السنة، والكتب التي استخلصت، منها مثل [رياض الصالحين] للنووي، و[الكلم الطيب] لابن تيمية، و[الوابل الصيب] لابن القيم)(1)

بل إن الغلظة والخشونة وصلت بالعقل السلفية إلى تحريم الكتابة على البراويز (لفظ الجلالة (الله) وبجانبها لفظة (محمد ﷺ)، فقد سئل الشيخ ابن عثيمين عن هذا فأجاب بقوله: (موضعها ليس بصحيح لأن هذا يجعل النبي ﷺ نداً لله مساوياً له، ولو أن أحداً رأى هذه الكتابة وهو لا يدري من المسمى بهما لأيقن أنهما متساويان متماثلان، فيجب إزالة اسم رسول الله ﷺ ويبقى النظر في كتابة (الله) وحدها، فإنها كلمة يقولها الصوفية ويجعلونها بدلاً عن الذكر، يقولون: (الله الله الله)، وعلى هذه فتلغى أيضاً، فلا يكتب (الله)، ولا (محمد) على الجدران، ولا في الرقاع ولا في غيره)(2)

هذه مجرد أمثلة عن خواء الشخصية السلفية من كل المعاني العاطفية، وهو شيء طبيعي، فمن أسلم لليهود دينه، فلن يجد إلا القسوة التي وصفهم القرآن الكريم بها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 74]

1() السؤال الثالث من الفتوى رقم (2139)
2()) السنن والبدع المتعلقة بالألفاظ والمفاهيم الخاطئة للشيخ ابن عثيمين (ص44)

الشدة .. لا اللين

الركن السادس الذي يتكون منه بنيان العقل السلفي هو [الشدة] بدل اللين، أو [القسوة] بدل الرحمة، أو [العنف] بدل الحكمة، وهو ناشئ ـ كما يذكر المحللون النفسيون القدامى ـ من غلبة السبعية على الإنسانية، أو غلبة العدوانية على السلمية.. وكل ذلك يرجع إلى غلبة الطين على الروح، واستحواذ الشيطان على الإنسان.

وليس من الصعب إثبات ذلك.. فلا يوجد أحد في العالم أجمع، بل ربما في التاريخ جميعا مارس العنف بجميع أشكاله وباسم الدين مثلما فعله السلفية.. فجميع الحركات المسلحة تنطلق من فكرهم، وتنشأ من تربيتهم، وتتغذى من عقائدهم.

والعنف السلفي ليس مقصورا على تلك الحركات المسلحة .. فما تلك الحركات سوى مظاهر لغدة سرطانية خبيثة يمدها جميع علماء السلفية، وجميع تراثهم .. فكله تراث مشحون بالأحقاد والتكفير والتبديع والعنف .. ويستحيل على من يتتلمذ على ذلك التراث أن يكون إنسانا مسالما أو إنسانا طبيعيا.

وكل ذلك سببه تتلمذ أعلام السلفية على اليهود وتلاميذ اليهود.. فاليهود ـ كما يذكر القرآن الكريم ـ كانوا أكثر الناس عنفا حتى مع أنبيائهم ومع دعاة العدل منهم، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21]، وقال: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 112]

وكل ذلك ـ أيضا ـ سببه استحواذ الشيطان عليهم.. فالشيطان هو المدبر الأكبر لكل الانحرافات التي تحصل في دين الله، ليحوله إلى دين بشر.. ومن أهم خصائص دين البشر النارية الشيطانية التي تتمثل في الأحقاد والضغائن.

ولذلك فإن أهم ما يميز دين الله عن دين البشر هو السلام والمحبة والطمأنينة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]، فقد وصف الله تعالى المؤمنين بالطمأنية، ووصف ذكرهم لله بكونه سببا للطمأنينة..

لكن الشيطان استطاع بفضل أدواته أن يحول من ذكر الله أداة لكل أساليب العنف والهمجية، حتى صرنا نرى في وسائل الإعلام كيف يختلط التكبير مع التذبيح، وكيف يختلط اسم الله المقدس مع كل جريمة من الجرائم.

انطلاقا من هذا سنحاول في هذا الفصل، وعبر الأمثلة والنماذج أن نبين مدى تشرب العقل السلفي بالعنف.. وكيف تجلى ذلك العنف من خلال مواقفه النظرية والعملية، وقد رأينا أن العنف الذي مارسته السلفية عبر تاريخها الأسود الطويل(1) اكتسى مجموعة أشكال، يمكن تنصيفها إلى أربعة أصناف:

1. الكذب والتناقض.
2. الخداع والاحتيال.
3. التضليل والتكفير.
4. العنف والقتل.

وسنتحدث عن كل واحد من هذه المظاهر الأربعة من خلال المباحث التالية.

أولا ـ الكذب والتناقض

من أخطر مظاهر العنف التي مارسها السلفية مع مخالفيهم الكذب عليهم، وانتقاء ما يريدون ليشوهوهم، وقد مارسوا هذا النوع الخطير من العنف مع كل المسلمين بمذاهبهم المختلفة.

وقد اكتسبوا هذه الصفة من أسلافهم من اليهود الذين وصف الله كذبهم عليه، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]، وقال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181]، وقال: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 183]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تبين كذبهم ودجلهم على الله.

وهو نفس ما فعله تلاميذهم من السلفية الذين تقولوا على الله بغير علم، وانحرفوا بالتنزيه الذي جاء به القرآن الكريم إلى التجسيم والتشبيه الذي اقتبسوه من اليهود.

ولذلك فإن السمة البارزة في التراث السلفي هي الكذب على المخالفين.. والأمثلة على ذلك من كتبهم ومن أعلامهم الكبار أكبر من أن تحصر.. ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعض

---

(1) خصصنا كتابا مفصلا عن التاريخ الأسود للسلفية من هذه السلسلة، ولذلك اكتفينا في هذا الفصل بعرض بعض الأمثلة والنماذج.

ما كذب به علمهم الأكبر الذي يسمونه شيخ الإسلام.

وأول مظاهر كذبه هو تلك الإجماعات الكثيرة التي يحكيها عن المسلمين وغيرهم من الطوائف من غير بينة ولا تحقيق، مع العلم أن حكاية الإجماع تقتضي اطلاعا واسعا على كل ما ألف، وقد قال ابن حزم مبينا كذب من يدعي الإجماع بعد عصر الصحابة: (وأيضاً فانه لا يجوز لأحد القطع على صحة إجماع أهل عصر ما بعد الصحابة رضي الله عنهم على ما لم يجمع عليه الصحابة، بل يكون من قطع بذلك كاذباً بلا شك، لأن الأعصار بعد الصحابة رضي الله عنهم من التابعين فمن بعدهم لا يمكن ضبط أقوال جميعهم ولا حصرها، لأنهم ملأوا الدنيا، ولله الحمد من أقصى السند وخراسان وأرمينية وأذربيجان والجزيرة والشام ومصر وافريقية والأندلس وبلاد البربر واليمن وجزيرة العرب والعراق والأهواز وفارس وكرمان ومكران وسجستان وأردبيل وما بين هذه البلاد ومن الممتنع أن يحيط أحد بقول كل انسان في هذه البلاد)(1)

وقد روي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: (سمعت أبي يقول : ما يدّعي فيه الرجل الاجماع فهو كذب , من ادّعى الاجماع فهو كاذب , لعلّ الناس اختلفوا ما يدريه**)**(2)

بناء على اعتبار من يعتبره ابن تيمية إماما للسلفية والسنة مدعي الإجماع كاذبا، فإن تطبيق هذا على ابن تيمية يجعله ليس كاذبا فقط، بل كاذبا بامتياز، ذلك لم يحك أحد إجماع الناس بل إجماع جميع الطوائف كما حكاه ابن تيمية.

وقد أحصى بعضهم عدد المرات التي حكى فيها الإجماع من خلال مصدر من مصادره وهو (مجموع الفتاوى)، وخرج بالإحصاءات التالية (3) : (قال كلمة..(باتفاق المسلمين)..(303) مرة.. وكلمة..(باتفاق العلماء)..(195) مرة.. وكلمة..(بإجماع المسلمين)..(102) مرة.. (اتفق المسلمون)..(61) مرة.. وكلمة..(اتفق العلماء)..(51) مرة.. وكلمة..(أجمع المسلمون)..(38) مرة.. وكلمة..(اتفق الصحابة)..(14) مرة.. وكلمة..(باتفاق الفقهاء)..(13) مرة.. وكلمة..(اتفق السلف)..(11) مرة.. وكلمة..(اتفق الفقهاء)..(10) مرات.. وكلمة... (اتفق أهل السنة)..(7) مرات.. وكلمة..(باتفاق الصحابة)..(6) مرات.. وكلمة..(أجمع أهل العلم)..(6) مرات.. وكلمة..(بإجماع

1() النبذة الكافية (ص 20)

2() اعلام الموقعين (1\30)

3() ابن تيمية أكثر شيوخ المسلمين كذباً في التاريخ، سامح عسكر، في الأربعاء 12 فبراير 2014، على موقع أهل القرآن، على الرابط التالي: http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=11732.

العلماء)..(5) مرات.. وكلمة..(بإجماع السلف)..(4) مرات.. وكلمة..(أجمع العلماء)..(4) مرات.. وهكذا

وعندما نذهب لنحقق فيما حكاه من إجماعات نجد الخلاف شديدا واسعا واضحا لا يمكن لأحد عاقل أو مثقف أن يجهله.

بل إن ابن تيمية لا يكتفي بالكذب على المذاهب والطوائف، بل يضم إليها الكذب على رسول الله ﷺ نفسه، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، وقد تناولنا بعضها في كتاب [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]، وسنذكر هنا بعض الأمثلة عنها.

فمنها قوله في (الفتاوى الكبرى): (وقد ثبت بالنقل المتواتر الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر)، روي ذلك عنه من ثمانين وجها)(1)، وقد علق على هذا القول الشيخ حسن بن فرحان المالكي بقوله: (انتهت الكذبة الصحيحة المتواترة!.. فلم يرو هذا عن النبي ﷺ بأي سند!.. فهذا حديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ، وأول من وضعه وآخرهم هو ابن تيمية فقط! لم يقل أحد من قبله ولا من بعده أنه حديث! وهو من اخترع نسبته، فأين النقل والصحة والتواتر والثمانين وجها؟! كل هذه أكاذيب كبار وعلى رسول الله في سطر واحد! وغاية ما في الأثر أن يكون منسوبا لعلي.. وجواب الغلاه أن السنة بين عيني ابن تيمية، ياخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وأنه دقيق جدا في نسبة الاحادية وتصحيها وطرقها.. سيخرجونكم الآن إلى جدليات التفضيل وينسون الموضوع الأصلي وهو أن هذا الحديث الصحيح! المتواتر! المنقول من ثمانين وجها! لا وجود له! وهم لن يقروا بكذب ابن تيمية فيه - رغم أنه من الكذب على رسول الله بدرجة لا تساوي الخطأ في نقل مصدر حديث أو إهمال لفظ! كلا الموضوع أعظم! حاولوا عشر سنوات أن تقنعوا (عبدة ابن تيمية) بأنه كذب على رسول الله عامدا أو مخطئا! لن يعترفوا أنه أخطأ لن يعترفوا! سيجادلون ويكذبون!) (2)

هذا مثال ذكره الشيخ حسن بن فرحان المالكي، ومن الأمثلة التي ذكرها غيره، وخاصة في تكذيبه لما ورد في حق الإمام علي أو أهل بيت النبوة كثير جدا، سنسوق هنا بعض ما ذكره الدكتور المحدِّث العلامة محمود سعيد محمد ممدوح في كتابه [ابن تيمية و أحاديث فضائل أهل البيت من خلال كتابه منهاج السنة] لتكون دليلا لك على غيرها.

فمنها (حديث الموالاة)، وهو قوله ﷺ: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، فقد قال ابن

1() الفتاوى الكبرى (3/ 487.

2() هذا الكلام مقتبس من كلام للشيخ حسن بن فرحان في بعض تغريداته.

تيمية في كتابه عنه: (وأما من كنت مولاه فعلي مولاه فلا يصح من طرق الثقات أصلا)(1)، وقال: (وأما الزيادة وهي قوله : ـ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...الخ – فلا ريب أنها كذب) (2)

مع أن الشطر الأول من الحديث: متواتر، نص على تواتره عدد من الحفاظ، ورواه أكثر من خمسة وعشرين صحابيا.. وأما قوله ﷺ: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) : فهي زيادة غاية في الصحة، وقد وردت عن عدد من الصحابة، وصححها عدد من الأئمة الحفاظ من حديث أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص، واستوعب طرق حديث الموالاة الحافظ ابن عقدة في مصنف مستقل، والسيد أحمد بن الصديق الغماري في (الإعلام بطرق المتواتر من حديثه عليه السلام)

وذكر أحمد في (الفضائل)، والنسائي في (الخصائص)، وابن الجزري في (المناقب)، والهيثمي في (المجمع) : جملة صالحة منه، والمعرَّف لا يعرَّف.

ومن الأدلة على كذب ابن تيمية في هذا أن ناصر الدين الألباني، ورغم كونه تلميذا لابن تيميه إلا أنه تكلم فيه واستنكر من ابن تيمية إنكاره له، وقد قال في ذلك: (من العجيب حقاً أن يتجرأ شيخ الإسلام ابن تيمية على إنكار هذا الحديث وتكذيبه في منهاج السنة كما فعل بالحديث المتقدم هناك، مع تقريره رحمه الله أحسن تقرير أن الموالاة هنا ضد المعاداة وهو حكم ثابت لكل مؤمن وعليّ رضي الله عنه من كبارهم يتولاهم ويتولونه، ففيه رد على الخوارج والنواصب)(3)

وقال مبينا سبب إطالته في بيان صحة الحديث: (فقد كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث وبيان صحته أنني رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية، قد ضعّف الشطر الأول من الحديث، وأما الشطر الآخر فزعم أنه كذب ! وهذا من مبالغاته الناتجة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها، والله المستعان)(4)

ومن الأمثلة على ذلك تكذيبه لقوله ﷺ: (أنت وليّ في كل مؤمن بعدي)، فقد قال ابن تيمية: (كذب على رسول الله ﷺ)(5)، مع أنه صحيح على شرط مسلم، فقد أخرجه الطيالسي (829)، وابن أبي شيبة (12/79). وأحمد في المسند (

1() منهاج السنة (4/86)
2() منهاج السنة (7/319)، وهو ما ذهب اليه في الفتاوي (4/417-418)
3() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 264)
4() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (4/ 344)
5() منهاج السنة (4/104)

4/437)، وفي الفضـــــائل (1035)،والترمــــــذي (5/269)، والنسائي في الخصائص (88)، وابن حبان (6929)، والحـاكم (3/110) جميعهم من حديث عمران بن الحصين، وفيـه: (فأقبـل إليهم رسـول اللـه ﷺ والغضـب يُعـرَفُ في وجهـه فقـال : (مـا تريدون من علي ؟ إن عليا مني، وأنا منه وهـو ولي كـل مـؤمن بعدي)، وقد حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبـان، والحـاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

ومن الأمثلة على ذلك تكذيبه لقول ابن عمر: (ما كنـا نعرف المنافقين على عهد النبي ﷺ إلا ببغضهم عليا ً)، فقد قال ابن تيمية فيه: (هذا الحديث لا يستريب أهل المعرفة بالحـديث أنه حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ)(1)

مع أنه لا يستريب أهل المعرفة بالحديث أن متنـَــه غايـة في الصحَّــة، فقد أخرج مسلم في صـحيحه (78)، والترمـذي (5/306) وقـال حسـن صـحيح، وابن ماجـه (114) والنسـائي (8/117) وفي خصائص علي (100-102)، وعبـد اللـه بن أحمـد في زياداتــه على الفضــائل (1102) وأبــو نعيم في الحليــة (4/185) وصحَّحه، وغيرهم من حديث علي قولـه: (والـذي فلـق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ ألا يحبـني إلا مـؤمن ولا يبغضني إلا منافق)، وقال أبو نعيم: هذا حديث صحيح متفق عليه.

وأخـرج الـبزار (كشـف الأسـتار 3/169)، وعبـد اللـه في زيادات الفضائل (1086) من حديث عبيـد اللـه بن موسـى، أن محمد بن علي السلمي، عن عبد الله بن محمـد بن عقيـل، عن جابر بن عبد الله قال: (ما كنا نعرف منافقينا معشر الأنصــار إلا ببغضهم لعلي) وهذا إسناده حسن.

وأحسـن منـه مـا أخرجـه أحمـد في الفضـائل بإسـناد على شرط البخاري عن أبي سعيد الخدري قـال : (إنمـا كنـا نعـرف منافقي الأنصار ببغضهم عليا)

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ورد في الحـديث أن رجلا قال لسلمان : ما أشد حبك لعلي، فقـال: سـمعت نـبي اللـه ﷺ يقول : (من أحبه فقد أحبني)، فقد قال ابن تيمية عنه: كذب(2).

مـع أنـه صـحيح، فقـد أخرجـه الحـاكم في المسـتدرك (3/130) عن أبي عثمان النهدي، قال : قال رجل لسـلمان : مـا أشد حبك لعلي ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أحب عليا ً فقـد أحبـني، ومن أحبـني فقـد أحب اللـه عـز وجـل، ومن أبغض عليا ً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل

1() منهاج السنة (3/228)
2() منهاج السنة (3/9)

) قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين، وسلَّمه الذهبي.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير(23/380/901) عن أم سلمة، وقال الهيثمي في المجمع (9/132) : (وإسناده حسن).. فهذا طريقان للحديث كلاهما حسن لذاته، فالحديث: صحيح بهما.

ومن الأمثلة على ذلك تكذيبه لحديث الطير، ونصه أن النبي ﷺ أتي بطائر فقال : (اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي من هذا الطائر فجاء علي)، فقد قال ابن تيمية فيه: (حديث الطائر من المكذوبات الموضوعة عند أهل العلم والمعرفة بحقائق النقل)(1)

مع أن الحديث صحيح، فقد رواه من الصحابة: أنس بن مالك، وعلي، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبي رافع، ويعلى بن مرة، وسفينة. وهو متواتر عن أنس، وصرَّح ابن كثير في البداية والنهاية (4/416): أنّ الحافظ الذهبي ألف جزءا في طرق الحديث، فبلغ عدد من رواه عن أنس : بضعة وتسعين نفساً، وقال : أقرب هذه الطرق غرائب ضعيفة، وهذا العدد يستحيل اجتماعهم على الكذب، فيجب عدم النظر في أحوالهم على ما هو مقرَّر في علوم الحديث.

وقد قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (3/1043) : (له طرق كثيرة جدا قد أفردتُها بمصنَّف، ومجموعها يوجب أن يكون الحديث له أصل)، وأكثر من هذا قول الذهبي في تاريخ الإسلام (2/179) : حديث الطير وله طرق كثيرة عن أنس متكلم فيها، وبعضها على شرط السنن)، واعترض الحافظ صلاح الدين العلائي في (النقد الصحيح) (ص 75) على من حكم بوضعه.

وقد ذكر الحافظ العلائي طريقين له في (النقد الصحيح) (ص75-77) يكفيان للحكم على الحديث بالحسن بالنظر لهما فقط.

والخلاصة: أن الحكم على الحديث بالوضع مع وجود هذه الطرق تقصير في البحث وتغافل في النظر، وتشديد لا يلائم أصول الحديث الشريف وقواعد الصناعة.

هذه مجرد أمثلة على جرأة ابن تيمية على تكذيب الأحاديث التي لا تتوافق مع مزاجه في نفس الوقت الذي يذكر فيه أحاديث غريبة يثبتها وكأنها أحاديث صحيحة، وأخطرها ذلك الذي يتهم فيه عصمة رسول الله ﷺ وهو أن وفد عبد القيس لما قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم غلام ظاهر الوضاءة أجلسه

1() منهاج السنة (4/99)

خلف ظهره؛ وقال: إنما كانت خطيئة داود - عليه السلام – النظر)(1)

ثم علق عليه ابن تيمية بقوله: (هذا وهو رسول الله ﷺ وهو مزوج بتسع نسوة؛ والوفد قوم صالحون، ولم تكن الفاحشة معروفة في العرب؟)(2)

فقد رواه وكأنه حديث صحيح لا مجال لرفضه مع أن الحديث مكذوب موضوع .. فقد حكم الألباني بالوضع، مع أنه تلميذ من تلاميذ ابن تيمية، ومع ذلك رفض الحديث جملة وتفصيلا، وقد عقب عليه في سلسلته الضعيفة بقوله: (موضوع)(3)، ثم نقل عن ابن الصلاح قوله في (مشكل الوسيط): لا أصل لهذا الحديث، وقول الزركشي في (تخريج أحاديث الشرح): هذا حديث منكر.

ثم قال: (وللحديث طريق أخرى رواه أبو نعيم في (نسخة أحمد بن نبيط) وهي موضوعة كما سيأتي (برقم 562)، ولعل الحديث أصله من الإسرائيليات التي كان يرويها بعض أهل الكتاب، تلقاها عنه بعض المسلمين، فوهم بعض الرواة فرفعه إلى النبي ﷺ.. وقصة افتتان داود عليه السلام بنظره إلى امرأة الجندي أوريا مشهورة مبثوثة في كتب قصص الأنبياء وبعض كتب التفسير، ولا يشك مسلم عاقل في بطلانها لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوجها من بعده ! وقد رويت هذه القصة مختصرة عن النبي ﷺ فوجب ذكرها والتحذير منها وبيان بطلانها)(4)

وهكذا نجده يقبل أحاديث التجسيم، ويدافع عنها دفاعا شديدا مستعملا كل الأدوات التي وفرها سلفه له من علم مصطلح الحديث، ومن الأمثلة على ذلك روايته لما رواه سلفه عن العباس قال: (كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال : ما تسمون هذه ؟ قالوا : السحاب.قال : والمزن، قالوا : والمزن، قال : والعنان، قالوا : والعنان، قال : هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندري.قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك - حتى عد سبع سموات - ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال – أي تيوس

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)
2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)
3() سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (1/ 484)
4() سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (1/ 484)

جبلية-، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك)(1)

فمع أن الذهبي قال في هذا الحديث: (تفرد به سماك عن عبد الله، وعبد الله فيه جهالة)(2)، وقال فيه الألباني في السلسلة الضعيفة: (والذي يترجح – والله أعلم – هو ضعف الحديث، فإن تفرد سماك بن حرب بمثل هذا الحديث المتعلق بالغيبيات تفرد غير مقبول، وجهالة عبد الله بن عميرة تضر في مثل هذا الموضع أيضا، ثم ثمة انقطاع بينه وبين الأحنف بن قيس)(3)

لكن مع ذلك نرى ابن تيمية يستميت في الدفاع عنه، ومحاولة تصحيحه، وقد ذكر المناظرة التي جرت بينه وبين خصومه حول العقيدة الواسطية وكان من جملة ما اعترضوا عليه القول بأسطورة الأوعال، يقول متحدثا عما جرى له معهم : (وطلب بعضهم إعادة قراءة الأحاديث المذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها، فعرفت مقصوده.فقلت : كأنك قد استعددت للطعن في حديث الأوعال.. وكانوا قد تعنتوا حتى ظفروا بما تكلم به زكي الدين عبد العظيم من قول البخاري في تأريخه : عبد الله بن عميرة لا يعرف له سماع من الأحنف.فقلت : هذا الحديث مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود، وابن ماجة، والترمذي، وغيرهم، فهو مروي من طريقين مشهورين فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر، فقال: أليس مداره على ابن عميرة وقد قال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف؟.فقلت: قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولا إلى النبي ﷺ قلت: والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف لم ينف معرفة الناس بهذا فإذا عرف غيره - كإمام الأئمة ابن خزيمة - ما ثبت به الإسناد: كانت معرفته وإثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته. ووافق الجماعة على ذلك وأخذ بعض الجماعة يذكر من المدح ما لا يليق أن أحكيه)(4)

وهكذا من خلال هذا النموذج السلفي نرى الكذب والانتقائية والتناقض في أجل صوره..

هذا مع رسول الله ﷺ أما مع الأمة .. فحدث ولا حرج..

---

(1) سنن أبي داود 4/319 - 320.

(2) في العلو (1/60)

(3) السلسلة الضعيفة (1247)

(4) مجموع الفتاوى (3/191)

وقد ذكرنا الأمثلة الكثيرة على ذلك في كتاب [السلفية والتاريخ الأسود]، وكتاب [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]

وما ذكرناه عن ابن تيمية هو مجرد نموذج عن المدرسة السلفية، وإلا فإن الكذب والتناقض من السمات الراسخة فيها، وقد ذكر الشيخ حسن بن فرحان المالكي الأمثلة الكثيرة على التناقضات الموجودة في هذه المدرسة، فقال: (التناقض سمة رئيسة من سمات كتب العقائد فتجد الشيء وضده، فتجدهم يأمرون بالاهتمام بالقرآن والسنة ووجوب اتباع الأثر ثم يتركون الآيات الصريحة والأحاديث المتفق عليها إلى موضوعات وأكاذيب وإسرائيليات لا تصح لا سنداً ولا متناً.. وتجدهم يحذرون من الغلو مع غلوهم في التكفير وغلوهم في الثناء على علمائهم.. وتجد هذه الفرق والطوائف عند سيطرتها وكثرة أتباعها تأمر أتباعها باتباع السواد الأعظم وعدم مخالفة الأمة فإذا انتصر خصومهم وأصبحوا (سواداً أعظم) يأتي العقائديون ويقولون: (طوبى للغرباء)! الذين يصلحون إذا فسد الناس! فالجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.. وتراهم يأمرون بالوقوف عند حدود النصوص الشرعية وعدم الزيادة عليها بينما هم يزيدون كثيراً من العقائد التي ليست في الكتاب ولا السنة.. وتراهم يعظمون تكفير المسلم وأنه من عقائد الخوارج وأنه لا يجوز وهذا الورع عن التكفير إنما هو عند ضعفهم!! فإذا قووا لا يرقبون في مسلم إلاً ولا ذمة.. وتراهم ينهون عن الاشتغال بأمر لم يشتغل به النبي ﷺ وأصحابه، فإذا سنحت لهم الفرصة أمروا الناس بمضايق من الاعتقادات لم تخطر على بال صحابي ولا تابعي مع مسميات وألقاب سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان.. وتراهم يتشددون في نقد وتضعيف الرجال الذين لا يوافقونهم في شواذ العقائد حتى وصل ذمهم للبخاري ومسلمٍ ويحيى بن معين وعلي ابن المديني وحسين الكرابيسي وابن الجعد الجوهري وأبي حنيفة والحنفية فضلاً عن تضعيف سائر الشيعة أيضا متمسكين بعبارة نقلوها عن الشافعي في تكذيب الخطابية (فرقة من غلاة الشيعة يستحلون الكذب) فجعلها هؤلاء في كل الشيعة ثقاتهم وضعفائهم!! بينما يبالغون في توثيق أتباعهم ولو كانوا ضعفاء أو خفيفي الضبط كما فعلوا في توثيق ابن بطة مثلاً.. وتراهم يذمون السلطان إذا آذى أحد أتباعهم وأن هذا سلطان سوء وينسون كل فضائله كما فعلوا بالمأمون وكان على ظلمه للحنابلة من أعدل ملوك بني العباس وأكثرهم علماً فإذا جاء سلطان آخر أظهر نصرتهم يمدحونه بمبالغة ولو كان مبتدعاً ظالماً كالمتوكل، بل ويبدعون ويضللون من يخالفه ويرددون قواعد طاعة ولاة الأمور وأن من

لم يدع للإمام فهو صاحب بدعة!!.. وتراهم يحتجون بالإجماع ويدعونه في أمور ليس فيها إجماع فإذا احتججت عليهم بالإجماع في أمر أظهر منه يرددون عبارة أحمد بن حنبل: من ادعى الإجماع فقد كذب وما أدراك لعلهم اختلفوا؟!.. وتراهم يتناقضون في الصحابة ووجوب تقديرهم فيذمون الشيعة لأنهم ينتقصون أصحاب النبي ﷺ بينما لا يذمون النواصب ولا يذكرونهم بسوء!! مع أنهم كانوا يلعنون علي بن أبي طالب ويذمونه ويرمونه بكل طامة سواءً كان ذلك من قبل حكامهم من بني أمية أو علمائهم كحريز بن عثمان وثور بن يزيد ونحوهم، بل يقومون بالفعل نفسه عندما يعدون عمار وأبا ذر وابن عديس وابن الحمق وغيرهم يعدونهم في اتباع عبد الله بن سبأ مع أنهم من كبار الصحابة، وابن سبأ أقرب للأسطورة منه للحقيقة.. بالإضافة إلى أنهم عندما ينتقدون من يسب الصحابة لا يريدون ــ في الأغلب العام ــ الدفاع عن أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وإنما جل اهتمامهم في الدفاع عن الطلقاء وخاصة معاوية، فسب معاوية عندهم أعظم من سب علي بن أبي طالب!! ولذلك تراهم يتشددون على من ينقد معاوية مثل تشددهم على ابن عبد البر والنسائي والحاكم بينما يمدحون من في كلامه انتقاص من قدر علي بن أبي طالب كابن تيمية وأبي بكر بن أبي داود والبربهاري.. وتراهم ينتقدون الآخرين ويستدلون على صحة نقدهم لهم بأمور مشتبهة من كلامهم ولو بطرف عبارة بينما يبالغون في الاعتذار لعبارات صريحة صدرت من أئمتهم كما يفعلون في الاعتذار عما كتبه عبد الله بن أحمد أو الأهوازي أو الهروي في التجسيم أو ما كتبه البربهاري في التكفير أو ما كتبه ابن تيمية في انتقاص علي بن أبي طالب ورد كثير من فضائله.. وتراهم يذمون رجلاً مثل أبي حنيفة لزعمهم أنه لم يؤت الرفق في دينه ثم يكفرونه وهذا أبلغ في البعد عن الرفق، وتراهم يذمون المنطق وينكرون المجاز مع وجود هذا وهذا في كلامهم وحججهم.. وتراهم يذمون الخوارج لأنهم يقتلون المسلمين ويكفرونهم بينما هم يفتون بقتل خصومهم وتكفيرهم كالخوارج تماماً)(1)

ثانيا ـ الخدع والاحتيال:

وهي من أبرز سمات المنهج النقدي عند العقل السلفي، فهو لا يبتغي من وراء النقد البحث عن الحقيقة، أو تصحيحها، وإنما يبتغي الانتصار على الخصم حتى لو كان ذلك باستعمال كل أساليب الخداع والحيلة.

1() قراءة في كتب العقائد، ص166.

ولاشك أنهم استفادوا هذه القدرة من تتلمذهم على اليهود وتلاميذ اليهود، والذين وصفهم الله تعالى بالحيلة والمكر والخداع، كما قال تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة: 85]، وقال : مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: 46]، وغيرها من الآيات الكريمة.

وصفة الخداع والمكر والحيلة في العقل السلفي ليست استنتاجا استنتجته فقط من خلال مطالعة كتب هذه المدرسة، وإنما هي حقيقة يقرون بها، بل يمدحون شيخهم شيخ الإسلام بسببها.

وسأنقل هنا كلام بعض الباحثين المعاصرين منهم، وهو يثني على ذكاء ابن تيمية وقدرته الاحتيالية، وذلك في مقال له بعنوان [منهج شيخ الإسلام في دفع شبهات الروافض](1)، والذي صدر مقاله التبرير لاحتيالات ابن تيمية بقوله: (علمنا أن شيخ الإسلام يواجه كتاباً قد ألفه رجل من طائفة جاهلة ظالمة قد عرف أفرادها بالكذب المختلق لا يفوقهم فيه أحد، فهذا الرافضي قد حشد أكاذيبه في هذا الكتاب من جهتين: من جهة الغلو في علي بشتى الأكاذيب والموضوعات، ومن جهة الطعن في الصحابة الآخرين فصاحب هذا الكتاب مندفع بحماسة إلى تقرير مذهبه الباطل بأي وسيلة، ولو كانت الافتراءات والأكاذيب، وشيخ الإسلام أمام سيل جارف من الغلو المكذوب في علي وأمام حمم متدفقة من الأكاذيب في سبيل الطعن في الصحابة فماذا يصنع؟)(2)

وهكذا يصور هذا العلم السلفي ــ وهو الشيخ سليمان الخراشي ـ ابن تيمية وكأنه في حرب، وليس في نقاش علمي، وبما أن الحرب خدعة، فعلى ابن تيمية ــ كما يصور هذا العلم السلفي ـ أن يضع الخطة المناسبة التي يتمكن بها من الانتصار على هذا العدو الرافضي اللدود.

وقد رأى أنه كان لابن تيمية خيارين فقط، لا ثالث لهما:

أما الخيار الأول: (وهو المشهور عند العلماء وأصحاب

---

(1) المقال موجود بمواقعهم الكثيرة، وهو في موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)، وهو للشيخ سليمان الخراشي

(2) موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)

التآليف، وهو أن يقوم شيخ الإسلام بدفع الطعون عن الصحابة ببيان كذبها وأنها مختلقة، فكلما رمى الرافضي بشبهة أو طعن على صحابي قام شيخ الإسلام بردها أو برده بكل اقتدار لينفيه عن هذا الصحابي)

وهذا الخيار ـ كما يرى الخراشي ـ هو الذي نصح الحافظ ابن حجر ابن تيمية بانتهاجه عندما اعتبره مغاليا في تعامله مع الرافضي، كما ذكر ذلك الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، في (الدرر الكامنة)، فقد قال: (ثم نسب أصحابه إلي الغلو فيه واقتضى له ذلك العُجب بنفسه حتى زهى على أبناء جنسه واستشعر أنه مجتهد، فصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم قديمهم وحديثهم .. ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي ما تقدم ولقوله أنه كان مخذولاً حيث ما توجه وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وإنما قاتل للرياسة لا للديانة ولقوله أنه كان يحب الرياسة.. فألزموه بالنفاق لقوله ﷺ : (ولا يبغضك إلا منافق)(1)

وقد انتقد الخراشي هذا الخيار، فقال: (وهو خيار جيد ومقبول لو كان الخصم غير الرافضي، أي لو كان الخصم ممن يحتكمون في خلافاتهم إلى النقل الصحيح أو العقل الصريح، أما مع الرافضي فإن هذا الأسلوب لا يجدي، ولن يكف بأسه عن أعراض الصحابة، فإنك مهما أجدت في رد الشبهة أو الطعن فإنه لن يقتنع بذلك أبداً - كما علم من طريقة القوم - ومهما أفنيت عقلك وجهدك في دفع أكاذيبه فإنه لن يألو جهداً في اختلاف غيرها من الأكاذيب. إذاً فهذا الخيار الأول لن يثني الرافضي عن هدفه من النيل من الصحابة.. نعم هو سينفع أهل السنة، ولكنه لن يضر الروافض ولن يسكتهم) (1)

وما دام هذا الخيار العلمي لم يجد، فإن الخيار الوحيد الذي بقي لابن تيمية هو الخيار الثاني، وهو ـ كما يذكر الخراشي ـ (الذي اختاره شيخ الإسلام لأنه يراه ذا مفعول فعال في مواجهة أكاذيب الروافض وغلوهم المستطير، وهذا الخيار يرى أن أجدى طريقة لكف بأس الروافض هو مقابلة شبهاتهم بشبهات خصومهم من الخوارج والنواصب، أي مقابلة هذا الطرف بذاك الطرف المقابل له، ليخرج من بينهما الرأي الصحيح الوسط. فكلما قال الرافضي شبهة أو طعناً في أحد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان قابلها شيخ الإسلام بشبهة مشابهة للنواصب والخوارج في علي .. وهو لا يقصد بهذا تنقص على والعياذ بالله، وإنما يقصد إحراج الروافض، وكفهم عن

(1) الدرر الكامنة، مصدر سابق ،ج1 ص 153 وما بعدها.

(1) موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)

الاستمرار في تهجمهم على الصحابة، لأنه ما من شئ من الطعون والتهم سيثبتونه على واحد من الصحابة إلا وسيثبت الخوارج والنواصب مماثلاً له في علي) (1)

وهكذا شرع الخراشي للحيلة والخداع، لأن هذا ـ كما يرى ـ (مما يخرس ألسنة الروافض، لأنهم في النهاية سيضطرون إلي أن تضع حربهم على الصحابة أوزارها عندما يرون شبههم وأكاذيبهم تقابل بما يناقضها في على فعندها سيبادرون إلى أن يختاروا السلم وعدم ترديد الشبهات حفاظاً على مكانة علي أن يمسها أحد بسوء) (2)

ثم علق على هذه الحيلة بقوله: (فهذه حيلة ذكية من شيخ الإسلام ضرب بها النواصب بالروافض ليسلم من شرهم جميعاً، وهذا ما لم يفهمه أو تجاهل عنه من بادر باتهامه بتلك التهمة الظالمة، وشيخ الإسلام - أيضاً - يعلم أن الروافض والنواصب جميعاً أصحاب كذب وغلو، ولكنه يقابل غلو هؤلاء وكذبهم بغلو أولئك وكذبهم، ليسكت الجميع ويدفعهم عن الخوض في أعراض الصحابة)(3)

ثم ذكر أن هذا هو منهج ابن تيمية مع جميع الطوائف، فقال: (فطريقة شيخ الإسلام أنه رأى قوماً يغلون في شخص من الأشخاص، ويتنقصون من يكون مثله أو أفضل منه، أن يقابل هؤلاء بمن يناقضهم في القول لكي يدفع الغلو عن الشخصين الفاضلين جميعاً)(4)

بل إنه يرى أن هذا المنهج منهج معتمد عند سلفه ممن يسميهم أهل السنة، فيقول: (وهذا مما قد تقرر عند علماء السنة ولم يستنكروه، وأما أهل الباطل من الغلاة فإنهم يتهمون كل من لم يكن على مثل غلوهم بأنه عدو لذاك الفاضل) (5)

ويرى أن ابن تيمية كان من أكثر الناس استعمالا لهذا المنهج، فيقول: (وكان كثيراً ما يجري المقارنات بين الأشخاص الذين غلا فيهم قوم، وجفا عنهم آخرون، فيصد غلو هؤلاء بجفاء أولئك، ويخرج من بينهما الرأي الصحيح في ذا ك الشخص الفاضل، فهذه الطريقة تميز بها شيخ الإسلام، ولم يستخدمها مع على والخلفاء الثلاثة كما يعتقد أعداؤه، وإنما هي طريقة مطردة له رحمه الله في كل موقف مشابه) (6)

وما ذكره الخراشي من منهج ابن تيمية هو نفسه ما أقر

1() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)
2() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)
3() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)
4() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)
5() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)
6() موسوعة شبه الرافضة والرد عليها (3/ 22)

به في تعامله مع الخصوم والمخالفين من ضرب بعضهم ببعض، لا بـالبحث عن الحقيقـة، والتحـري عنهـا بحسـب مـا تقتضـيه الموضوعية العلمية.

يقول ابن تيميـة في تـبريره لهـذا المنهج التضـليلي: (أهـل السنة مع الرافضة كالمسـلمين مـع النصـارى، فـإن المسـلمين يؤمنـون بـأن المسـيح عبـد اللـه ورسـوله، ولا يغلـون فيـه غلـو النصارى، ولا يجفون جفاء اليهود. والنصارى تـدعى فيـه الإلهيـة وتريـد أن تفضـله على محمـد وابـراهيم وموسـى بـل تفضـل الحواريين على هؤلاء الرسل، كما تريد الروافض أن تفضـل من قاتـل مـع على كمحمـد بن أبي بكـر، والأشـتر النخعي على أبي بكر وعمر وعثمان وجمهور الصـحابة من المهـاجرين والأنصـار، فالمسلم إذا ناظر النصـراني لا يمكنـه أن يقـول في عيسـى إلا الحق، لكن إذا أردت أن تعرف جهل النصراني وأنه لا حجـة لـه، فقدر المناظرة بينه وبين اليهودي، فـإن النصـراني لا يمكنـه أن يجيب عن شـبهة اليهـودي إلا بمـا يجيب بـه المسـلم، فـإن لم يدخل في دين الإسلام وإلا كان منقطعـاً مـع اليهـودي، فإنـه إذا أمر بالإيمان بمحمد ﷺ، فإن قدح في نبوتـه بشـئ من الأشـياء، لم يمكنه أن يقول شيئاً إلا قال له اليهودي في للمسـيح مـا هـو أعظم من ذلك، فإن البينات لمحمد أعظم من البينات للمسيح، وبعد أمر محمد عن الشبهة أعظم من بعد المسيح عن الشبهة، فإن جاز القدح فيما دليله أعظم وشبهته أبعد عن الحق فالقـدح فيما دونه أولى، وإن كان القدح في المسـيح بـاطلاً فالقـدح في محمد أولى بالبطلان، فإنه إذا بطلت الشـبهة القويـة فالضـعيفة أولى بالبطلان، وإذا ثبتت الحجة التي غيرها أقوى منهـا فالقويـة أولى بالثبات.. وهذا حال النصارى واليهـود مـع المسـلمين وهـو حال أهل البدع مع أهل السنة لا سيما الرافضة. وهكذا أمر أهل السنة مع الرافضة في أبي بكر وعلي، فـإن الرافضـي لا يمكنـه أن يثبت إيمـان على وعدالتـه وأنـه من أهـل الجنـة - فضـلاً عن إمامته - إن لم يثبت ذلك لأبي بكـر وعمـر وعثمـان، وإلا فمـتى أراد إثبات ذلك لعلي وحده لم تساعده الأدلة، كما أن النصراني إذا أراد إثبات نبوة المسيح دون محمد لم تسـاعده الأدلـة، فـإذا قـالت لـه الخـوارج الـذين يكفـرون عليـاً أو النواصـب الـذين يفسقونه: إنه كان ظالماً طالباً للدنيا، وإنه طلب الخلافة لنفسه وقاتل عليها بالسيف، وقتل على ذلك ألوفاً من المسلمين حـتى عجز عن انفـراده بـالأمر، وتفـرق عليـه أصـحابه وظهـروا عليـه فقاتلوه، فهذا الكلام إن كان فاسـداً ففسـاد كلام الرافضـي في أبي بكـر وعمـر أعظم، وإن كـان مـا قالـه في أبي بكـر وعمـر

متوجهاً مقبولاً فهذا أولى بالتوجه والقبول)(1)

ومن خلال هـذا المنهج راح ابن تيميـة يسـب عليـا والعـترة الطـاهرة بكـل صـنوف السـب، فـإذا مـا اتهم بالنصـب انـبرى أصحابه من السلفية يدافعون عنـه، ويقولـون: إن ابن تيميـة لم يحك قوله، وإنما حكى قول النواصب.

وهـذا يقـال أيضـا في التجسـيم، فـابن تيميـة يـذكر قـول الدارمي عن الله تعالى مقرا لـه: (ولـو قـد شـاء لاسـتقر على ظهر بعوضة فاستقلت به)(2)، فإذا ما نوقش السلفية في ذلـك، قيل إن هذا القول قول الدارمي.

وهكـذا نجـد صـنوف التلاعب والحيـل، لأن الغـرض ليس الوصول إلى الحقيقة، وإنمـا الانتصـار على الخصـم، لأن العقـل السـلفي لا يمـارس البحث العلمي، وإنمـا يمـارس الصـراع العلمي، فـالنفس السـبعة لا يمكنهـا أن تشـم رائحـة العلم، ولا رائحة البحث العلمي.

ومن الأمثلة على ذلك تلك السـخرية الـتي تمتلئ بهـا كتب السلفية ومواقعهم ومجالسـهم عمـا يسـمونه [حمـار الشـيعة]، والذي كتب عنه بعضهم مقالا مطولا بعنوان [القول الـوافي في حمار الكافي](3)، وهي قصة وردت في [الكافي] بدون سند، بل ذكرهـا الكليـني بصـيغة التمـريض (روي عن علي)، والشـيعة يضعفونها، كما يضعفون الكثير من أحـاديث الكـافي.. ولكن مـع ذلـك كلـه لم يشـفع لهم عنـد السـلفية الـذين ملأوا المجـالس سخرية منها، حتى صار جميع الناس يعرفون هذه القصة.

مع أننا لو تأملنا فيها لم نجد فيها وقارناها بذلك الغثاء الذي يروى في كتب السلفية مسندا، بل يصححه أعلامهم الكبار كابن تيمية لرأينا الفرق كبيرا.

وسأعرض هنا القصـة كمـا وردت في الكـافي، وسـأعرض نموذجا عن الغثاء الذي يصححه السلفية لنرى الفرق الكبير بين القصـتين.. وهـل يصـح لمن بيتـه من زجـاج أن يـرمي النـاس بالحجارة؟

أما رواية الكليني في (الكافي)، فقد قال: (وروي أن أمـير المؤمنين (عليه السلام) قال: إن ذلك الحمـار كلم رسـول اللـه ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي إن أبي حدثني عن أبيـه عن جـده عن أبيه أنه كان مع نوح في السـفينة فقـام إليـه نـوح فمسـح على كفله ثم قال: يخـرج من صـلب هـذا الحمـار حمـار يركبـه سـيد

1() منهاج السنة النبوية (2/ 55)

2() بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (3/ 242)

3() انظـر: ملتقى اهـل الحـديث على الرابـط التـالي: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=100441.

النبيين وخاتمهم فالحمد لله الذي جعلني ذلك الحمار)[1]

فهذه القصة حتى لو صححها الشيعة، فليس فيها شيء كبير.. وهي في أسوأ أحوالها خرافة أو أسطوة أو دجل.. وهي فوق ذلك لا علاقة لها بأي قضية من القضايا العقدية، بل هي تبين أن هذا الحمار نال شرف ركوب رسول الله ﷺ .. وليس في ذلك أي مضرة على أي مسألة من مسائل العقيدة.

لكن عندما نقارن هذه القصة بما يرويه السلفية ويصححه أعلامهم الكبار نرى الفارق الكبير الخطير.. فقد أورد ابن تيمية من غرائب حديث النزول هذه الرواية التي تطفح بالتجسيم والتشبيه: (ثم تبعث الصيحة فلَعَمْر إلهك ما تدعُ على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك عز وجل **فأصبح ربك يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد** فأرسل ربك عز وجل السماء.. قلت يا رسول الله فما يعمل بنا ربنا جل وعز إذا لقيناه ؟ قال تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية **فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء** فينضح قِبَلكم بها فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحدكم منها قطرة)[2]

فأيهما أخطر على العقيدة هل رواية الحمار الذي فرح لركوب رسول الله ﷺ له، أم هذه الرواية التي تجعل الله العلي العظيم يطوف في الأرض، ثم يأخذ بيده غرفة من الماء فينضح بها..

ثم فوق ذلك كله لم يذكر السلفية، ليردوا عليها، وإنما ذكروها ليستدلوا بها على العقيدة وعلى أهم شيء في العقيدة، وهو معرفة الله، وقد قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية النجيب بعد إيراده الرواية: (هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة لا يعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدني رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري. ورواه أئمة أهل السنة في كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد ولم يطعن أحد منهم فيه ولا في أحد من رواته. فممن رواه الإمام ابن الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه وفي كتاب السنة.. ومنهم الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب السنة له، ومنهم الحافظ أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان العسال في كتاب

1() (الكافي 1/237)

2() مجموع الفتاوى (4/ 184)

المعرفة، ومنهم الحافظ أبو محمد عبدالله بن محمد بن حيان أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب السنة، ومنهم الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة حافظ أصبهان، ..وجماعة من الحفاظ سواهم يطول ذكرهم) (1)

بل إنه يرتب على منكر هذا حكما خطيرا، فينقل عن سلفه أبي عبد الله بن مندة مقرا له: (ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة)(2)

ثم لا يكتفي بذلك.. بل يذهب يفسر الحديث حرفا حرفا يستنبط منه كل صنوف التجسيم والتشبيه، فيقول: (وقوله **فيظل يضحك هو من صفات أفعاله** سبحانه وتعالى التي لا يشبهه فيها شيء من مخلوقاته كصفات ذاته، وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرة لا سبيل إلى ردها كما لا سبيل إلى تشبيهها وتحريفها.. وكذلك **فأصبح ربك يطوف في الأرض** هو من صفات فعله..والكلام في الجميع صراط واحد مستقيم إثبات بلا تمثيل بلا تحريف ولا تعطيل.. وقوله: **فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم** فيه إثبات صفة اليد له سبحانه بقوله وإثبات الفعل الذي هو النضح)(3)

فهل يمكن لعاقل يروي مثل هذه الأحاديث أن يتجرأ، فيتحدث عن الحمار يعفور رضي الله عنه وأرضاه..

وهل يمكن لمن يرسم الملائكة عليهم السلام بصورة وحوش وطيور أن يضحك ويسخر من غيره.

بل إننا لو بحثنا في مصادر السلفية أنفسهم لوجدنا الحمار يعفور جاثما في بعض زرائبها، فقد رووا عن أبي منظور : لما فتح اللهُ على نبيهِ ﷺ خيبرَ؛ أصابهُ من سهمهِ أربعةُ أزواج نعال، وأربعةُ أزواج خفاف، وعشرُ أواقي ذهبٍ وفضةٍ، وحمارٌ أسودٌ.قال : فكلم النبي ﷺ الحمارَ، فقال له : ما اسمُك ؟ قال : يزيدُ بنُ شهابٍ، أخرج اللهُ من نسلِ جدي ستينَ حماراً، كلهم لم يركبهم إلاَّ نبي، ولم يبق من نسلِ جدي غيري، ولا من الأنبياءِ غيرُك، أتوقعك أن تركبني، وكنتُ قبلك لرجلٍ من اليهودِ، وكنتُ أعثرُ به عمداً، وكان يجيعُ بطني ويضربُ ظهري، فقال له النبي ﷺ : قد سميتك يعفوراً، يا يعفورُ قال : لبيك.قال : أتشتهي الإناث ؟ قال : لا، وكان النبي ﷺ يركبه في حاجته ؛ فإذا نزل عنه بعث به إلى باب الرجلِ، فيأتي البابَ فيقرعُهُ برأسهِ، فإذا خرج إليه صاحبُ الدارِ ؛ أومأ إليه أن أجب رسولَ اللهِ ﷺ قال : فلما قبض النبي ﷺ؛ جاء إلى بئرٍ كانت لأبي

1() زاد المعاد 3/677-682 .
2() زاد المعاد 3/677-682 .
3() زاد المعاد 3/677-682 .

الهيثمِ بنِ التيهان ؛ فتردى فيها، فصارت قبرهُ ؛ جزعاً منــه على رسولِ اللهِ)[1]

فـــإن قـــالوا: إن هـــذا الحـــديث أورده ابنُ حبـــان في (المجروحين)، وقال فيه: (لا أصل لهذا الحـديثِ، وإسـنادهُ ليس بشيءٍ.ولا يجوزُ الاحتجاجُ بمحمدِ بنِ مَزْيَد) [2]

كمــا رواه ابنُ الجــوزي في الموضــوعات، وبــوب عليــه بقولـه : (بـابُ تكليم حمـارهِ يعفـور)، وقـال فيـه: (هـذا حـديثٌ موضوعٌ فلعن اللهُ واضعهُ، فإنه لم يقصد إلا القدحَ في الإسلامِ، والاستهزاءَ به) [3]

قيل لهم، فقد كذب الشيعة كذلك هذا الحـديث، فقـد قـال محقق كتاب (مرآة العقـول) ــ وهـو من أعلام محـدثي الشـيعة ومحققيهم ـ في هامش تعليقـه على هـذه الروايـة: (ولا يتعقـل معـنى صـحيح لهـذه المرسـلة تحمـل عليـه ولعلهـا ممـا وضـعه الزنادقة استهزاءاً بالمحدثين السذج كما أنهم وضـعوا كثـيراً من الاحاديث لتشويه الدين)[4]

فلم لا تتعـاملون مـع محـدثي الشـيعة كمـا تتعـاملون مـع محدثيكم.. ولم تشترطون أقوال محققيكم عند إيـراد الحـديث، ولا تشترطون أقوال محققيهم.

هــذا مجــرد نمــوذج عن الخــداع والحيــل الــتي يمارســها السلفية لإسـقاط خصـومهم، ويبنـوا عليهـا بعـد ذلـك جـدرا من الأوهام والأكاذيب.

ثالثا ـ التضليل والتكفير

لعل أحسن مـا يعـبر عن المـدى الـذي وصـل إليـه تضـليل وتكفير السلفية لغيرهم من المسلمين ما ورد في الأثر: (الناس كلهم هلكى إلا العـالمون، والعـالمون كلهم هلكى إلا العـاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصـون، والمخلصـون على خطـر عظيم)[5]

فهكــذا يقــول السـلفية بلســان حــالهم ومقــالهم.. فكــل المسلمين عندهم هلكى إلا السلفيون من أصـحابهم، وهم أيضـا محل نظر .. بل محل تكفير فيما بينهم.

وكمثال بسيط على ذلـك الاعتقـاد بمقتضـى قولـه تعـالى: ﴿وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَـا كُنْتُمْ ﴾ [الحديـد: 4]، وهـو أن اللـه تعـالى ليس في جهة ولا مكان.. فإن هذا الاعتقـاد، وهـو اعتقـاد جميـع المـذاهب المسـلمين يعتـبر تجهمـا وكفـرا عنـد جميـع علمـاء

1() ابنُ حبان في المجروحين (2/328)
2() ابنُ حبان في المجروحين (2/328)
3() الموضوعات (555)
4() راجع مرآة العقول: 3/ 53.
5() كشف الخفاء2/312.

السلفية سلفهم وخلفهم.

وهم بهـذا القـول يكفـرون جميـع المعتزلـة والأشـاعرة والماتريديـة والإماميـة والزيديـة والإباضـية وغـيرهم من فـرق المسلمين، كما قـال ابن بطـة العكـبري (304-387 هــ) في كتابـه المشـهور [الإبانـة عن شـريعة الفرقـة والناجيـة]: (بـاب الإيمـان بـأن اللـه على عرشـه بـائن من خلقـه وعلمـه محيـط بخلقـه: أجمـع المسـلمون من الصـحابة والتـابعين وجميـع أهـل العلم من المؤمـنين أن اللـه تبـارك وتعـالى على عرشـه فـوق سمواته بائن من خلقه وعلمه محيط بجميع خلقه، ولا يأبى ذلك ولا ينكره إلا من انتحل مذاهب الحلولية وهم قوم زاغت قلوبهم واستهوتهم الشياطين فمرقوا من الدين وقالوا: إن اللـه ذاتـه لا يخلو منه مكان)(1)

وحكايتـه الإجمـاع في هـذه المسـألة الخلافيـة عمن يعـبر عنهم بأهل العلم من المؤمنين تدل على أنه لا يـرى المؤمـنين، ولا أهل العلم غيرهم.

هذا مثال واحـد على مسـألة عقديـة واحـدة.. وهكـذا نجـد الأمر في جميع المسائل التي قلما ينجو منها أحد من الناس.

أمـا المسـائل الفرعيـة فأبسـطها هـو زيـارة الأضـرحة والقبور، وهي مما جرى عليـه العمـل عنـد كثـير من المسـلمين عـوامهم وخواصـهم، بـل حـتى عنـد المتقـدمين من السـلفية أنفسـهم، ولـو طبقنـا عليهم مقـاييس الشـيخ محمـد بن عبـد الوهاب والسلفية المعاصرين، فسيعتبرون جميعا كفارا.

فقد عقد الخطيب البغدادى ـ وهو من أعلامهم الكبار ـ فى كتابـه (تـاريخ بغـداد) بابـا عنونـه بــ [مـا ذكـر في مقـابر بغـداد المخصوصة بالعلماء والزُهاد]

روى فيـه عن أبي عَلِيّ الخلال ــ وهـو من أعلامهم أيضـا ـ قال: (ما همني أمر فقصدت قبر مُوسَى بْن جعفر، فتوسلت بـه إلا سهل الله تعالى لي ما أحب)(2)

وروى فيــه عن أبي طــاهر بْن أَبِي بكــر، قَــالَ: حكى لي والدي عَنْ رجل كان يختلف إِلَى أَبِي بكر بْن مالك أنه قيـل لـه: أين تحب أن تدفن إذا مت؟ فقال: بالقطيعة، وإن عَبْـد اللـه بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل مدفون بالقطيعة، وقيل له، يَعْنِي لعبـد اللـه، في ذلك، قَالَ: وأظنه كان أوصى بأن يـدفن هنـاك، فقَـالَ: قـد صـح عندي أن بالقطيعة نبيا مدفونا، ولأن أكـون في جـوار نـبي أحب إلي من أكون في جوار أَبِي (3).

(1) الإبانة 3/ 136.
(2) تاريخ بغداد (1/ 442)
(3) تاريخ بغداد (1/ 443)

وروى فيه عن أبي الفضل عبيد الله بْن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن مُحَمَّد الزهري، قَالَ: سمعت أَبِي يقول: (قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج)، ويقال: (إنه من قرأ عنده مائة مرة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته)(1)

وروى فيه عن أبي عَبْد الله ابْن المحاملي، أنه قال: (أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة ما قصده مهموم إلا فرج الله همه)(2)

وروى فيه عن الشافعي قوله: (إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إِلَى قبره في كل يوم، يَعْنِي زائرا، فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين، وجئت إِلَى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى) (3)

وهكذا نجد أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمى البستى (المتوفى 394هـ) صاحب كتاب صحيح ابن حِبان، وغيره، وهو من المحترمين كثيرا عند السلفية، فقد قال فى كتابه [الثقات] عند ترجمته للإمام على بن موسى الرضا: (وقبره بسنا باذ خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد قد زرته مرارا كثيرة وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله إزالتها عنى إلا أستجيب لي وزالت عنى تلك الشدة وهذا شيء جربته مرارا فوجدته كذلك أماتنا الله على محبة المصطفي وأهل بيته صلى الله عليه وسلم الله عليه وعليهم أجمعين)(4)

وهكذا نجد ابن خزيمة أبا بكر السلمي النيسابوري، صاحب كتاب التوحيد الذي يهتم به السلفية كثيرا، وخصوصا ابن تيمية، يقول عنه الحافظ أبن حجر العسقلانى فى كتابه (تهذيب التهذيب) عند ترجمته لعلي بن موسى الرضا، قال : (قال الحاكم وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشائخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضى بطوس قال فرأيت من تعظيمه يعنى إبن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيّرنا منه)(5)

وهكذا روي عن كثير من أئمة الحديث الذين يعتمد عليهم السلفية في الرواية وفي العقائد وغيرها، والذين ذكرنا سبقا

1() تاريخ بغداد (1/ 445)
2() تاريخ بغداد (1/ 445)
3() تاريخ بغداد (1/ 445)
4() الثقات لابن حبان (8/ 457)
5() تهذيب التهذيب (7/ 388)

تشددهم مع المخالفين لهم.. فلو طبقنا على هؤلاء ما يقوله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكل السلفية المعاصرين لحكمنا بكفرهم.

فقد قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة له في (معنى لا إله إلا الله): (إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفا من الله عز وجل، ولكنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية، وذلك أن المشركين كانوا يدعون الصالحين مثل الملائكة وعيسى وعزير وغيرهم من الأولياء، فكفروا بهذا مع اقرارهم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، واذا عرفت هذا عرفت معنى (لا اله الا الله)، وعرفت أن من دعا نبيا أو ملكا أو ندبه او استغاث به، فقد خرج من الإسلام)(1)

ورد في (الدرر السنية) التي تعتبر المصدر الأكبر للفكر الوهابي في (رسالة الأمير عبد العزيز بن سعود إلى أهل المخلاف السليماني يعرفهم بدين الإسلام):(إن الله تبارك وتعالى، أرسل محمدا ﷺ إلينا على حين فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل، والشرع التام؛ وأعظم ذلك وأكبره، وزبدته، هو: إخلاص الدين، لله، بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك؛ وهو: أن لا يدعى أحد من دونه، من الملائكة، والنبيين، فضلا عن غيرهم; فمن ذلك: أن لا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا له; ولا يدعى لكشف الضر إلا هو، ولا لجلب الخير إلا هو، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يذبح إلا له؛ وجميع العبادة لا تصلح إلا له وحده لا شريك له؛ وهذا معنى قول لا إله إلا الله ; فإن المألوه هو: المقصود، المعتمد عليه; وهذا أمر هين عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من عرفه. فمن عرف هذه المسألة، عرف أن أكثر الخلق قد لعب بهم الشيطان، وزين لهم الشرك بالله، وأخرجه في قالب حب الصالحين وتعظيمهم)(2)

بل إنه يرى أن المسلمين في زمانه – بسبب تلك السلوكات – أكثر شركا من المشركين الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ، يقول في ذلك: (المشركون في زماننا أضل من الكفار الذين في زمن رسول الله ﷺ من وجهين: أحدهما: أن الكفار إنما يدعون الأنبياء والملائكة في الرخاء; وأما في الشدائد، فيخلصون لله الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ

1() نقلا عن: عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1424هـ/2004م.

2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (1/ 265)

الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ الآيـة [سـورة الإسـراء آية: 67].والثاني: أن مشركي زماننا، يـدعون أناسـا لا يوازنـون عيسى والملائكة)(1)

ولم تكن أحكام محمد بن عبد الوهاب على الأمة بالشــرك الأكبر قاصرة على ما ألفه من كتب ورسائل، بل كان يشيع ذلك في البلاد، ويصرح به في كل محل، وقد شهد أعلام عصره عليه بحكمه عليهم بالشرك.

وأول من شهد عليه بذلك وعاتبه عليه عتابـا شـديد، أخـوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب الذي كان يشغل منصب القضـاء في (حــريملاء)، والــذي ألــف رســالة في نقــد أخيــه ســماها (الصواعق الإلهيّـة في الـرّد على الوهابيّـة)(2)، وممـا جـاء فيهـا قوله: (ابتلى الناس بمن ينتسب الى الكتـاب والسـنة ويسـتنبط من علومهما، ولا يبـالي من خالفـه، واذا طلبت منـه ان يعـرض كلامه على أهل العلم لم يفعـل، بـل يـوجب على النـاس الأخـذ بقوله ويمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هـذا وهـو لم يكن فيـه خصـلة واحـدة من خصـال اهـل الاجتهـاد، ولا واللـه عشـر واحدة ومع هذا، فراج كلامه على كثير من الجهال فإنا للـه وانـا اليه راجعون، الأمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يــرد لهم في كلمة، بل كلهم كفـار أو جهـال (اللهم) اهدالضـال ورده الى الحق)(3)

وهم – كمـا يـذكر سـليمان بن عبـد الوهـاب - لم يكتفـوا بالحكم عليهم بالكفر فقط، بل حكموا على البلاد التي يسكنونها بأنها بلاد حرب، فيقول: (تكفرون عوام المسـلمين وتسـتبيحون دماءهم وأموالهم، وتجعلـون بلادهم بلاد حـرب، ولم يوجـد منهم عشر معشار ما وجد من هولاء، وإن وجـد منهم شـئ من أنـواع الشرك سـواء شـرك أصـغر أو أكـبر فهم جهـال، لم تقم عليهم الحجة الذي يكفر تاركها)(4)

ونجد من خلال رسالته حرقـة كبـيرة تـدل على مـدى الألم الذي أصاب الناس بسبب أخيه، فهو يقـول: (ياعبـاد اللـه تنبهـوا وارجعو الى الحق وامشـوا حيث مشـى السـلف الصـالح وقفـوا حيث وقفـوا، ولا يسـتغركم الشـيطان ويـزين لكم تكفـير أهـل الإسلام، وتجعلون ميزان كفر الناس مخالفتكم وميزان الاسـلام

1() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (2/ 41)

2() ويسمى أيضا (فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب)، وذكر بعضهم أنه عنوان لكتاب آخر.

3() الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّـة، الشـيخ سـليمان بن عبـد الوهـاب النجـدي، مطبعة نخبه الاخيار، 1306ه، ص4.

4() المرجع السابق، ص28.

موافقتكم)[1]

ويقول: (يا عباد الله.. اتقوا الله خافوا ذا البطش الشديد لقد آذيتم المؤمنين والمؤمنات ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[2] والله ما لعباد الله عند الله ذنب إلا أنهم لم يتبعوكم على تكفير من شهدت النصوص الصحيحة بإسلامه وأجمع المسلمون على إسلامه فإن اتبعوكم أغضبوا الله تعالى ورسوله ﷺ وإن عصوا آراءكم حكمتم بكفرهم وردتهم)[3]

ويقول: (فأنتم الآن تكفرون بأقل القليل من الكفر، بل تكفرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفرون بصريح الإسلام، فإن عندكم أن من توقف عن تكفير من كفرتموه خائفاً من الله تعالى في تكفير من رأى عليه علامات الإسلام فهو عندكم كافر)[4]

وهكذا نجد السلفية بعد ابن عبد الوهاب كلهم لا زالوا يتبنون هذا الموقف التكفيري لعموم المسلمين[5]، يقول محمد حامد الفقي - وهو علم من كبار أعلام السلفية في مصر-: (كما جرى لأهل مصر وغيرهم؛ فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة. ومع هذا فصار أعظم آلهتهم .. وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني; كما يعتقد أهل مصر في البدوي. وعبد القادر من متأخري الحنابلة .. كما جرى من الرافضة مع أهل البيت.. وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به، وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي، وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا.. وفي الحجاز واليمن وغيرها من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى، كعبادتهم للجن وطلبهم للشفاعة منهم)[6]

وبذلك لم يبق أحد من المسلمين – في نظر هؤلاء - إلا وهو كافر أو مشرك، ولم يسلم من هذا التكفير إلا الدولة

1() المرجع السابق، ص24.
2() سورة الأحزاب: 58.
3() لمرجع السابق، ص27..
4() المرجع السابق، ص29.
5() لا نحتاج إلى استدلال على هذا الكلام، لأن الذي يزعم أنه سلفي أو وهابي ثم لا يقف هذا الموقف من المسلمين لا يعتبر سلفيا ولا وهابيا، لأن النصوص الواردة عنهم تقيد السلفي والوهابي بهذا القيد، فيما يسمى عندهم بالولاء والبراء.
6() فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص220.

السعودية – في شقها الوهابي[1] - والتي اعتبرها علم كبير كأبي بكر جابر الجزائري الدولة الوحيدة الممثلة للإسلام، يقول: (هذه الدّولة الّتي كانت معجزة القرن الرّابع عشر، هذه الدّولة التي لا يواليها إلاّ مؤمن ولا يعاديها إلاّ منافق كافر مادامت قائمة بأمر الله)[2]

ويقول: (إنّه لا يوجد مسلم صحيح الإسلام، ولا مؤمن صادق الإيمان وفي أي بلد إسلامي، كان، إلاّ ويتمنّى بكلّ قلبه أن يحكمه ابن السعود وإنّه لو يدعى إلى مبايعته مَلِكاً أو خليفةً للمسلمين لما تردد طرفة عين، كان ذلك من أجل أنّ هذه الدّولة تمثّل الإسلام وتقوم به وتدعو إليه...)[3]

ويقول عن دورها في تهديم الآثار والأضرحة: (وهيهات هيهات أن يتنكر آل سعود لمبدأ الحق الذي أقاموا ملكهم عليه، ووقفوا حياتهم على حمايته ونصرته ونصرة الدّاعين إليه!! والهادين إلى مثله!! إنه لو لم يبق إلاّ عجوزٌ واحدة من آل سعود لم يكن لها أن تتنازل عن مبدأ الحقّ)[4]

وهكذا عندما نطالع فتاوى أول مفت رسمي للمملكة العربية السعودية، والذي تولى الكثير من المناصب، حيث كان بيده الإفتاء الرسمي، وتولى رئاسة المعاهد العلمية والكليات الشرعية، وهيئة الأمر بالمعروف، والجامعة الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامي، وهيئة كبار العلماء، ومكاتب الدعوة في الخارج، وهو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (1311-1389هـ)، فإننا نجدها مصدرا من أكبر مصادر التكفير للأمة جميعا، وبأوهى الأسباب.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في تكفير جميع الأمة: (إسلام الأَكثر إسمي، فإن أكثر المنتسبين إليه في هذا الوقت يقال لهم المسلمون إسمًا ضد اليهود والنصارى. من وجد منه ما ينقضه فإنه إسلام الإسم ولا حب ولا كرامة، أفيظن أَن من رضوا بالأَوثان وعبدوها وحاموا دونها وجبوا بها الجبايات وحكموا القوانين، أَفبعد هذا إسلام؟ هل هذا إلا الكفر الذي بعث ﷺ بهدمه؟! وأَصغركم يعرف أَن كل من دخل في الإسلام يبقى عليه بكل حال، بل إذا نقضه خرج. وباب حكم المرتد معروف ومبين من هو بإجماع بين أَهل العلم أَن الردة ردتان)[5]

1() لأن هؤلاء يكفرون شيعة السعودية ومن فيها من الصوفية.

2() وجاءوا يركضون مهلاً يا دعاة الضلالة، أبو بكر جابر الجزائري، دار الحرمين، 1413، ص17.

3() الإعلام بأن العزف والغناء حرام. أبوبكر جابر الجزائري، مكتبة دار الوفاء للنشر، 1407 ه، ص 57.

4() وجاءوا يركضون، ص17.

5() فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (1/

وسئل عن جزار ينتسب إلى الإسلام، يقال له فاضل الدين هل تحل ذبيحته؟ فأجاب: (يشترط في القصاب فاضل الدين أن يكون مسلمًا، صحيح المعتقد ينكر الخرافات كعبادة القبور وغيرها مما يعبد من دون الله، وينكر جميع المعتقدات والبدع الكفرية: كمعتقد القاديانية، والرافضة الوثنية، وغيرها. ولا يكتفى في حل ذبيحته بمجرد الانتساب إلى الإسلام والنطق بالشهادتين وفعل الصلاة وغيرها من أركان الإسلام مع عدم الشروط التي ذكرناها، فإن كثيرًا من الناس ينتسبون إلى الإسلام وينطقون بالشهادتين ويؤدون أركان الإسلام الظاهرة ولا يكتفى بذلك في الحكم بإسلامهم ولا تحل ذكاتهم لشركهم بالله في العبادة بدعاء الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم وغير ذلك من أسباب الردة عن الإسلام. وهذا التفريق بين المنتسبين إلى الإسلام أمر معلوم بالأدلة من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، ثم ما ذكرنا من الأمور المطلوبة في هذا القصاب يعتبر في ثبوتها نقل عدل ثقة يعلم حقيقة ذلك من هذا الرجل، وينقله الثقة عن هذا العدل حتى يصل إلى من يثبت لديه ذلك حكمًا ممن يعتمد على ثبوته عنده شرعًا)(1)

بل إنه يذهب إلى اعتبار علماء المسلمين الكبار أجهل من أبي جهل، فقد قال في بعض تقاريره: (في هذه الأزمان وقبلها بأزمان يدعي العلم ضخام العمائم الذين يدعون أنهم حفاظ الدين على الأمة وأنهم وأنهم، أبو جهل أعلم منهم، فإنه يعلم معنى لا إله إلا الله وهم لا يعرفونه. والجهل درجات فيه تعرف قدر الذين أبو جهل أعلم منهم)(2)

رابعا ـ العنف والقتل

يتميز الاتجاه السلفي من لدن نشأته الأولى باستخدام العنف بمختلف وسائله مع المخالف، سواء كان ذلك المخالف عالما أو حاكما أو عاميا بسيطا، بل حتى لو كان ذلك المخالف من أوصانا رسول الله ﷺ بهم، وبمودتهم والتمسك بحبلهم، فحملة الكراهية والانتقام والتشفي من هؤلاء جميعا لا تكاد تنتهي، وهي لذلك أصبحت عند خلفهم من الإرهابيين دينا يتعبدون الله به.

وسنذكر هنا باختصار نماذج عن ذلك من مصادرهم التي يعتمدون عليها ويحترمونها، بل ويجعلونها من مراجعهم التي يزكونها ويوصون أتباعهم بقراءتها، وقد صنفناها إلى صنفين:

---

(77)

1() فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (1/ 77)

2() فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (1/ 84)

عنف معنوي، وعنف حسي.

1 ـ العنف المعنوي:

ونقصد به الممارسات غير المادية للعنف، كالاحتقار والشتم والهجر وغيرها، وتأثيرها النفسي لا يقل عن تأثير العنف الحسي، بل هي في أحيان كثيرة وسيلة وتمهيد للعنف الحسي، فغرس الكراهية بين الناس لجهة من الجهات مقدمة لممارسة العنف الحسي ضدها.

منع الحوار:

وهو نوع من التعبير عن إلغاء المخالف وعدم اعتباره، وذلك نتيجة لعدم اعتراف التيار السلفي به، وهو نوع من أنواع العقوبة التي يسلطونها على المبتدعة في تصورهم.

وقد نص على هذا جميع أئمتهم من السلف والخلف، ومن ذلك ما ذكره أبو القاسم اللالكائي (المتوفى: 418هـ) في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)، فقد قال: (فما جني على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة، ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمدا ودردا، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلا، حتى جاء المغرورون ففتحوا لهم إليها طريقا، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلا، حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمناظرة، وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة، حتى تقابلت الشبه في الحجج، وبلغوا من التدقيق في اللجج، فصاروا أقرانا وأخدانا، وعلى المداهنة خلانا وإخوانا، بعد أن كانوا في الله أعداء وأضدادا، وفي الهجرة في الله أعوانا، يكفرونهم في وجوههم عيانا، ويلعنونهم جهارا، وشتان ما بين المنزلتين، وهيهات ما بين المقامين)(1)

وكمثال واقعي على ذلك أنه عندما طلبت الطرق الصوفية في الجزائر من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين – وهي كما هو معلوم جمعية سلفية وهابية بامتياز - المناظرة والحوار، رفضت ذلك، وقد برر الإبراهيمي (المتوفى: 1385هـ) ذلك بقوله: فأجابهم بقوله: (إن المناظرة في الشيء تستدعي نظيرين، أي مثيلين في المعنى الذي يتناظران فيه، والمناظرة المطلوبة هنا في مسائل علمية دينية لَابَسَها تاريخ المسلمين الطويل، وداخلتها عوائدهم واجتماعياتهم وأثر فيها هذا وذاك.. وإذا كنا نحن الطرف الأول في هذه القضية، ونحن علماء نقول في الدين بِدَلِيلِهِ المعتبر، ونتكلم في التاريخ بعلله وأسبابه، ونقول في العادات بمناشئها وآثارها، ونرجع كل شيء إلى

---

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج1، ص19.

أصله، ونرد كل حادثة إلى سببها، ونربط بين الدليل ومدلوله والعلة ومعلولها، فإن الطرقيين بالطبع هم الطرف الثاني، وهل بلغ الطرقيون أن يكونوا نظراءنا بالعلم والدين والتاريخ والاجتماع؟)(1)

ثم وضح السر الذي جعله لا يعتبر هؤلاء، فقال: (نحن نعرفهم حق المعرفة، ونعرف أنهم جهلاء ويفخرون بالجهل، وأنصاف أميين ويتباهون بالأمية، إذ ليس العلم ولا القراءة شرطًا في طرقهم ولا في مشيختهم، ونعرف أنهم لا يملكون من أسلحة هذا الميدان إلا العناد والإصرار على الباطل.. ولو كانوا علماء لما بلغ النزاع بيننا وبينهم إلى هذا الحد، ولرَجَوْنا- إن لم يزَعْهم الدين- أن يزَعَهم العلم)(2)

بل إنه يجاوز الحد في التعالي عليهم عندما يخاطبهم قائلا: (ولا يبلغ بهم الغرور أن يناظروا علماء من الطراز الذي تحتوي عليه جمعية العلماء، وإنما يعتمدون في هذه المناظرة على موجودات آلية يسمونها علماء عوَّدوها أن تنطق باسمهم وتسبح بحمدهم وتحامي عنهم بالباطل.. ونحن لا نعترف بالعلم لهذا الصنف المتهافت على أبواب الزوايا المتعيش من فضلاتها، ويأبى لنا شرف العلم أن يكون هؤلاء المسلوبو الإرادة الفاقدو الاستقلال في العلم نظراءنا في المناظرة، لأننا بلَوْنَاهم في العمل فوجَدناهم جبناء، وبلَوْنَاهُم في العلم فوجَدناهم يحكمون الهوى ولا يحكّمون الدليل، وبلَوْناهم في الكتابة فوجَدْنا أَمْثَلَهم يسمي البدع المنكرة عوائد دينية.. أَمَعَ هؤلاء تكون المناظرة؟ لا، وشرف العلم) (3)

ثم اسقط هذه المناظرة بسبب عدم كفاءة من يناظره، فقال: (فقد تحقق أن هذه المناظرة التي دعوا إليها ساقطة سقوط شرطها الأساسي مِن قِبَلهم وهو النظير) (4)

بل إن الشيخ الإبراهيمي يتعمق إلى أعماق نياتهم حين يذكر الدافع الحقيقي لهم من وراء المناظرة: (ألا إنهم من إِفْكِهم ليتداهون ويختلون بهذه الدعوة إلى المناظرة، لنُجِيبَهم فنعترف لهم بالكفاءة، أو نسكت عنهم فيقولوا عنا: أَحْجَموا وخافوا، أو نُجيبَهم بالحقيقة (كما فعلنا) فيقولوا: إن جمعية العلماء تحتقر العلماء ويتباكون ويشنعون)(5)

وهذا الاستعلاء في التعامل مع المخالف، وعدم قبول الحوار معه، أو الحوار معه باستعلاء هو ما تمارسه السلفية في

1() آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)
2() آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)
3() آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)
4() آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)
5() آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

حوارها مع المخالف، وخصوصا مع الشيعة، فهي تملأ حواراتها ضجيجا وفوضى، لأن هدفها ليس البحث العلمي، وإنما إثارة الفوضى، ونشر الفتنة.

الهجر:

ويريدون بذلك قطع أي صلة مع من يرونه مبتدعا، وقد اعتبروا ذلك من السنن التي تميز السلفيين السنيين على غيرهم، ولهذا نجد الحديث عن هر المبتدع في كل كتبهم الواصفة لعقيدة السلف، ومن ذلك ما ورد في كتاب (قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر) لأبي الطيب محمد صديق خان (المتوفى: 1307هـ) تحت عنوان (فصل من السنة هجر أهل البدع] جاء فيه: (ومن السنة هجران أهل البدع، ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين والسنة، وكل محدثة في الدين بدعة، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم، في أصول الدين وفروعه، كالرافضة والخوارج والجهمية والقدرية والمرجئة والكرامية والمعتزلة فهذه فرق الضلالة وطرائق البدع[1] .

وقد كتب بعض السلفيين المعاصرين رسالة سماها (نصيحة العلماء في وجوب البراءة من أهل الأهواء) شحنها بما ذكره أهل الحديث والسلف من المعاملة القاسية للمبتدع، وذكر أن سبب تأليفه لها هو قيام بعض السلفيين بزيارة بعض العلماء الكبار المبتدعة معزيا له في وفاة والدته، فقال: (أما بعد، فلا يخفى على فضيلتكم أن قضية الولاء والبراء من أعظم قضايا الإيمان وأجلها، وأنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده، ونصوص القرآن الحكيم مشحونة بذكر البراءة من العصاة المخالفين لحكم الله والمعاندين لأمره، ولا ريب أن دعاة البدع والأهواء هم من أعظم العصاة المخالفين، وخطرهم على الإسلام وأهله أعظم من خطر غيرهم، فكانت البراءة منهم أوجب ومعاداتهم ومهاجرتهم أولى، وبعد، فقد نشرت الصحف المحلية (عكاظ) و(الندوة) و(المدينة) خبر ذهابكم إلى بيت المبتدع الضال محمد بن علوي المالكي وتعزيته في وفاة والدته، وهو مما أفرح أهل الأهواء وأحزن أهل السنة، وأثار الفتنة والبلبلة لدى العامة وحديثي العهد بالهداية، إذ عدوا ذلك منكم رجوعاً عن موقفكم من هذا الرجل ومن بدعه وضلالاته، ولا يخفى عليكم أن هذا العلوي من دعاة الشرك والوثنية ومن

---

1) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، أبو الطيب محمد صديق خان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1421هـ، ص144.

أقطاب التصوف والفرق الباطنية وكتبه ومؤلفاته ودروسه شاهدة على ذلك)(1)

مع العلم أن العالم المشار إليه من كبار العلماء في السعودية، وكان مدرسا في الحرم، ومع ذلك لم ينج من سيف بطشهم.

وهم في هذا يرجعون إلى ما ينقلونه عن سلفهم في هجر المبتدع، والمبتدع عندهم هم كل المسلمين كما عرفنا ذلك سابقا.

السب والشتم:

وهو ما يميز التيار السلفي، فهو لا يكتفي بالفتاوى والبيانات التي يصدرها، بل يضم إلى ذلك لغته المملوءة بأنواع البذاءة والسب واللعن والشتم، حتى أن الحسن بن علي السقاف كتب كتابا كاملا في شتائم الألباني التي كان يقذف بها على خصومه، سماه (قاموس شتائم الألباني وألفاظه المنكرة في حق علماء الأمة وفضلائها وغيرهم)، وقد ذكر في مقدمته أن الشيخ المحدث زاهد الكوثري – وهو حنفي ماتريد – قد لاحظ نفس الملاحظة على سلفية زمانه، فقال في تعليقه على كتاب (الاختلاف في اللفظ) لابن قتيبة: (ومما يؤسف له جد الأسف صدور مثل ذلك في هذا العهد وبعد هذا العهد ممن يعد نفسه من المنتمين إلى الحديث مع أن أول ما يجب أن يستفيد حامل الحديث من الحديث هو كرم الطبع ولين الجانب والتلطف بالمسلمين والابتعاد عن هجر القول والعجرفة بعدم الخوض فيما لا يعنيه كأنه عاش مع النبي ﷺ وعاشره وتربى بسيرته في إرشاد الامة، ومن أوغل في الباطل بفظاظة وغلظة وبذاءة فهو من أجهل خلق الله بسنة نبي الهدى ﷺ وسيرته وأبعدهم من صدق الانتماء إليه)(2)

ولهذا نجد هذا التيار للأسف يجتهد في تحريف الأسماء، ليحاول أن يغيرها بتغيير الحقائق، فتراهم يطلقون على الشيعة لقب (المجوس) مع أنه لا يوجد مذهب ولا دين على وجه الأرض أكثر تنزيها وتوحيدا وتقديسا لله من المدرسة الشيعية(3).

1() نصيحة العلماء في وجوب البراءة من أهل الأهواء، سمير بن خليل المالكي، ص5.

2() انظر: تعليق زاهد الكوثري على كتاب (الاختلاف في اللفظ) لابن قتيبة ص (12)، نقلا عن: قاموس شتائم الالباني، حسن بن علي السقاف، ص6.

3() وقد ذكر بعض الباحثين تلك الهستريا التي يقع فيها خصوم الشيعة، والذين يبتدعون كل يوم ألقابا جديدة، لتشفي الحقد الذي يملأ قلوبهم، لا بأس أن ننقل مقدمته هنا كنموذج عن هذا المرض السلفي، قال يحكي مقالة خصوم الشيعة في الشيعة: (إنهم أحفاد السبئي اليهودي..لا، بل إنهم أحفاد بن العلقمي..لا، بل إنهم أحفاد الغادر الخواجة نصير الدين الطوسي..لا، بل إنهم أحفاد العبيديين ..لا، بل إنهم أحفاد القرامطة..لا، بل

وما فعلوه هو ما فعلف سلفهم ابن تيمية، فقد كان يلقب (مؤمن الطاق) بشيطان الطاق، و(ابن المطهر) بابن المنجس، وأحفاده اليوم يطلقون على (حزب الله) لقب (حزب الشيطان)، وعلى (نصر الله) لقب (نصر الشيطان)، فيستبدلون اسم الله من دون استحياء باسم الشيطان، وللأسف فقد سمعت القرضاوي مع كبر سنه، يردد مثل هذا دون حياء.

2 ـ العنف الحسي:

لم يكتف التيار السلفي بممارسة العنف المعنوي بجميع أنواعه على المخالفين، بل ضم إليه العنف الحسي بجمبع أنواعه أيضا، فتاريخهم مملوء بالقتل والتدمير، وسنذكر هنا - باختصار – بعض الأمثلة على ذلك.

وقبل ذلك نتحدث عن تصريحاتهم بحلية دماء من يخالفونهم، فقد صرح ابن عبد الوهاب في رسالة أرسها إلى شريف مكة، مجيبا له عن سؤاله عن سبب قتاله للناس، فأجاب: (أركان الإسلام الخمسة، أولها الشهادتان، ثم الأركان الأربعة، فالأربعة إذا أقر بها، وتركها تهاونا، فنحن وإن قاتلناه على فعلها، فلا نكفره بتركها.. وأيضا: نكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر.. [وأيضا] من عرف أن التوحيد دين الله ورسوله، الذي أظهرناه للناس، وأقر أيضا أن هذه الاعتقادات في الحجر، والشجر، والبشر، الذي هو دين غالب الناس، أنه الشرك بالله، الذي بعث الله رسوله ﷺ ينهى عنه، ويقاتل أهله، ليكون الدين كله لله، ومع ذلك لم يلتفت إلى التوحيد، ولا تعلمه، ولا دخل فيه، ولا ترك الشرك، فهو كافر، نقاتله بكفره؛ لأنه عرف دين الرسول فلم يتبعه، وعرف الشرك فلم يتركه، مع أنه لا يبغض دين الرسول، ولا من دخل فيه، ولا يمدح الشرك، ولا يزينه للناس.. [وأيضا] من عرف ذلك، ولكنه تبين في سب دين

إنهم أحفاد الصفويين..لا، بل إنهم المجوس..لا، بل إنهم شر من في الأرض جميعا..(لا، بل).(لا، بل). بل .. بل .. فبلبل كيف قدر!)

ثم عقب على ذلك بقوله: (نحن إذن أمام هستيريا خطاب فقد كل معقوليته.. معذور في هذا الصياح، لأنه بات يجد نفسه يخرج من حظ عاثر إلى آخر، كلما انفضحت فيه هذه التهمة أو تلك.. ألم يقولوا يوما للناس إن الشيعة لهم أذناب بقر حتى صدق كل عوامهم بذلك مثل البهاليل وكرسوا فيهم هذه القناعة إلى اليوم. حينما قالوا ذلك وصدّقهم عوامهم، هذا يعني أن العقل المهيمن على المخاطب والمتلقي هو العقل الخرافي. كل اتهاماتهم هي من ذاك الطراز. هستيريا خطاب ونوبة طويلة لم يفيقوا منها في زمن كشف التحريف وإبطال الزيف وفضح المستور وفن وأخلاق الحوار. إنها تهم رخيصة لا تنتهي.لأنها لا ترتكز إلا على إرادة التشويه والإساءة والتزييف. وهي تقنية أسرف فيها خصوم الشيعة بصورة تبعث على الغثيان) (انظر: أسطوانة مشروخة، إدريس هاني، نشر في هسبريس يوم 05 - 08 – 2009، على الرابط التالي: (http://www.maghress.com/hespress/14478

الرسول، مع ادعائه أنه عامل به، وتبين في مدح من عبد يوسف، والأشقر، ومن عبد أبا علي، والخضر، من أهل الكويت، وفضلهم على من وحد الله، وترك الشرك، فهذا أعظم من الأول.. [وأيضا] من عرف التوحيد، وأحبه، واتبعه، وعرف الشرك، وتركه، ولكن يكره من دخل في التوحيد، ويحب من بقي على الشرك، فهذا أيضا: كافر.. [وأيضا] من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة أهل التوحيد، واتباع أهل الشرك، وساعين في قتالهم، ويتعذر أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله، ونفسه، فهذا أيضا كافر; فإنهم لو يأمرونه بترك صوم رمضان، ولا يمكنه الصيام إلا بفراقهم، فعل ; ولو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ذلك إلا بفراقهم، فعل، وموافقتهم على الجهاد معهم)(1)

وهكذا صرح ابنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فقال: (لا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا، كغالب من نقاتلهم اليوم، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرمات ; وغير الغالب إنما نقاتله لمناصرته من هذه حاله، ورضاه به، ولتكثير سواد من ذكر، والتأليب معه، فله حينئذ حكمه في قتاله، ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون، لعدم عصمتهم من الخطأ، والإجماع في ذلك ممنوع قطعا، ومن شن الغارة فقط غلط، ولا بدع أن يغلط، فقد غلط من هو خير منه)(2)

وهذان النصان وحدهما كافيان في الرد على الذين يدعون أن الوهابية طائفة مسالمة، وأنها لا تنتهج العنف، مع أن فتاواها تلك، وهي غيض من فيض لم تترك أحدا إلا وأباحت دمه.

وبناء على هذه الفتاوى سار الوهابيون في الأرض يسفكون الدماء، ويخربون كل ما يمرون به من آثار حفظت لأجيال كثيرة.

يقول عثمان بن بشر، وهو من مؤرخي الوهابية المعتبرين يصف هزيمة أهل الرياض سنة 1187 ه: (فَرَّ اهل الرياض، الرجال والنساء والاطفال لا يلوي أحد على أحد هربوا على وجوههم الى البرية في السهال قاصدين الخرج، وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشا ... وتركوها خاوية على عروشها، الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي، وأبواب المنازل لم تغلق، وفي البلد من الاموال ما لا يحصر، فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية

1() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (1/ 102)
2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (1/ 235)

من أهلها الاّ قليلاً فساروا في اثرهم يقتلون ويغنمون)(1)

ويتحدث ابن غنام عن استحلال الوهابية لأموال من يقاتلونهم، فقال: (استولى ابن سعود على جميع ما في الرياض من أموال ونخيل فيئا من الله لأنه لم يوجف عليها خيل ولا ركاب)(2)

وهكذا فعل سنة 1206 و1207 حيث (هجم سعود على القطيف والأحساء، وقتل وأباد نحو ألف وخمسمائة رجل، واقام مجازر رهيبة بحق السكان)(3)

وقد وصف عثمان بن بشر، وهو مؤرخ وهابي، (وقعة الرقيّقة) التي حدثت عام 1210، فقال: (ثور المسلمون بنادقهم دفعة واحدة، فأرجفت الأرض، وأظلمت السماء، وثار عج الدخان في الجو، وأسقطت كثير من الحوامل في الأحساء، ثم نزل سعود في (الرقيقة) المذكورة.وأقام مدة أشهر يقتل من أراد قتله، ويجلي من أراد جلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الاموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا، وضرب عليهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم، وأكثر فيهم سعود القتل ... فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه الى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود، حتى أفناهم الاّ قليلاً، وحاز سعود من الاموال في تلك الغزوة ما لايعد ولا يحصى) ويقول ابن بشر: ان ابن سعود قتل من أهل قرية واحدة هي (الفضول) ثلاثمائة رجل، حتى صارت تلك القرية مضرب الأمثال)(4)

ولم يكتف الوهابيون بموطنهم نجد أو ما يحيط به من أرض الجزيرة، بل قصدوا كربلاء المقدسة غير مراعين لحرمتها، فقد شن سعود بن عبد العزيز صحبة الوهابيين هجوما مباغتاً على كربلاء المقدسة، فأقاموا مجزرة رهيبة فيها، في شهر ذي القعدة من سنة 1216 هـ (المصادف 20 نيسان 1802م)

وقد وصفها المؤرخ الوهابي عثمان ابن بشر في كتابه (عنوان المجد)، فقال: (إن سعود سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة، من جميع حاضر نجد وباديها، والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك، وقصدوا أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين، فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة، وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت،

1() عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ص 120.
2() تاريخ نجد المسمى (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، الحسين بن غنام، المحقق: ناصر الدين الأسد، ص 138.
3() تاريخ نجد، ص 182- 183.
4() عنوان المجد، ص 216.

وهـدموا القبـة الموضـوعة بـزعم من اعتقـد فيهـا على قـبر الحسين، وأخذوا ما في القبة وما حولها، وأخـذوا النصـيبة الـتي وضـعوها على القـبر وكـانت مرصـوفة بـالزمرد واليـاقوت والجـواهر، وأخـذوا جميـع مـا وجـدوا في البلـد من الامـوال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينـة وغير ذلـك ممـا يعجـز عنـه الحصـر، ولم يلبثـوا فيهـا إلا ضـحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الامـوال، وقتـل من أهلهـا قـريب الفي رجـل، ثم ان سـعودا ارتحـل منهـا فجمـع الغنـائم وعزل أخماسـها، وقسـم باقيهـا على المسـلمين غنيمـة للرجـل سهم وللفارس سهمان)(1)

وكان يمكن أن يكون هـذا المصـير هـو نفسـه مصـير مكـة المكرمة لولا أن أهلها استجابوا لرسالته، والتي جاء فيهـا: (أمـا بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه. إنمـا نـدعوكم لدين الله ورسوله (قل يا اهل الكتـاب تعـالوا إلى كلمـة سـواء بيننا وبينكم إن لا نعبد الاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضـنا بعضـاً أربابـاً من دون اللـه، فـان تولـوا فقولـوا: اشـهدوا باننـا مسلمون " فأنتم في أمـان اللـه ثم في أمـان أمـير المسـلمين سعود بن عبد العزيز وأميركم عبد المعين بن مساعد، فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام)(2)

وعندما دخل مكة المكرمـة في اليـوم الثـامن من محـرم 1218هــ خطب في أهلهـا قـائلا: (احمـدوا اللـه الـذي هـداكم للاسـلام وأنقـذكم من الشـرك. أطلب منكم أن تبـايعوني على دين الله ورسوله وتوالوا من والاه وتعادوا من عاده في السراء والضراء والسمع والطاعة)(3)

ثم بادر الوهـابيون لهـدم القبـاب الـتي كـانت على محـل مولـد النـبي ﷺ ومولـد الإمـام علي ع والسـيدة خديجـة ع، فهدموها، وهدموا الكثير من الآثار الإسلامية(4).

ثم قصـدوا العلمـاء والوجهـاء من علمـاء الحـرمين ومن الشريف فطلبوا منه التوقيع على بيان بالاعتراف بالدين الجديـد والتـبرؤ من دينهم السـابق والإفتـاء بكفـر عامـة المسـلمين، فأصـدر علمـاء مكـة المكرمـة هـذا البيـان: (نحن علمـاء مكـة الواضعون خطوطنا في هذا الرقيم: ان هذا الدين الذي قـام بـه الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب رحمـه اللـه، ودعـا اليـه إمـام المسلمين سعود بن عبد العزيز، من توحيـد اللـه ونفي الشـرك الذي ذكره في هذا الكتاب، أنه هو الحق الـذي لا شـك فيـه. ولا

1() عنوان المجد، ص 257 - 258
2() عنوان المجد، ص 261
3() سراة الليل هتف الصباح، عبد العزيز التويجري، ص 49.
4() المرجع السابق، ص 46

ريب وأن ما وقع في مكة والمدينة سابقا ومصر والشام وغيرهما من البلدان، الى الآن، من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب، أنه: الكفر المبيح للدم والمال، والموجب للخلود في النار. ومن لم يدخل في هذا الدين ويعمل به ويوالي أهله ويعادي أعداءه فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر. وواجب على إمام المسلمين، والمسلمين، جهاده وقتاله حتى يتوب الى الله مما هو عليه، ويعمل بهذا الدين)[1]

وهكذا فعل في المدينة المنورة حين دخلها[2].

1() الدرر السنية والأجوبة النجدية، ج1 ص 314
2() الدرر السنية والأجوبة النجدية، ج1 ص 317

النتيجة الأخيرة والخطيرة التي نخلص إليها بعد هذه الجولة في الأسس والأركان التي يقوم عليها بنيان العقل السلفي هي إحلالهم المدنس بدل المقدس، أو في أقل الأحوال خلطهم المدنس بالمقدس، أو توظيفهم المدنس لهدم المقدس.

وهذه حقيقة لا يمكن لأي عاقل يعرف السلفية تاريخا وتراثا وسلوكا أن يفر من الإقرار بها..فكل ما فيهم يدل عليهم.

ويكفي من لم تتح له الفرصة ليطلع على تاريخهم أو تراثهم ليتعرف على هذا أن يسأل نفسه هذا السؤال الفطري البسيط، وهو: هل يمكن لدين الله الذي خلق هذا الكون جميعا بمنتهى الدقة والجمال أن يتحول إلى أكبر أداة للتخريب وسفك الدماء؟

وهل يمكن لرسول الله ﷺ الذي هو رحمة الله للعالمين أن يتحول، وتتحول سنته المطهرة، إلى أكبر وسيلة يستعملها الشيطان لزعزعة الأمن والاستقرار في النفوس والمجتمعات والأمم؟

وهل يمكن لرسالة الله الأخيرة إلى عباده المتمثلة في القرآن الكريم، والتي تحوي كل الشيفرات المطهرة التي ترفع الإنسان إلى الآفاق العليا من الكمال، أن تتحول إلى سكين يقطع الرقاب، ومعول يهدم العمران، وقنبلة نووية تقضي على كل المنجزات البشرية؟

هذه أسئلة طبيعية وفطرية.. ولا يمكننا الفرار منها.. فالدين الوحيد على مستوى العالم الذي تمارس كل أنواع العنف والإرهاب والخرافة والدجل باسمه هو الإسلام.

والطائفة الوحيدة من المسلمين التي تمارس كل تلك الوظائف الشيطانية هي الطائفة السلفية..

ولذلك فإن التفكير المنطقي السليم يقودنا إلى أنها هي الطائفة التي اختارها الشيطان لتحمل مشروعه في هذه الأمة.. ومشروعه في هذه الأمة كما هو مشروعه في غيرها هو رفض السجود لآدم ولكل الأصفياء الذين اختارهم الله ليسجد البشر بعدها ـ عبر سجودهم لسامري اليهود، ولكل سامري في دين من الأديان ـ له بدل السجود لله.

وقد ذكر القرآن الكريم أن هذه النتيجة التي وصل إليها السلفية بسبب تتلمذهم على اليهود وتلاميذ اليهود، هي نفسها النتيجة التي وصلها إليها اليهود، فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا

حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13]

فهذه الآية الكريمة تفسر هذه الظاهرة أو النتيجة بدقة عالية، بل تذكر فوق ذلك سببها، وهو كما عبر القرآن الكريم ﴿ نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، فنقض الميثاق هو السبب في كل ما حصل لهذه الأمة من تحريف وتغيير وتبديل.. وهي السبب في كل ما نزل عليها من لعنات التخلف والتأخر والعنف والظلامية..

وأول تلك المواثيق هو ذلك النهي الشديد عن خلط الإسلام بغيره من الأديان في تلك الوصية المقدسة الخطيرة التي غضب فيها رسول الله ﷺ غضبا شديدا، وما كان لرسول الله ﷺ أن يغضب لو لم يكن الأمر شديدا،، وذلك حينما أتاه عمر بكتاب من كتب اليهود، فقال له ﷺ: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[1]

فهذا الحديث العظيم يخبر أن دين الله أبيض نقي صاف ليس فيه أي دنس أو شبهة تمنع العقل السليم من التسليم له.. لكن هذا الأبيض يمكنه أن يتحول إلى أسود إذا ما اختلط بغيره.. فهو لشدة بياضه وجماله أسرع الأشياء إلى التلوث إذا لم يحافظ عليه.

والمحافظة عليه تكون بالتسليم لأهله من ورثة الكتاب كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، والذين حددهم رسول الله ﷺ بدقة، بل عينهم بأعيانهم وأسمائهم وصفاتهم وكل ما يتعلق بهم.

لكن البغي الذي مارسته الأمم السابقة على الورثة مارسته هذه الأمة، فبغت عليهم، وحسدتهم، وأعرضت عنهم، ثم أحلت بدلهم اليهود وتلاميذ اليهود.

وكانت النتيجة ما نراه من اسوداد الدين بعد بياضه، واختلاطه بعد صفائه، وتدنسه بعد قداسته..

وقد ذكر القرآن الكريم مظاهر ذلك الدنس الذي يصيب الأديان نتيجة عدم تمسكها بالمواثيق، فقال ـ كما في الآية السابقة ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: 13]

فهذه الآية الكريمة تذكر بعض نتائج الدنس، وأولها قساوة القلوب، بسبب إعراضها عن أداء المواثيق التي كلفت بأدائها..

1() مسند الإمام أحمد بن حنبل: 3/387 ح(15195)

ونتج عن تلك القسوة التحريف الذي هو خلط المقدس بالمدنس.. ونتج عنها كذلك الكتمان، ونسيان القيم الإنسانية الرفيعة التي جاء بها الكتاب لتحل بدلها قيم بشرية شيطانية.

انطلاقا من هذا سنحاول في هذا الفصل أن نذكر بعض هذه النتائج الخطيرة، وقد رأينا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاث نتائج كبرى، هي:

1. تعطيل المقدس.
2. كتمان المقدس.
3. تغيير المقدس.

وسنتحدث ـ باختصار ـ عن كل نتيجة من هذه النتائج في المباحث التالية.

أولا ـ تعطيل المقدس.

ولهذا التعطيل مظهران كبيران، ويمكن اعتبارهما مرحلتين كبيرتين استطاع الشيطان من خلالها أن يمرر مشروعه في تحويل الدين من المقدس إلى المدنس.

وهذان المظهران، أو هاتان المرحلتان هما: نزع صلاحية المقدس للتحاكم إليه عند التنازع، وإحلال السلف بدل المقدس، ليصبح الرجوع عند التنازع لهم بدل الرجوع للمقدس نفسه.

وهذا ما تعنيه العبارة السلفية التي تختصر التفكير السلفي، والفكر السلفي (القرآن والسنة بفهم السلف)، أي أنه عند التنازع في فهم القرآن والسنة أو في تحكيم القرآن والسنة أو إلغائهما نرجع إلى السلف ليحددوا لنا بدقة: هل النصوص المقدسة منسوخة أو معطلة، أو أنها نصوص محكمة يمكن العمل بها.. أو يحددوا لنا جهة خاصة تعمل بها دون غيرها، وهي ما يسمونه العام والخاص.. أو يضعوا قيودا للعمل بها، أو ما يسمونه إطلاقا للمقيد، كما رأينا ذلك سابقا عند الحديث عن القراءة الجماعية للقرآن، حيث أنه ومع ورود الحديث في ذلك إلا أن السلفية حكموا ببدعيتها باعتبار السلف لم يقوموا بهذا.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر الأدلة على هذا التعطيل بشقيه أو بمرحلتيه.

1 ـ نزع صلاحية المقدس للتحاكم:

أول أداة استعملها الشيطان ليخترق بها العقل السلفي، ومعه التدين السلفي، هو تعطيل صلاحية اعتبار المقدس مرجعا أعلى يتحاكم إليه عند الخلاف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]

والآية الكريمة تعني الرجوع إلى القـرآن الكـريم لمحاكمـة أي روايـة أو حـديث أو رأي أو اجتهـاد في أي قضـية عقديـة أو سلوكية .. بل كل ما يتعلق بجميع قضايا الحياة، فالقرآن الكريم هو النور الهادي الذي جعله اللـه قبلـة للهدايـة، ومصـدرا للنـور، كما قال تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانًـا لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل: 89)

لكن العقل السلفي لم يهضم هذا، أو لم يستطع أن يتقبلـه بسبب أن آراء كثيرة وردته عن سلفه بأسانيد صـحيحة تتنـاقض مع القـرآن، وهـو يقـدس سـلفه، ويعتـبر من البدعـة أن يتهمـوا بالكذب أو بالخيانة أو بسوء الفهم.. ولهذا فقد كـان مخـيرا بين التضحية بسلفه، أو التضحية بالقرآن الكريم.. وقد اختار لنفسه، أو اختار له شيطانه أن يقدم سلفه على القرآن الكريم.

وهذا الذي ذكرتـه موضـع اتفـاق بينهم جميعـا، وإن لم تكن لهم الجرأة على التصريح المباشر بـه .. بلى .. فقـد كـان منهم من تجرأ على التصريح به، وهـو علم من أعلامهم الكبـار الـذين يرجعون إليه كل حين، ويعتزون بشجاعته في قول الحـق، وهـو أبـو محمـد الحسـن بن علي بن خلـف البربهـاري (المتـوفى: 329هـ)، والذي قال في كتابه(شرح السنة): (إذا رأيت الرجـل جالس مع رجـل من أهـل الأهـواء، فحـذره وعرفـه، فـإن جلس معه بعدما علم فاتقه، فإنه صـاحب هـوى، وإذا سـمعت الرجـل تأتيـه بـالأثر فلا يريـده، ويريـد القـرآن، فلا تشـك أنـه رجـل قـد احتوى على الزندقة، فقم من عنده ودعه)(1)

وقال: (وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، ولا يقبلهـا أو ينكر شيئا من أخبار رسول اللـه ﷺ فاتهمـه على الإسـلام؛ فإنـه رجل رديء القول والمـذهب، وإنمـا طعن على رسـول اللـه ﷺ وأصحابه؛ لأنه إنما عرفنـا اللـه وعرفنـا رسـول اللـه ﷺ وعرفنـا القرآن وعرفنا الخير والشر والدنيا والآخرة بالآثار، فـإن القـرآن إلى السنة أحوج من السنة إلى القرآن)(2)

وهـذا الـذي قالـه البربهـاري هـو الـذي يـؤمن بـه السـلفية جميعا، فالآثار عندهم، متواترة كـانت أو آحـادا هي الحاكمـة في القرآن، والقرآن محتاج إليها، وقاصر من دونها.

ولذلك أجازوا تعطيل أحكام القـرآن بالأحـاديث، كإجـازتهم تعطيل قوله تعـالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَـرَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ إِنْ تَـرَكَ خَيْـرًا الْوَصِـيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ بِـالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقــرة: 180]، والــتي تجــيز الوصــية للوالــدين والأقربين وهم من الورثة، بحديث يرفعونه إلى رسـول اللـه ﷺ

(1) شرح السنة) (ص: 119.
(2) شرح السنة للبربهاري (ص: 79)

هو (إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لـوارث)(1)، وهـو حديث آحاد.

أمـا تخصـيص العمومـات، وتقييـد المطلقـات، فـذلك من الكثرة بحيث لا يمكن عده، ومن ذلك تشريعهم للرجم المتعلق بالثيب لينسخوا به عموم قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِـدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النـور: 2]، فمـع أن الآيـة واضـحة في كون حكمها مرتبطا بجميع الزنـاة من تقييـد بـأي وصـف إلا أنهم وضعوا أحاديث في ذلـك تخص الزنـاة المحصـنين منهـا مـا يروونه عن النبي ﷺ : (والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)(2)

ولهـذا فـإنهم إن وردهم أي حـديث ووجـدوا فيـه مخالفـة صـريحة للقـرآن الكـريم، فـإنهم لا يسـتغربون من ذلـك، ولا يتهمون رواة الحديث، ولا يقولون باستحالة التعارض بين القرآن الكريم والسنة المطهرة.. وإنما يلجأون إلى أنـواع من التوفيـق المتكلف، والذي ينتهي باعتبار الحديث هو الحاكم، أمـا مـا ذكـر في القرآن فهو مجرد إرشاد أو نصح أو كلام عام لا يستفاد منـه أي معنى تنفيذي، وسـنرى الأمثلـة على ذلـك عنـد الحـديث عن تغيير المقدس في هذا الفصل.

ولهذا نرى هذا الفريق يشتد في إنكار النصوص التي تـدعو إلى تحكيم الآثار إلى القـرآن، كقولـه ﷺ: (إن الحـديث سيفشـو عني، فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عـني، ومـا أتـاكم عـني يخالف القرآن فليس عني)(3)

ومثله قوله ﷺ : (ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله)(4)

ومثله قوله ﷺ: (إذا حدثتم عني حديثا تعرفونه ولا تنكرونه، فصدقوا به قلته أو لم أقله فإني أقول ما تعرفونـه ولا تنكرونـه، وإذا حدثتم عني حديثا تنكرونه ولا تعرفونه فكـذبوا بـه، فـإني لا أقول ما تنكرونه، وأقول ما تعرفونه)(5)

ومثله قوله ﷺ: (إني والله لا يمسك الناس علي بشـيء إلا أني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه ولا أحـرم إلا مـا حـرم اللـه في كتابه)(6)

1() رواه أبـو داود (2870)، والترمـذي (2120)، وابن ماجـة (2713)، وقـال الترمـذي: حديث حسن صحيح.

2() رواه مسلم (1690)، وأبو داود (4415)

3() البيهقي في (معرفة السنن والآثار)، (1/ـ 9) وأخرجه ابن المقـرئ في معجمـه، (3/ 239).

4() أخرجه البيهقي في (معرفة السنن والآثار)، (1/ 116)

5() أخرجه الطحـاوي في (شـرح مشـكل الآثـار)، (15/ـ 347)، رقم (6068)، وأخرجـه الدار قطني في سننه، (4/ 208)، رقم (18).

6() أخرجه الشافعي في مسنده، (1/ 129)، رقم (116)، والبيهقي في (معرفة السنن والآثار)، (3/ 360)، رقم (1155)

وبناء على أن هذه الأحاديث تنسف الخطة الشيطانية في تعطيل المقدس، فقد استعمل العقل السلفي كل أدوات الخداع لديه والمتمثلة في المنهج الحديثي الذي يتبناه لرمي هذه الأحاديث، وعدم الاعتداد بها.

وبناء على أن هذه الأحاديث تنسف الخطة الشيطانية في تعطيل المقدس، فقد استعمل العقل السلفي كل أدوات الخداع لديه والمتمثلة في المنهج الحديثي الذي يتبناه لرمي هذه الأحاديث، وعدم الاعتداد بها.

ومنهج السلفية في أمثال هذه الحالات هي الرجوع لسلفهم المقدس، والذين روى عن بعضهم ابن بطة ــ بعد عرض بعض تلك الأحاديث ـ فقال: (قال ابن الساجي: قال أبي رحمه الله: هذا حديث موضوع عن النبي ﷺ قال: وبلغني عن علي بن المديني، أنه قال: ليس لهذا الحديث أصل، والزنادقة وضعت هذا الحديث)(1)

ثم علق على ذلك بقوله: (وصدق ابن الساجي، وابن المديني رحمهما الله، لأن هذا الحديث كتاب الله يخالفه، ويكذب قائله وواضعه، والحديث الصحيح، والسنة الماضية عن رسول الله ﷺ ترده قال الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65]، والذي أمرنا الله عز وجل أن نسمع ونطيع، ولا نضرب لمقالته عليه السلام المقاييس، ولا نلتمس لها المخارج، ولا نعارضها بالكتاب، ولا بغيره، ولكن نتلقاها بالإيمان والتصديق والتسليم إذا صحت بذلك الرواية) (2)

وهكذا قال ابن عبد البر: (وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم فقالوا : نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك، قالوا : فلما عرضناه على كتاب الله عز وجل وجدناه مخالفا لكتاب الله ؛ لأنا لم نجد في كتاب الله ألا نقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسي به والأمر بطاعته ويحذر المخالفة عن أمره جملة على كل حال)(3)

وبناء على هذا، فقد وقفوا موقفا متشددا من كل داعية للرجوع إلى القرآن الكريم للتحاكم إليه عند التنازع في تصحيح الأحاديث، وقد صبوا جام غضبهم على الشيعة في هذا،

1() الإبانة الكبرى لابن بطة (1/ 266)
2() الإبانة الكبرى لابن بطة (1/ 266)
3() جامع بيان العلم وفضله (4/17)

واعتبارهم هم السبب في هذه الفتنة الخبيثة، كما قـال شـيخهم الكبير الجامي عند حديثه عن هذه المسألة: (لقـد حـاول هـؤلاء الزنادقة والروافض إزالة السنن من الوجود والقضاء عليهـا -لـو استطاعوا- أو أن يجعلوا وجودها وجوداً شكلياً فاقداً للقيمــة، إلا أنهم لم ينالوا خيراً، ولم يسـتطيعوا أن ينـالوا من السـنة شـيئاً، فانقلبوا خاسرين ومهزومين، مثلهم كمثل الذي يحاول قلع جبل أحد مثلاً فأخذ يحوم حوله وفي سفحه لينقل من أحجاره حجـراً حجراً ظناً من أنـه يمكنـه بصـنيعه هـذا قلـع الجبـل وإزالتـه من مكانه، أو كالذي يغترف من البحر اغترافاً بيده أو بدلوه محـاولاً بذلك أن ينفد البحر أو ينقص)(1)

مع أن هذا من محاسـن الشـيعة الكـبرى، فهم يـروون عن أئمتهم الدعوة إلى تحكيم كل شـيء سـواء كـان حـديثا نبويـا أو حديثا واردا عنهم إلى القرآن الكريم كما روي عن عبـد اللـه بن أبي يعفور، قال: سألت أبا عبد الله عن اختلاف الحديث يرويــه من نثق به، و منهم من لا نثق به؟ قـال: (إذا ورد عليكم حـديث فوجدتم له شاهدا من كتاب اللـه، أو من قـول رسـول اللـه ﷺ، وإلا فالـذي جـاءكم بـه أولى بـه)، وعن أيـوب بن الحـر قـال: سمعت أبا عبد الله يقول: (كل شـيء مـردود إلى كتـاب اللـه و السنة، فكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)، وعن جعفر بن محمد الصادق قال: (ما لم يوافق من الحديث القـرآن فهـو زخرف)، وعن الإمام علي قال: (ما جاءتك رواية من بر أو فاجر توافق القرآن فخذ بها، ومـا جاءتـك من روايـة من بـر أو فـاجر تخالف القرآن فلا تأخذ بها) (2)

وهـذه الروايـات الـتي جعلت الشـيعة يعتـبرون كـل كتبهم الحديثية محلال للمناقشة والنقـد لأي رجـل بلـغ درجـة الاجتهـاد من غير نكير عليه هي التي أنضجت الفكر الشيعي، وجعلت لــه القوة في اقتحام الكثير من المواقع..

يقول الشيخ المفيد في كتابه [تصـحيح الاعتقـاد]: (وكتـاب الله تعالى مقدَّم على الأحـاديث والروايـات، وإليـه يتقاضـى في صحيح الأخبار وسقيمها، فما قضى به فهو الحقّ دون سواه)(3)

ولهذا نرى الشيعة رغم احـترامهم الشـديد لكتـاب الكـافي ولمؤلّفه محمّـد بن يعقـوب الكليـني وشـهادتهم لـه بتبحّـره في علم الحديث، إلاّ أنهم لم يدّعوا بأنّ ما جمعه كلّه صحيح، بـل إن من علماء الشيعة من طرح أكثر من نصفه، وقال بعدم صحتها، ومع ذلك لم يشاغب عليه مثلما يشـاغب علينـا بسـبب الحـديث

(1) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنـزيه، ص31..
(2) البهبودي/صحيح الكافي/ج 1/ص11.
(3) تصحيح الاعتقاد: 44.

والحديثين.
بل إنّ الشيخ الكليني نفسه لا يقـول بصـحّة كـلّ الأحـاديث التي جمعها في الكتاب، فقد ذكر في كتابه أن أئمة أهـل الـبيت وضعوا قواعد لحـلّ اختلاف الأخباركـالعرض على القـرآن، وأنّـه سيعمل على هذا المنهاج، لكن مع هـذا لم يـدّع توفيقـه لتـدوين الآثار الصحيحة فقط، ولذا اعترف بالتقصير وقال له: (وقد يسّر الله تأليف ما سألت وأرجو أن يكون بحيث توخّيت، فمهما كـان من تقصير فلم تقصر نيتنا في إهداء النصيحة)
إضافة إلى ذلك، فقد عقـد في كتابـه بابـاً بعنـوان (الأخبـار المتعارضـة) أو (الأخبـار المختلفـة) وبيّن فيـه أن الأئمـة أمـروا بالرجوع في هذه الحالة إلى القـرآن أو المشـهور أو غـير ذلـك، وذلك كله دليل على أنّه لا يشهد بصحة كتابه كله.
هـذا عنـد الشـيعة، وقـد ذكرتـه لـنرى الفـرق بين تعامـل السلفية التي تزعم لنفسها أنها تحتكر السـنة وأهـل السـنة مـع أي عـالم قـد ينكـر بعض الأحـاديث بحجـة معارضـتها للقـرآن الكريم.
ومن الأمثلة القريبة على ذلك الموقـف من الشـيخ محمـد الغزالي بسبب كتابـه [السـنة بين أهـل الفقـه وأهـل الحـديث]، والذي دعا فيه إلى محاكمة السنة للقرآن الكريم، فأقيمت عليه قيامـة السـلفيين، وكتبت لأجـل الـرد عليـه عشـرات الكتب، وأقيمت عشـرات النـدوات، وحـذر منـه كمـا حـذر سـلفهم من الجهمية والزنادقة.
ومن أقرب الأمثلة على ذلك ما كتبه الشيخ ربيـع بن هـادي المدخلي في مقدمة كتابه (كشـف موقـف الغـزالي من السـنَّة وأهلهـا ونقـد بعض آرائـه)، قـال: (.. يؤسـفنا أن الشـيخ محمـد الغزالي قد حشر نفسه -في هذه الظـروف العصـيبة الـتي تمـر بها السنَّة وأهلها- في خصوم السنَّة بل صار حامل لـواء الحـرب عليها وأصبحت كتبه وأقواله تمثل مدرسة ينهل منهـا كـل حاقـد على الإسلام والسنَّة النبوية المطهرة، إن الغزالي في كثـير من كتبه وتصريحاته يتململ من السنَّة ولا سـيما أخبـار الآحـاد على حد زعمه تململ السليم، ولقـد ضـمن مؤلفاتـه الأخـيرة حملات شعواء وقذائف خطيرة على كثـير من أحـاديث رسـول اللـه ﷺ الصحيحة، وحملات شديدة على من يريد التمسـك بها، ولا يُنكـر أن لـه كتابات ينصر بها الإسلام ويدافع عنه لكنـه يهـدم مـا بنـاه بهذه الحملات على السنَّة إذ لا إسلام بلا سنَّة فـإذا زلـزل بنيـان السنَّة وطُورِدَ سـكانه بمثـل قـذائف الغـزالي تحـول بنيانهـا إلى

خراب وإلى بلاقع ويباب)(1)

ثم ذكر العلة التي يستند إليها العقل السلفي في قبول المتناقضات، وهي اعتقاده بقصور العقول عن التوفيق بينها، فقال: (ولعلَّ سائلا يسأل عن السبب الذي دفع الغزالي إلى هذه المواقف من السنَّة ومن أهلها، فأعتقد أن مرد ذلك إلى قصور إدراكه لمعانيها فيخيل له هذا القصور في كثير من الأحاديث أنها تعارض القرآن أو تصادم العقل وقد يكون هذا العقل جهميا أو معتزليا أو مستشرقا أوروبيا، ثم لا تسمح له نفسه بمراجعة أقوال أهل الاختصاص من أئمة الحديث وجهابذة النقاد الذين استطاعوا بما آتاهم الله من فقه وعقول وملكات وعلم راسخ أن يوفّقوا بين الأحاديث والآيات أو الأحاديث والأحاديث التي يظهر للمتسرعين أن بينها شيئا من التعارض فتوَّلد له من هذا أو ذاك شعور بالضيق والكراهية لكثير من الأحاديث التي لا تحلو له) (2)

ثم يدقق أكثر في العلة التي جعلت الغزالي يتحول إلى عدو من أعداء السنة، وهي أنه لم يذهب إلى السلف وأهل الحديث، لأنهم هم الحجة عند كل نزاع، يقول في ذلك: (فإذا أراد أن يشفي غيظه لا يذهب إلى كتب الموضوعات وكتب العلل التي بذل فطاحل الحديث وجهابذته جهودا عظيمة في نقدها من جهة الأسانيد والمتون، ثم قاموا بتمييزها في كتب خاصَّة، فيأخذ ما يريده منها ويروي منها ظمأه، بل يذهب إلى أغلى وأجلِّ ما عند المسلمين من تراث سيد المرسلين ﷺ ألا وهو دواوين السنَّة المشرفة وعلى رأسها الصحيحان اللذان تلقتهما الأمة بالقبول والحفاوة والإجلال وقالوا فيهما بحق إنهما أصح الكتب بعد كتاب الله، فيختار منها ما لا يوافق منهجه المرتجل فيوسعه طعنا وتشويها وسخرية، كما يصب على المتمسكين بها وابلا من الشتائم والسخرية والتحقير) (3)

وهكذا نرى علما آخر يتقمص شخصية البربهاري وابن بطة ومتشددي السلف، وهو المحدث السلفي الكبير (مقبل بن هادي الوادعي)، الذي كتب عن الغزالي يقول: (محمد الغزالي لو كان في عصر الإمام أحمد لـحَكَمَ عليه بالزندقة، الإمام أحمد قيل له كما في مقدمة (معرفة علوم الحديث) قيل له : إن أبي قتيلة يسخر من المحدثين، فقام الإمام أحمد ينفض ثيابه ويقول: (هذا زنديق، هذا زنديق، هذا زنديق)، ما ظنك بمن يسخر من حديث رسول الله ﷺ فهذا لو كان في زمان الإمام

1() كشف موقف الغزالي من السنَّة وأهلها ونقد بعض آرائه (ص4-6)
2() كشف موقف الغزالي من السنَّة وأهلها ونقد بعض آرائه (ص4-6)
3() كشف موقف الغزالي من السنَّة وأهلها ونقد بعض آرائه (ص4-6)

أحمد لـحُكِمَ عليه بالزندقة)
ثم ذكر الحملة الشديدة التي شنها السلفية عليه، وتأثيرها فيه، فقال: (وإنني أحمَدُ الله سبحانه وتعالى فقد قام أهل السنَّة بِحَملة عليه وأصبح مسكينا، يدافع عن نفسه ويتقهقه.. ما قلت كذا وكذا .. أنا ما قلت.. وهكذا بعدما كان يضحك على الناس يأتي بالكلمة ويضحك بعدها على طلبة العلم المصريين الأفاضل الذين يتمسكون بالسنَّة، فالحمد لله كُتبٌ قيِّمَة رُدَّت رأيت كتاباً لأخينا في الله سليمان العودة، وآخر أيضا لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وأخبِرت أن الأخ ربيع بن هادي أخرج كتابا في الرد عليه، احترق، المهم احترق محمد الغزالي، ما يهمني أنه ألف كتاب (السنَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث)، كنت وحدي أتصارع معه، كنت وحدي أتصارع معه من أجل ماذا ؟! .. من أجل (هموم داعية)، و(دستور الوحدة الثقافية) فلما أخرج هذا الكتاب قام من هو خير منّي وأقدر على دين الله منّي)(1) (2) اهـ

وهكذا علق عليه الشيخ المحدث الكبير محمد ناصر الدين الألباني، فقد قال في كتابه (**صفة الصلاة**): (لقد كشفت كتابات الغزالي الكثيرة في أيامه الأخيرة -مثل كتابه الذي صدر أخيرا بعنوان (**السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**) - أنه هو نفسه من أولئك الدعاة الذين هم (أنفسهم في حيرة) !، ولقد كنا نلمس منه قبل ذلك من بعض أحاديثه ومناقشاتنا له في بعض المسائل الفقهية، ومن بعض كتاباته في بعض مؤلفاته القديمة ما ينم عن مثل هذه الحبرة، وعن انحرافه عن السنَّة، وتحكيمه لعقله في تصحيح الأحاديث وتضعيفها، فهو في ذلك لا يرجع إلى علم الحديث وقواعده ولا إلى العارفين به والمتخصصين فيه، بل ما أعجبه صحّحه ولو كان ضعيفًا !، وما لم يعجبه منه ضعفه ولو كان صحيحاً متفقاً عليه !، كما تجد ذلك ظاهراً في تعقيبه على مقدمتي التي كنت وضعتها لكتابه (**فقه السيرة**) بين يديّ تخريجي لأحاديثه المطبوع معه (الطبعة الرابعة)، وكان ذلك بطلب منه بواسطة أحد إخواننا الأزهريين فسارعت إلى تخريجه ظنا مني يومئذ أن ذلك كان منه اهتماماً بالسنَّة والسيرة النبوية وحرصا على صيانتها من أن يدخل فيها ما ليس منها، ومع أنه قد أشاد بتخريجي هذا، وصرح بسروره به في التعقيب المشار إليه - وهو تحت عنوان: (**حول أحاديث هذا الكتاب**) - تكلم فيه عن منهجه في قبوله للأحاديث الضعيفة، ورفضه للأحاديث

1() شريط (حطاب ليل)، تسجيلات مجالس الهدى - الجزائر.
2() شريط (حطاب ليل)، تسجيلات مجالس الهدى - الجزائر .

الصحيحة، نظراً منه في المتن فقط، فهو بذلك يُشعر القارئ بأنه مثل هذا التخريج العلمي لا قيمة له مطلقاً عنده، ما دام أنه معرض للنقد النظري، الذي يختلف جداً من شخص إلى آخر، فما يكون مقبولاً عند هذا يكون مرفوضا عند الآخر، والعكس بالعكس، وبذلك يصير الدين هوىً متبعا لا ضابط فيه ولا قواعد له إلا من شاء ما شاء، وهذا ما فعله الغزالي -هداه الله- في كثير من أحاديث كتاب (**سيرته**)، فهو مع كون قسم كبيرٍ من مادة كتابه مراسيل ومعاضيل، وما أسند منه فيه ما هو ضعيف الإسناد لا يصح –كما يتبين ذلك لكل من تأمل في تخريجي إياه-

ومع ذلك فإنه يتبجح تحت العنوان المذكور فيقول : (اجتهدت أن ألـزَمَ المنهج السوي، وأن أعتمد على المصادر المحترمة، وأظنني بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً، واستجمعت من الأخبار ما تطمئن إليه نفس العالم البصير)(1)

وبنفس النبرة السلفية القديمة التي اكتسبها السلفية المحدثون نتيجة إدمانهم على كتب سلفهم المتقدمين نرى الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ يتحدث، فيقول في مقدمة كتاب (**المعيار لعلم الغزالي**): (.. وهذا الكتاب -الذي طلبت الكشف عنه- طار به أهل الفتن، وأعداء السنن، لجريانه مع أهل الأهواء في أهوائهم، وقد ضرم ناره، وأشعل الفتيل في زناده « خضراء الدمن »، وما أدراك ما خضراء الدمن، وسوء منبتها، فنشرت منه وانتقت، فدخلت فتنته إلى بيوت لم تعرف الكتاب ولا كاتبه ؛ لأنه يخدم مصالح معلومة في بث الخلاف، وتفريق العلماء، وانتقاد الدعاة، قلوب أبطأ تطويرها. لكن هذا حريق ضرمت ناره، وحريق الأقلام قد يطفئه سيل المداد من ذوي السداد .. أتى الكاتب، فجنى على نفسه وعلى أمته، فزأر زأرة ليث جرب موتور على شباب الدعوة وعلماء الأمة فسب وجدع، ورش السهام وعنف، فما رعى لعلمائنا حرمة، وطفق يسفه أقوالهم بغرور وتعال، وانطلاق لسان، وجرأة جنان .. ألم تر -أيها الفاضل الودود- كم أقر الكاتب عين الرافضة والعلمانيين حين اجترأ على الفاروق المحدث، فخطأه فيما رواه إذ خالف ما يراه ويهواه، فقال: (إن الخطأ غير مستبعد على راو، ولو كان في جلالة عمر) (2)

هذه مجرد أمثلة عن كبار أعلام السلفية، وموقفهم من علم من أعلام الأمة الكبار، أوردناها حتى أن نبين أن العقل السلفي الحديث هو نفسه العقل السلفي القديم، وأن التحجر والغلظة التي كانت في ابن بطة والبربهاري هي نفسها الغلظة

1() صفة الصلاة، (ص66-68)
2() المعيار لعلم الغزالي) (ص4-6)

التي يكتسي بها كل سلفي.

والأهم من ذلك كله هو تلك الصلابة التي في عقل السلفي، والتي تمنعه من أبسط الأمور، وهو محاكمة موروثاته ومقدساته للمقدس الأكبر القرآن الكريم.

لذلك كله فإن أقوالهم عن تحكيم القرآن الكريم مجرد شعارات زائفة لا قيمة لها، فأهون شيء عندهم هو القرآن.. بل يمكن لأي صعلوك من صعاليك سلفه أن ينسخ ما يشاء من القرآن ويغير ما يشاء، ويتلاعب كما شاء، كما سنرى ذلك في العنوان التالي.

2 ـ إحلال السلف بدل المقدس:

بعد إسقاط السلفية لاعتبار المقدس حكما عند التنازع، وضعوا بدله حكما آخر هو [السلف]، فالسلف عندهم هم القبلة التي يلجأ إليها عند كل خلاف.. وقد عرفنا سابقا مرادهم من السلف.. فلا هم الصحابة السابقون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: 100]

ولا هم أولئك البسطاء المستضعفون الذين شهد الله تعالى على صدقهم، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]

ولا أولئك الذين ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]

وإنما أولئك اليهود، أو الذين تتلمذوا عليهم من الصحابة الصغار، أو من الصحابة الذين أسلموا متأخرين، أو من الطلقاء الذين شغلوا أول حياتهم بحرب رسول الله ﷺ، وشغلوا آخر حياتهم بحرب ورثته وتشويه دينه.

والدليل على ذلك واضح جدا، وهو أنه لو جمعنا جميع أحاديث السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فلن يعدلوا معشار عشر ما حدث به أولئك الذين مزجوا بين الإسلام واليهودية.

والمشكلة الأكبر أن معشار العشر الذي رواه السابقون لا يتعلق إلا بفروع بسيطة من الدين.. أما ما رواه غيرهم من اليهود أو تلاميذهم، فيتعلق بأصول الدين من المعرفة الإلهية والمعرفة بحقائق الوجود الكبرى ونحو ذلك.

والسلفية لا يكتفون بتعظيم سلفهم الأوائل، بل يضمون إليهم كل تلاميذهم من المجسمة والمشبهة والمدنسة والجبرية والخرافيين، فيعتبرون التعرض لهم كالتعرض لرسول الله ﷺ

نفسه..
وقد روى الحاكم عن الإمام أحمد أن أحمد بن الحسن قال له: يا أبا عبد الله ذكروا لابن أبى فتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء، فقام أبو عبد الله، وهو ينفض ثوبه، فقال: (زنديق! زنديق! زنديق!)، ودخل البيت(1).
وقال أحمد بن سنان القطان: (ليس فى الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه) (2)
وعلق الحاكم على هذا بقوله: (وعلى هذا عهدنا فى أسفارنا، وأوطاننا، كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع، لا ينظر إلى الطائفة المنصورة، إلا بعين الحقارة، ويسميها الحشوية) (3)
وبناء على هذا، فإن المقياس الذي يعتمده السلفية عادة في مناظراتهم مع المخالفين هو ذكر أقوال الرجال، فإذا جاء بمخالفهم بحديث حتى لو كان في السنن والصحاح.. فإنهم يوردون له ما قاله ابن تيمية فيه، ونحن نعلم منهج ابن تيمية في الحيل والخداع، ثم يتبعون ذلك بقول الذهبي عن ابن تيمية وهو يذكر علمه بالسنة:(يصدق أن يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث)
وهكذا أصبح ابن تيمية هو لسان رسول الله ﷺ.. أو هو الناطق باسمه.. أو هو الناطق باسم الإسلام.. ولهذا لا عجب أن يضيفوا إلى اسمه دائما لقب شيخ الإسلام من غير أن يعتبروا أن ذلك بدعة كعادتهم.
وقد ذكر الشيخ حسن بن فرحان المالكي، وهو الذي كان حنبليا، وعاش بين الحنابلة، مبالغة السلفية شيخهم، فقال: (ومن أبرز أمثلة الغلو عند الحنابلة غلوهم في الإمام أحمد نفسه، فقد رووا فيه من الآثار والأعاجيب ما يشبه غلو الشيعة في جعفر الصادق رضي الله عنهما ومن ذلك قول الحنابلة في أحمد: (من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر)، ونسبوا ذلك للشافعي ولا يصح، وزعموا أن الإمام أحمد به يعرف المسلم من الزنديق، وأن الخضر أثنى عليه وكذلك النبي موسى عليه السلام، وأن نظرة من أحمد خير من عبادة سنة، وأن الله عز وجل يزوره في قبره كل عام، وأن قبره من ضمن أربعة قبور يدفعون عن بغداد جميع البلايا، وأن التبرك بقبر أحمد مشروع، وأنهم كانوا يضعون قلم أحمد في النخلة التي لا تحمل فتحمل

1() معرفة علوم الحديث ص 4..
2() معرفة علوم الحديث ص 4..
3() معرفة علوم الحديث ص 4..

من بركته، وأنه غضب على منكر ونكير لما سأله في القبر وقال لهما: لمثلي يقال: من ربك؟ فاعتذرا لـه!، وأن الجن نعت أحمد قبل موته بأربعين صباحاً، وكأنها تعلم الغيب!، وأنه رؤي في المنام يبايع الله عز وجل، وأن الله يباهي به الملائكة، وأن أحد الحنابلة سأل في المنام عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فأجابه المسئول: بأنهما قد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، وأن أحد الحنابلة رأى الله في المنام فقال له الله: من خالف أحمد بن حنبل عذب، وأن الله أمر أهل السموات وجميع الشهداء أن يحضروا جنازة أحمد، وأن أهل السموات من السماء السابعة إلى السماء الدنيا اشتغلوا بعقد الألوية لاستقبال أحمد بن حنبل، وأن زبيدة (صاحبة العين) رآها أحدهم في الجنة وسألها عن أحمد فأخبرته أنه فارقها وهو يطير في درة بيضاء يريد زيارة الله عز وجل، وأن من كانت به ضائقة وزار قبر أحمد يوم الأربعاء ودعا رزقه الله السعة، وأن كل من دفن في المقبرة التي دفن فيها أحمد بن حنبل مغفور له ببركة أحمد بن حنبل، وأن الله ينظر سبعين ألف نظرة في تربة أحمد بن حنبل ويغفر لمن يزوره، بل بالغ بعضهم وزعم أن الله نفسه يزور أحمد بن حنبل في قبره كل عام كما تقدم)(1)

وقد نتج عن هذه المبالغات الكثيرة في السلف ورجال السلف ارتفاع الثقة في القرآن والسنة لاعتمادهما على السلف.. فما لم يعرفه السلف ليس حكما قرآنيا، ولا حكما نبويا.

ولهذا نجدهم عند ذكرهم للأقوال في المسألة يذكرون رسول الله ﷺ مع السلف، وكأنه واحد من القائلين، ومن الأمثلة على ذلك قول البربهاري: (التكبير على الجنائز أربع، وهو قول مالك بن أنس وسفيان الثوري والحسن بن صالح وأحمد بن حنبل والفقهاء وهكذا قال رسول الله ﷺ!)(2)

وبناء على هذا الغلو في السلف أعطوهم الحق في التحكم في كل شيء ابتداء من القرآن الكريم.. والذي اعتبروا فهمه مشروطا بفهم السلف.

وسأضرب هنا نماذج عن تعطيل السلف لأمهات القيم القرآنية بسبب اجتهاداتهم في فهمه، والتي اعتبرها السلفية اجتهادات معصومة.

فمن تلك القيم قيمة العفو والمصافحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:109]، فقد قال أسلاف السلفية بأن

1() قراءة في كتب العقائد المذهب الحنبلي نموذجاً (184)
2() شرح السنة، ص86.

الآية منسوخة أي معطلة التنفيذ، قال النيسابوري معبرا عنهم: (نسخ ما فيها من عفو وصفح بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة:29]، والسبب في ذلك أنه أمر المسلمون بهذا في بداية الإسلام عندما كانوا مستضعفين بالعفو والصفح.. أما عندما قووا فلم يبق هناك مجال للعفو أو الصفح.

يقول الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلى (المتوفى: 1033هـ)، وهو من مشايخ السلفية الكبار معللا ذلك: (أصل العفو الترك والمحو والصفح الإعراض والتجاوز نسخ بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة:29]، وأمر الله القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير، قال المحققون: إن مثل هذا لا يسمى منسوخا، لأن الله جعل العفو والصفح مؤقتا بغاية، وهو إتيان أمره بالقتال، ولو كان غير مؤقت بغاية لجاز أن يكون منسوخا)(1)

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة:139]، فقد اعتبروها أيضا منسوخة، نسختها آية السيف(2).. فما حاجة المسلمين إلى محاجة خصومهم ومجادلتهم وحوارهم بعد أن أمدهم الله بقوة السيف؟ فكفى بالسيف شافيا، وكفى بالسيف محاورا.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ وقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ [البقرة: 190]، فهي مثل أخواتها منسوخة آية السيف، وقد قال النيسابوري فيها: (قوله ﴿ وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾، هذا كان في الابتداء، عندما كان الإسلام ضعيفا)(3)

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:256]، فهي مثل سابقاتها.. نسختها آية السيف(4)..

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ فإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:20]، فهي مثل سابقاتها منسوخة آية السيف(5).. فلا منطق أفضل من السيف.

1() قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 54)
2() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص44-45.
3() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 65-66.
4() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 96 -97..
5() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 102 -103.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ أولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَـا فِي قُلُـوبِهِمْ فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُـل لَّهُمْ فِي أَنفُسِـهِمْ قَـوْلاً بَلِيغًـا ﴾ [النسـاء:63]، فقـد ذكـروا أن هـذا (كـان في بـدء الإسلام، ثم صار الوعظ والإعراض منسوخاً بآية السيف)(1)

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْـفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين ﴾ [المائدة:13]، فقد ذكروا أن سـلفهم ذكر أنها (نزلت في اليهود، ثم نسخ العفو والصفح بآية السـيف)(2)

ومثل ذلك قـولهم في قولـه تعـالى: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُـولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْـدُونَ وَمَـا تَكْتُمُـون ﴾ [المائـدة:99]، فهي مثل سابقاتها منسوخة آية السيف(3).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى في شـأن رقـة النصـارى مقارنة باليهود: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُـواْ الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَانًـا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْـتَكْبِرُون ﴾ [المائدة:82]، فقد ذكـروا عن سـلفهم أن هـذا ليس عامـا بكـل النصارى، بل خاص بالنجاشي ووفده الذين أسـلموا لمـا قـدموا على النبي ﷺ وهم اثنان وثلاثون أو أربعون أو سبعون أو ثمانون رجلا، وليس المراد كل النصارى لأنهم في عداوتهم كاليهود(4).

ومثل ذلـك قـولهم في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِن جَنَحُـواْ لِلسَّـلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّـهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيم ﴾ [الأنفـال: 61]، فقد نص سلفهم على أنها منسوخة بآية السـيف (5).. فمـا حاجة المسلمين للسلام، وقد أعطاهم الله القوة الـتي يقهـرون بها أعداءهم.

ومثل ذلك قـولهم في قولـه تعـالى: ﴿ ادْعُ إِلِى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَـلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِين ﴾ [النحـل: 125]، فقد نصوا على أنها منسوخة نسختها آية السيف(6).. فما حاجة المسلمين للحكمة والموعظة وقد من اللـه عليهم بنعمـة القوة والعزة والتسلط.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ السَّـيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَـا يَصِـفُون ﴾ [المؤمنـون:96]، فقـد نصـوا على أنها نسختها آية السيف(7).. وذلك واضح لكل عاقـل.. فمن

---

(1) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 135.
(2) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري، ص 150.
(3) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري، ص 152..
(4) قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 100)
(5) قلائد المرجان، ص 176-177.
(6) قلائد المرجان، ص 210..
(7) قلائد المرجان، ص 235..

أعطاه الله القوة التي يقهر بها أعداءه لا يحتاج إلى أن يدفع بالتي هي أحسن.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل [يونس:108]، فقد نصوا على أن معناها نسخ لا لفظها بآية السيف(1).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِين [القصص:55]، فهي الأخرى نسخت بآية السيف(2).. وهو واضح لمن تأمله.. أليس الإعراض نوعا من الضعف.. والمسلم قوي عزيز لا يحتاج أن يذل نفسه.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [الأحزاب:45]، فهي مثل سابقاتها منسوخة بآية السيف(3).. وهي واضحة لا تحتاج إلى شرح يبين نسخها.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم [فصلت:34]، فقد نص سلفهم على أنها منسوخة بآية السيف(4).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَاب وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير [الشورى:15]، فقد نصوا على أنها منسوخة بآية السيف (5).

وهكذا استطاعت آية واحدة أساء سلفهم فهمها نسخوا بها كل قيم السماحة والرحمة التي جاء القرآن الكريم للدعوة إليها، ولهذا يذكرون في فضل آية السيف قول الحسن بن فضل: (نسخت هذه الآية كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء..)، وقال ابن حزم في كتابه الناسخ والمنسوخ: (في القرآن مائة وأربع عشرة آية في ثمان وأربعين سورة نسخت الكل بقوله: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم..)(6)

هذا مجرد مثال عن القيم التي نسخها السلف واستبدلوها

1() قلائد المرجان، ص 252..
2() المصدر السابق ص 253.
3() المصدر السابق ص 258.
4() المصدر السابق ص 268.
5() المصدر السابق ص 270.
6() الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: 12)

بالقيم الشيطانية، وهكذا نجد استبدالهم لعقيدة التنزيه بعقيدة التجسيم، وعقيدة العصمة بعقيدة التدنيس، ولكل قيمة نبيلة بالقيم الشيطانية التي ورثوها من اليهود أو تلاميذ اليهود.

ثانيا ـ كتمان المقدس.

من تجليات سيطرة المدنس على المقدس في المدرسة السلفية ذلك الكتمان المتعمد، أو الإخفاء المتعمد للكثير من النصوص المقدسة التي يخافون إن ظهرت أو فشت أو اطلع عليها عامة الناس أن ينهار كل ذلك البنيان الذي بناه لهم سلفهم، فلهذا تجدهم إذا ما ذكرت يعتبرون مجرد ذكرها بدعة مع كونها نصوصا مقدسة صحيحة يعترفون بصحتها، ويتواصون بكتمانها.

وهي خصلة يهودية أخرى تضم إلى الخصال التي اكتسبوها من أساتذتهم الأوائل، والتي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: 159]، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]

وهم ينطلقون في ذكرية لسنية هذه الخصلة اليهودية من حديث لأبي هريرة عن نفسه يقول فيه: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)(1)

وفي حديث آخر عن يزيد بن الأصم، قال: (قيل لأبي هريرة : أكثرت أكثرت، قال : (فلو حدثتكم بكل ما سمعت من النبي ﷺ لرميتموني بالقشع(2)، ولما ناظرتموني)(3)

والعجيب أن الذين يذكرون هذا عن أبي هريرة هم أنفسهم الذين يذكرون أن من فضلهم وجهادهم، وأنه لولاهم لضاع الدين.. فكيف ينسجم هذا مع ضياع وعاء كامل من أوعية الدين.. أم أن في أحاديث رسول الله ﷺ ما يستحق ما يروى، ومنها ما يستحق أن يهمل؟

والعجب الآخر أنه ـ ومع كون أبي هريرة ــ لم يذكر ذلك الوعاء الذي كتمه إلا أنهم استطاعوا أن يدخلوا ذاكرته، ويطلعوا عليه، ويخبروا أن ما أخفاه كان من أحاديث الفتن والتي تتعرض لبعض الأمراءالذين عايشهم أبو هريرة وخاف على نفسه من بطشهم وظلمهم، ورأى أنه بإخفائه هذه الأحاديث لا ينتقص من

---

(1) رواه البخاري (رقم/120)
(2) القشع : ما يقلع عن وجه الأرض من المدر والحجر.
(3) رواه أحمد في المسند (16/563) وقال المحققون : إسناده صحيح.

الـدين شـيئا، فظلم الظـالم مكشـوف معـروف ولا يحتـاج إلى حديث مرفوع يبينه .

وقد نص على هذا القرطبي بقولـه: (قـال علماؤنـا : وهـذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيـه الفتنـة أو القتـل إنما هو ممـا يتعلـق بـأمر الفتن، والنص على أعيـان المرتـدين، والمنافقين، ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى، والله تعالى أعلم)(1)

وقـد روى الـذهبي عن مكحـول قولـه: (كـان أبـو هريـرة يقول : رب كيس عند أبي هريرة لم يفتحـه – يعـني : من العلم -)، ثم علــق عليــه بقولــه: (هــذا دال على جــواز كتمــان بعض الأحـاديث الـتي تحـرك فتنـة في الأصـول أو الفـروع، أو المـدح والذم، أما حديث يتعلـق بحـل أو حـرام فلا يحـل كتمانـه بوجـه، فإنه من البينات والهدى .. وكذا لو بث أبـو هريـرة ذلـك الوعـاء لأوذي، بل لقتل، ولكن العالم قـد يؤديـه اجتهـاده إلى أن ينشـر الحديث الفلاني إحياء للسنة، فله مـا نـوى، ولـه أجـر وإن غلـط في اجتهاده)(2)

وقال ابن حجر: (حمل العلمـاء الوعـاء الـذي لم يبثـه على الأحــاديث الــتي فيهــا تبــيين أســامي أمــراء الســوء وأحــوالهم وزمنهم، وقد كـان أبـو هريـرة يكـني عن بعضـهم ولا يصـرح بـه خوفا على نفسه منهم، كقولـه : أعـوذ باللـه من رأس السـتين، وإمارة الصبيان.يشير إلى خلافـة يزيـد بن معاويـة ؛ لأنهـا كـانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعـاء أبي هريـرة فمـات قبلها بسنة)(3)

وقال طاهر الجزائري: (أراد بالوعـاء الأول الأحـاديث الـتي لم يــر ضــررا في بثهــا فبثهــا، وأراد بالوعــاء الثــاني الأحــاديث المتعلقة ببيان أمراء الجور وذمهم، فقد روي عنه أنه قـال : لـو شئت أن أسـميهم بأسـمائهم.وكـان لا يصـرح بـذلك خوفـا على نفسه منهم)(4)

وكـل هـذه المـبررات تـدخل في بـاب (رب عـذر أقبح من ذنب)، فكيــف يخــبر رســول اللــه ﷺ خــبرا، من دون أن يطلب كتمانه، ثم يكتم، ثم يعتذر لذلك.

والأخطـر من ذلـك كلـه هـو تـوهينهم ذكـر رسـول اللـه ﷺ لأسماء المنافقين والمحرفين والمغيرين للدين .. لأن الأمــر في ذلك الحين لم يكن بسيطا، فهو لا يتعلـق فقـط بـأمراء أو وزراء

1() الجامع لأحكام القرآن (2/186)
2() سير أعلام النبلاء (2/597)
3() فتح الباري (1/216)
4() توجيه النظر (1/63-64).

أو قادة، بل يتعلق بمسار الدين نفسه ووجهته.. ففي ذلك الوقت بدأ سلف السلف، وفي ذلك الوقت بدأ الفهم الجديد للدين الذي تلقته الأمة بعد ذلك وسارت عليه.. فكيف نهون من شأنه.

ولكن حرص السلفية على سلفهم جعلهم يكتمون كل شيء يتعلق بتحذيرات رسول الله ﷺ مما يحصل في ذلك الزمن من مظالم، حتى أنهم وضعوا قاعدة في ذلك تحدوا بها النبوة نفسها، وهي قاعدة [الإمساك عما شجر بين الصحابة]، والتي وضعوها ضمن عقائد أهل السنة، مع أن رسول الله ﷺ هو أول من تحدث ونبه إلى ما سيحصل في عصر الصحابة من فتن، بل سمى كل شيء باسمه، وكان الأجدر بأهل الحديث أن يأخذوا ذلك بعين الاعتبار عند روايتهم للحديث، لكنهم صموا عن ذلك، وتصوروا أن رسول الله ﷺ يهجر، أو يتكلم كلاما لا معنى له.

ولهذا فقد نسخوا كل ما ذكره رسول الله ﷺ وحذر منه بأقوال سلفهم الذين كانوا جميعا أعوانا وسدنة ودعاة للملك العضوض، ولو لم يكونوا كذلك لما وضعهم السلفية في خانة الثقاة عندهم.. فمن شروط الثقة عند المحدثين أن يوالي السلطة ولا يعارضها.. لأن المعارض إما خارجي أو شيعي وكلاهما مبتدع.

وهم ينقلون في هذا إمامهم شهاب بن خراش قوله: (أدركت من صدرة هذه الأمة وهم يقولون: اذكروا في المجلس أصحاب رسول الله ﷺ ما تأتلف عليه القلوب، ولا تذكروا الذي شجر بينهم فتحرشوا عليهم الناس)(1)

وينقلون عن إبراهيم بن آزر الفقيه قوله: (حضرت أحمد بن حنبل، وسأله رجل عما جرى بين علي ومعلوية؟ فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال اقرأ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134])(2)، وقال: (هذه دماء طهر الله منها أيدينا فلنكف عنها ألسنتنا)(3)

وينقلون عن أبي زرعة الرازي أنه جاءة رجل فقال: إني أبغض معاوية، فقال له: ولما؟ قال: لأنه قاتل عليا بغير حق، فقال له الإمام: (رب معاوية رب رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فما دخولك بينهما)(4)

1() سير أعلام النبلاء (8/285)

2() مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، ص(126)

3() آداب الشافعي ومناقبه (314)

4() تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكرالفتح (3/93)

وهــذه مقولــة خطــيرة جــدا، فهي بالإضــافة لمصــادمتها للنصوص تصادم كل حقائق الوجود، فإن كان رب معاوية رحيما .. يعــني أنــه ســيرحمه بعــد كــل جرائمــه ــ كمــا ورد ذلــك في الأحاديث الصحيحة ـ فما معنى العمل؟

ولهــذا نشــأ الإرجــاء حرصــا على الصــحابة .. وخاصــة من تلوثت دماؤهم بالآلاف بل بعشـرات الآلاف.. ونشـأ معـه القـول بعدم عصمة الأنبياء، وتجويز أن يكونـوا مجـرمين وقتلـة حـتى لا يشوه الصـحابة، كمـا ذكرنـا ذلـك بتفصـيل في كتـاب [السـلفية والنبوة المدنسة]

بــل إن الســلفية لم يكتفــوا بهــذا، فراحــوا يعتــبرون حب الصحابة والبحث عن مبررات لكـل مـا وقـع منهم أو بينهم ركنـا جديدا من أركان العقيدة نسي القرآن أن يذكره، ونسي رسـول الله ﷺ أن يبينه، يقول الطحاوي ـ عند عرضه لعقائد أهل السنة ـ : (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتــبرأ من أحــد منهم، ونبغض من يبغضــهم، وبغــير الحــق يــذكرهم، ولا نــذكرهم إلا بخــير، وحبهم دين وإيمــان وإحســان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.. ومن أحسـن القـول في أصـحاب رســول اللــه ﷺ وأزواجــه المطهــرات من كــل دنس وذرياتــه المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق)(1)

وقال ابن قدامة: (ومن السنة قول أصحاب رسول الله ﷺ وذكر محاسـنهم، والـترحم عليهم، والاسـتغفار لهم، والكف عن ذكر مســاوئهم وما شــجر بينهم، واعتقــاد فضــلهم، ومعرفة سابقتهم)(2)

وقال ابن تيمية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة سـلامة قلــوبهم، وألســنتهم لأصــحاب محمد ﷺ.. ويقبلــون ما جــاء به الكتاب والسنة أو الإجمـاع من فضـائلهم ومـراتبهم.. ويتـبرؤون من طريقــة الــروافض الــذين يبغضــون الصــحابة ويســبونهم وطريقـة النواصـب الـذين يـؤذون أهـل الـبيت بقـول أو فعـل ويمسـكون عمـا شـجر بين الصـحابة ويقولـون إن هـذه الآثـار المروية في مساوئهم، منها ما هو كذب، ومنها مـا قـد زيـد فيـه ونقص، وغير عن وجهه والصحيح منـه: هم فيـه معـذورون: إمـا مجتهدون مصيبون، وإما مجتهـدون مخطئـون. وهم مـع ذلـك لا يعتقـدون أن كـل واحـد من الصـحابة معصـوم من كبـائر الإثم وصــغائره، بــل يجــوز عليهم الــذنوب في الجملــة ولهم من السوابق والفضائل ما يـوجب مغفـرة مـا يصـدر منهم إن صـدر حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعـدهم؛ لأن لهم

1() شرح العقيدة الطحاوية، ص (493)

2() لمعة الاعتقاد، ص (29).

من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم)[1]

بل إن السلفية أثناء كتمانهم لما حصل في تلك الفترة من مآس وجرائم ظل أثرها مستمرا في كل العصور، وسنت سننا خطيرة في الدين، يؤولون كل ما ورد في النصوص المقدسة مما يمكن أن يبين لنا وجه الحق لنسير على الصراط المستقيم.

ومن الأمثلة الخطيرة على هذه الظاهرة ـ ظاهرة الجرأة على تكذيب رسول الله ﷺ ـ ذلك الحديث الذي يروونه كثيرا، ويوردونه في محال مخصوصة للانتصار لبعض الصحابة أو الطلقاء على حساب مصداقية رسول الله ﷺ.

وذلك الحديث هو ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة.أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة)[2]

وهذا الحديث الخطير يشوه رسول الله ﷺ تشويها عظيما، فهو يرسمه بصورة الظالم الذي يسارع إلى سب الناس وجلدهم والدعاء عليهم من غير استحقاق منهم لذلك، ثم يعتذر لذلك بأن يدعو لمن فعل بهم ذلك أن يتحول ما فعله بهم من أنواع الإهانات كفارة ورحمة.

وهذا يتنافى تماما مع تلك الصورة الجميلة التي صور القرآن الكريم بها رسول الله ﷺ، وصورته بها الأحاديث الكثيرة.

والغرض من كل هذا التشويه هو تحويل تلك الدعوات التي دعي بها على معاوية ومن هو من صنوه إلى رحمة وكفارة وقربة.

يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) عند ترجمته لمعاوية بن أبي سفيان: (وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه.. أما في دنياه: فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير، وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا، ويقول : والله ما أشبع وإنما أعيا، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك.. وأما في الآخرة: فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة.أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم

1() رواه البخاري (3651)، ومسلم (253) (212).

2() مسلم (4/2008، رقم 2601) واللفظ له، وأخرجه أحمد (2/493، رقم 10408)

القيامة)[1]

وقد أيده في قوله هذا النووي فقال: (وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقا للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة يصير دعاء له)[2]

وهكذا أصبح المدنس يعقب على المقدس، ويصحح له مواقفه، بل يصحح له دعواته ولعناته، ولست أدري هل هم يتحدثون عن نبي لا ينطق عن الهوى، أم يتحدثون عن أي صنم من الأصنام التي اتخذوها من دون الله.

ثالثا ـ تغيير المقدس.

من تجليات سيطرة المدنس على المقدس في التراث السلفي تلك التغييرات الكثيرة التي أحدثوها في العقيدة والشريعة سواء كانت من باب الإضافة المجردة لما لم يذكر من العقائد أو الأحكام، أو من كان من باب تبديل أحكام بأحكام.

وقد ذكرنا الأمثلة الكثيرة على ذلك فيما يرتبط بالجوانب العقدية في كتابي [السلفية والوثنية المقدسة] و[السلفية والنبوة المدنسة]، حيث ذكرنا تلك العقائد السلفية الكثيرة في الله وفي النبوة والتي تخالف تماما ما ورد في القرآن الكريم.. بل تخالف ما يقوله العقل والفطرة، والتي انتهت بتجسيم الله، وتدنيس الأنبياء.

أما في الأحكام، فنجد الكثير من الأحكام التي تتناقض مع القرآن الكريم، والصحيح من السنة المطهرة.. وأخطرها ما يعتمد السلفية عليه لتبرير جرائم العنف التي مارسوها عبر التاريخ، ولا زالوا يمارسونها وهو حكم الردة..

فمع كون الأحاديث التي وردت في قتل المرتد كلها وردت عن طريق الآحاد، وهي تنافي كل ما ورد في القرآن الكريم من عدم قتل المرتد، ومن الحرية الدينية، وهي آيات كثيرة جدا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)﴾ [آل عمران: 90-91]

فالآية واضحة هنا بأن عقوبة المرتد متعلقة بالآخرة، وليس لها علاقة بالدنيا، ولو كان هناك حد لذكره كما ذكر حد الزنا والسرقة، وهما أدنى بكثير من حد الردة، فالجلد والقطع أقل

---

(1) البداية والنهاية: 8/ 128.

(2) المنهاج: 16/156.

من القتل.

ومن الآيات الكريمة الدالة على أن حد الـردة حـد مضـاف في الشريعة لينسخ سـماحتها ورحمتهـا قولـه تعـالى : ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَــهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُــؤْمِنِينَ أَعِــزَّةٍ عَلَى الْكَــافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَـةَ لَائِمٍ ذَلِـكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيــهِ مَنْ يَشَــاءُ وَاللَّهُ وَاسِــعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائــدة: 54]، والآيــة واضـحة، وليس لهـا علاقـة بـأي عقوبـة، بـل هي مجـرد تهديـد للمرتدين باستغناء الله عنهم واستبدالهم بغيرهم.

وهكذا قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آَمَنُـوا ثُمَّ كَفَــرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْــرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِــرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْــدِيَهُمْ سَــبِيلًا﴾ [النســاء: 137]، فالآيــة الكريمــة تعطي الكثــير من الفرص للمرتد، ولو أنـه كـان هنـاك حـد ردة، لمـا تمكن من أن يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر ويزداد كفرا.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 217]، فقد رتبت الآية الكريمة عقوبـتين على الـردة إحـداهما إحبـاط الأعمـال والثانيـة عـذاب النار.. وكلاهما لا علاقة له بحد الردة.

وهكـذا قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِي اللَّهُ الشَّـاكِرِينَ﴾ [آل عمـران: 144]، فـإن الآيـة الكريمـة لم تـرتب أي عقوبـة على الردة، بل بينت فقط أن هذا المرتد لن يضر الله شيئا.. بل يضر نفسه فقط بردته.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا إِنْ تُطِيعُـوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَـرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ فَتَنْقَلِبُـوا خَاسِـرِينَ﴾ [آل عمـران: 149]، واكتفت الآية الكريمة بذكر الخسـارة من دون أن تـرتب على ذلك أي حد.

وهكـذا قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَـدُّوا عَلَى أَدْبَـارِهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُـدَى الشَّـيْطَانُ سَـوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَـا نَـزَّلَ اللَّهُ سَـنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْـرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْـرَارَهُمْ (26) فَكَيْـفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَـةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمُ اتَّبَعُـوا مَـا أَسْـخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 28]

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ آَمِنُـوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُـرُوا آَخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُـدَى

اللّٰهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) [آل عمران: 72-73]، فهي لم ترتب أي عقوبة على المرتد.

وهكذا لو مررنا على القرآن الكريم جميعا، فإننا لن نجد أي عقوبة للمرتد، بالإضافة إلى ما ورد في أحاديث كثيرة تدل على أن رسول الله ﷺ لم يقتل أحدا لأجل ارتداده.

وقد جمعها الشيخ حسن بن فرحان المالكي في كتابه المهم (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية).. وقسمها إلى أربع مجموعات[1] :

الأولى: أحاديث عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل، وهي كثيرة، وتؤكد على حرية الاعتقاد حتى للوثنيين، وأن النبي ﷺ لا يطلب إلا النصرة لإبلاغ الرسالة وحمايته، وهو طلب لمنع الاضطهاد الديني وإتاحة حرية الدعوة، ولو تحققت هذه الحرية في مكة لما طلب أحداً لحمايته من الاضطهاد والمنع من تبليغ ما أمره الله بتبليغه.

الثانية: أحاديث بيعة العقبة مع الأنصار.. وفيها البيعة على أمور من أساسيات الدين، أضاعها المسلمون فيما بعد، ومن أهمها : أن نقول الحق أينما كنا لا نخشى في الله لومة لائم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من ارتد عن هذه البيعة ونكث فأمره إلى الله، وليس هناك أمر بقتله ولا إكراهه على الدين..

الثالثة: مجموعة أحاديث وثيقة المدينة.. وهي وثيقة حقوقية بامتياز، وليست وثيقة دعوة إلى الإسلام، ولا إكراه عليه، بل فيها أن المسلمين ومن تحالف معهم كاليهود أمة واحدة دون الناس.

الرابعة : وهي أحاديث مفردة تنسجم مع القرآن الكريم في عدم الإكراه على الدين.. منها حديث الرجل الذي طلب الردة وقوله لرسول الله ﷺ: (أقلني بيعتي) بعد أن بايعه على الإسلام، وهو في الصحيحين.. ومنها حديث النصراني المرتد .. وهو في الصحيحين.. ومنها حديث حصين الأنصاري وابنيه، ولا إكراه في الدين.. ومنها حديث ردة عبيد الله بن جحش وردته بالحبشة.. ومنها حديث أبي رافع مولى النبي ﷺ في بعث علي لليمن، وهو من النوادر المدفونة.

لكن كل هذه الجحافل من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية استطاع السلفية، وعبر راو واحد مختلف فيه، وهو عكرمة أن ينسخوها جميعا، ويضعوا بدلها هذا القانون القاسي الخطير على لسان رسول الله ﷺ، والذي صاروا يحفظونه أكثر

[1] حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص25، فما بعدها.

مما يحفظون القرآن، وهو (من بدل دينه فاقتلوه).. فهذا الحديث انفرد به عكرمة مولى ابن عباس وقد كان من الخوارج.. وهو مرسل، فعكرمة ذكر هذا الحديث في قصة إحراق الإمام علي لأناس من المرتدين، ولم تصح حادثة الإحراق هذه، وإنما ذكرها عكرمة وحده، وجميع أسانيدها ضعيفة.

هذا مجرد مثال لما يمكنه أن تفعله أحاديث الآحاد بحياة الناس.. وهكذا لو تأملنا كل جور في الشريعة أو قسوة أو ظلم أو عنصرية، فإننا سنجدها قد تسربت إلى الأمة عن طريق هذا النوع من الأحاديث.

وقد كانت تلك الأحاديث وراء ذلك الاستبداد والقمع للحريات الذي مارسه الملوك الذين يعظمهم السلفية قديما، والملوك الذين لا يزوالون يعظمونها.

ومن الأمثلة على ذلك والذي لقي استحسانا كبيرا من لدن جميع أعلام السلفية ما فعله خالد بن عبد الله القسري الذي كان واليا علي العراق لهشام بن عبدالملك، والذي سن سنة الذبح التي انتهجها السلفية في تاريخهم الطويل مع مخالفيهم، ولا زالوا يستنون بها، فقد ذبح الجعد بن درهم بعد أن خرج به إلي مصلى العيد بوثاقه ثم خطب الناس وقال: (أيها الناس! ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسي تكليما)(1)، ثم نزل وذبحه.

وقد أثنى على سلوكه هذا كل أعلام السلفية، فقد قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين معقبا على ثناء ابن تيمية على خالد القسري: (جزاه الله خيرا، فالناس يضحون بالغنم والشاة والمعز والبعير والبقر.. وهذا ضحي بشر منها، فإنه شر من الإبل والغنم والحمير والخنازير، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]، ويقول: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]، وإني أسأل الآن: البعير عن سبع، والبقر عن سبع، وهذا الرجل عن كم.. عن آلاف آلاف وقي الله شرا كبيرا، لكن بعض الناس والعياذ بالله يقولون إن هذا العمل من خالد بن عبد الله القسري ليس دينا، ولكنه سياسي، ونقول لهم هذا كذب، لأن الرجل صرح أمام الناس أنه قتله من أجل هذه البدعة)(2)

وقد مدح ابن القيم هذا السلوك العظيم من خالد القسري

(1) البخاري في (خلق أفعال العباد) ص 69.

(2) شرح العقيدة الواسطية.

في (النونية) التي عرض فيها عقيدة السلف، فقال[1] :

ولأجل ذا ضحي بجعد خالد القـ سري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسي الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان

ومن الأمثلة على ذلك – والتي أقرها السلفية وأعجبوا بها- ما حصل للمتفلسف الصوفي عبد الله عين القضاة الهمداني الذي قتله بعض الوزراء بعد أن رأى في بعض كتبه ألفاظا شنيعة ينبو عنها السمع، ويُحتاج إلى مراجعة قائلها فيما أراد بها؛ وقد عمل الوزير محضرا وأخذ فيه خطوط جماعة من العلماء، بإباحة دمه بسبب تلك الألفاظ، فقبض عليه وحمله مقيدا إلى بغداد، ثم أرسله إلى همدان وصلبه بها[2].

ومن الأمثلة على ذلك ـ والتي يعجب بها السلفية إعجابا شديدا ـ ما حصل للفيلسوف الإشراقي شهاب الدين السهروردي الذي أفتى علماء حلب بقتله، وما أسرع ما استجاب الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي لذلك، ثم جاءه أمر من والده صلاح الدين يأمره بقتله[3].

ومن الأمثلة على ذلك، وهو عجيب يبين مدى حنق السلفية على الفلاسفة والعقلانيين، ما فعله سلطان يُعرف بمحمد بن المظفر بجثة الفيلسوف أبي علي بن سينا، فقد نبش قبره، وأخرج رفاته وأحرقها بعد أكثر من 140 سنة من وفاته[4].

والأمثلة على هذا في القديم والحديث أكثر من أن تحصر.. وهذا مجرد مثال عن تغيير الشريعة السمحة بشريعة الغاب التي أسس لها السلفية وسلف السلفية.

1() نونية ابن القيم، الكافية الشافية (ص: 8)

2() ابن حجر: لسان الميزان، ج4 ص: 411.

3() الذهبي : السيّر، ج 21 ص: 10، 211 ..

4() محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ج1 ص: 90.